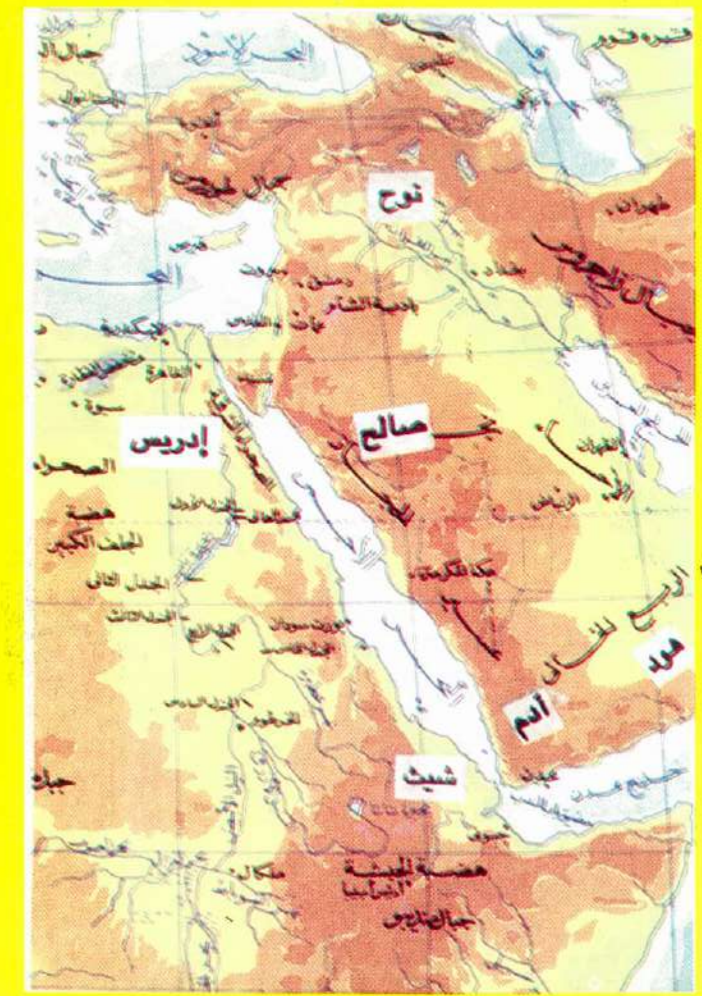
آدم . شيث . إدريس
نوح . هود . صالح عليهم السلام





الجـــزء الأول

تأليف دكتور
رشدى البدراوى
الاستاذ بجامعة القاهرة

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى



قصص الأنبياء والتاريخ
الجزء الأول

آدم . شيث . إدريس
نوح . هود . صالح عليهم السلام

قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الأول

تأليف دكتور
رشدي البدراوي
الأستاذ بجامعة القاهرة

قصص الأنبياء والتاريخ - الجزء الأول.
د. رشدى البداروى

الطبعة الأولى : يوليو ١٩٩٦
الطبعة الثانية : أبريل ٢٠٠٤
الطبعة الثالثة : أكتوبر ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٩٩٦/٨٤٦١
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 17 - 0376 - 5

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى

طبع بمطابع المجلد العربى
ت : ٢٥٩١٢٥٢٤ فاكس : ٢٥٨٩٢٢٣١

محتويات الكتـاب

فهرس الأشكال والخرائط

رقم الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية

صدر الجزء الأول من هذه السلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» في يوليو ١٩٩٦. وكان الترحيب الذى قوبل به خير حافز على استكمال باقى الأجزاء وكان آخرها الجزء السابع وهو يختص بخاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والذى صدر فى يناير ٢٠٠٤. وكان الجزء الأول قد نفد . وهذه هى الطبعة الثانية منه وسيعاد – بإذن الله – طبع ما ينفد من أجزاء هذه السلسلة. والله الموفق،،

أبريل ٢٠٠٤ المؤلف

تقديم للكتاب
بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالى
رحمه الله

قصص الأنبياء من الدراسات المهمة فى علوم القرآن، ولعله أوسعها رقعة وأكثرها أهدافا، إذ أنه يخدم العقيدة والشريعة ويدعم الأخلاق والمثل الرفيعة.

تدبر قوله تعالى على لسان الصديق «ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».

إن الكلام برهان على الإيمان بالله الواحد، فهو يدخل فى باب العقيدة قبل أن يكون جزءاً من قصة مرويّة.

وتدبر رد يوسف على إخوته عندما جاءوا يستنجدون به على ما أصابهم من قحط «قال أنا يوسف وهذا أخى، قد منَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

فى هذا الرد قانون عام عن نتائج الصراع بين الخير والشر، وعن سنن الله الكونية فى المجتمع الإنسانى، وما أفقرنا إلى دراسة هذه السُّنن، فإن الأمم كالأجسام الطافية تعلو بميزان وترسب بميزان، وليس النصر والهزيمة فوضى..!

ومجال البحث فى قصص الأنبياء من القرآن رحب، ولكنه - فى نظرى - محرَّم على الخرافيين والخياليين، وقد قرأت لبعض المؤرخين وبعض المفسرين مَرْويات ونتائج - وهم يتحدثون فى قصص القرآن - فكرهت صنيعهم كما عافه أيضا الراسخون فى العلم، وتعقبوه بالتمحيص والتصويب، من هؤلاء «ابن إياس» فى كتابه بدائع الزهور، والخازن فى تفسيره المشهور، وآخرون يحتاجون إلى المنطق العلمى حين يكتبون.

من أجل ذلك سرنى أن يؤلف فى قصص الأنبياء طبيب حاذق واع هو الدكتور رشدى البدراوى الذى تفرغ لموضوعه وأحاط بأطرافه، وكتب متقيدا بأصول البحث العلمى والسرد التاريخى الدقيق. فجاء كتابه هذا كما يهوى العلماء المحققون صادق السرد سهل العبارة محكوما بالدليل القوى والاستنباط الواضح، وامتاز بمصورات جغرافية تحدد مسار الأجيال المختلفة، ورسوم لشجرات الأنساب التى تحدد الأسلاف والأخلاف .

ولا أذكر أنى رأيت هذا فى مؤلف سابق مع الحاجة إليه.. وأقترح أن يصدر أطلس يحدد الأمكنة والبلاد التى تحدث عنها القرآن الكريم، مع معلومات تعتمد على اليقين أو الراجح فى

ذكر الأحداث والأشخاص، وأنا مع جمهور المفسرين فى أن القرآن لا يفسر بالنظريات العلمية وإنما يُشرح بالحقائق المستقرة.

ويؤسفنى أن رسالة صدرت فى الآونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات وحسب! وأنه قد يستخدم فى سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز مقطوعة عن الواقع التاريخى والصدق العقلى!!

وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال فى آخر سورة يوسف «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

والدكتور رشدى جدير بالثقة فيما يذكر من آراء، وأسوق هذا المثل لأوضح ما أعنى.

فى سورة «المؤمنون» سرد لقصة نوح وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم، ثم قال الله تعالى بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان **«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن أعبدوا الله مالكم من إله غيره..».**

مَنْ القرن الناشئ؟ ومَنْ رسولهم؟

كنت أفهم من السياق أن المقصود «عاد» ونبيهم هود! لأن الله سبحانه يقول فى سورة الأعراف - والكلام مُوجَّه لعاد قوم هود - «اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم فى الخلق بسطة».

ولكنى رأيت الدكتور المؤلف يقول: إن القرن الناشئ هم ثمود!

فعدت إلى التفاسير فوجدت الرأيين مذكورين معا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد!

فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت أن ثمود أُهلكت بالصيحة فى سور القرآن الأخرى وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد فى سورة المؤمنين فيقول «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين»!!

فقلت رأى الدكتور أرجح!! جزاه الله خيرا عما بذل وحقق، وأعانه على إتمام كتابه هذا بروح من عنده.

محمد الغزالى

محمد الغزالي

قصص الانبياء — مقدمة

القصص القرآني من الدراسات المهمة في علوم القرآن، ولعل أوسعها قصة وأكثرها
أهدافا؛ إذ أنه يخدم العقيدة والشريعة ويدعم الأخلاق والمثل الرفيعة...
تدبر قوله تعالى على لسان يوسف الصديق «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون
خير أم الله الواحد القهار» إن الكلام برهان على الإيمان بالله الواحد، فهو
يدخل في باب العقيدة قبل أن يكون جزءا من قصة عريقة. وتدبر رد يوسف
على إخوته عندما جاءوا يستجدونه بعد ما أصابهم من قحط قال «أنا يوسف وهذا
أخي قد من الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»
في هذا الرد قانون عام عن نتائج الصراع بين الخير والشر، وعن سنن الله الكونية
في المجتمع الإنساني، وما أفقرنا إلى دراسة هذه السنن، فإن الأمم كالأجسام
الطافية تعلو بميزانه وترسب بميزانه، وليس النصر والهزيمة فوضى...!
ومجال البحث في القصص القرآني رحب، ولكنه من قديم تحرّم على الخرافيين
والخياليين، وقد قرأت لبعض المؤرخين وبعض المفسرين مرويات ونتائج
وهم يتحدثون في قصص القرآن، فكرهت صنيعهم بل عافه أيضا الراسخون
في العلم، ويتعقبوه بالتمحيص والتصويب، من هؤلاء ابن إياس في كتابه بدائع الزهور
والخازن في تفسيره المشهور وآخرون يحتاجون إلى المنطق العلمي حين يكتبون
[من أجل ذلك سرني أن يؤلف في قصص القرآن طبيب حاذق واع
هو الدكتور رشدي البدراوي الذي تفرغ لموضوعه فأحاط بأطرافه
وكتب مستفيدا بأصول البحث العلمي والسرد التاريخي الدقيق، فجاء
كتابه هذا كما يهوى العلماء المحققون صادق السرد سهل العبارة
محكوما بالدليل القوي والاستنباط الواضح، وازدان بمصورات جغرافية
تحدد مسار الأجيال المختلفة، ورسوم لشجرات الأنساب التي تحدد
الأسلاف والأخلاف.. [ولا أذكر أني رأيت هذا في مؤلف سابق مع الحاجة إليه

محمد الغزالي

[وأقترح أن يصدر أطلس بحدود الأمكنة والبلاد التي تحدث عنها القرآن الكريم مع معلومات تعتمد على اليقين أو الراجح في ذكر الأحداث والأشخاص، وأنا مع جمهور المفسرين في أن القرآن لا يفسر بالظنون العلمية وإنما يُشرح بالحقائق المستقرة.. [ويؤسفني أن رسالة صدرت في الآونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات وحسب، وأنه قد يستخدم في سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز، مقطوعة عن الواقع التاريخي والصدق العقلي!!

[وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال في آخر سورة يوسف «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون». [والدكتور رشدي جدير بالثقة فيما يثبت من آراء، وأسوق لهذا المثل لأوضح ما أعني: في سورة «المؤمنون» سرد لقصة نوح وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم، ثم قال الله تعالى بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان «ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...» من القرن الناشئ ومن رسولهم؟ لا شك أنهم من السياق أن المقصود عاد ونبيهم هود! لأن الله سبحانه يقول في سورة الأعراف موجها — والكلام لعاد قوم هود — «اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة» ولكني رأيت الدكتور المؤلف يقول: إن القرن الناشئ هم ثمود! فعدت إلى التفاسير فوجدت الرأيين مذكورين معا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد! فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت أن ثمود أهلكت بالصيحة في سور القرآن الأخرى وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد في سورة المؤمنون فيقول «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين»!! فقبلت رأي الدكتور أرجح!!

جزاه الله خيرا على ما بذل وحقق وأعانه على إتمام كتابه هذا يردفه بما بعده.......

محمد الغزالي

إهــداء

إلى روح الداعية الإسلامى الكبير فضيلة

الشيخ محمد الغزالى

فلولا تشجيع فضيلته لما تيسر لى أن أمضى
قدماً فى تأليف هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة المؤلـــف

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على رسول الله محمد (ﷺ) .

خطرت لى فكرة هذا الكتاب حينما كنت أتلو القرآن الكريم وأقرأ ما فيه من قصص الأنبياء والمرسلين. وأجد أن القصة تتكرر فى أكثر من سورة. وقد لا يوجد بينها اختلاف كبير فى اللفظ، ولكن أسلوب العرض يختلف فى كل مرة. فلا تشعر أنه «تكرار» بل «إعادة تذكرة» بالحدث ولكن من زاوية أخرى غير سابقتها. فكأن الحدث أمامنا. ننظر إليه مرة من هذا الاتجاه، ومرة ثانية من هذه الناحية، وثالثة من بُعد آخر. فيتجسم الحدث أمامنا وكأننا نعاصره. ونعيشه بكل وقائعه. ونتفاعل مع عناصره. نستجيب للعبرة المقصودة. وتترسب فى عقولنا ووجداننا القيمة المستهدفة من سرد القصة. فمرة يكون التركيز على مبدأ التوحيد ومرة ثانية تُذكر عاقبةُ المكذبين. وفى ثالثة توضيحٌ لثواب المؤمنين وهكذا. ولكن مهما اختلفت القصة. ندرك أن دعوة الأنبياء والرسل دعوةٌ واحدة لا تختلف : دعوة للايمان بالله وحده لا شريك له وتنزيه له عما سواه. ودعوة للعمل الصالح فى الحياة الدنيا ليكون النعيم فى الدار الآخرة.

والدنيا – صراع مستمر بين الخير والشر. بدأ بوسوسة إبليس لآدم حتى أخرجه من الجنة. ولم يَكُفَّ عن الوسوسة ليُضل بنى آدم ويُبعدهم عن الصراط المستقيم. ولكن الله سبحانه وتعالى – لم يضن على بنى آدم بالهداية فأرسل لهم أنبياءَ ورسلاً يهدونهم سواء السبيل. ولكن وسيلة الحفظ والتدوين لم تكن قد ظهرت بعد فى هذه المراحل الأولى من الحضارة الإنسانية. فكانت تعاليم الرسل تنسى أو تندثر أو يصيبها التحريف. فتكون الحاجة إلى رسول آخر. كما أن جماعات بنى البشر كانت متباعدة. منفصلة ومنعزلة عما سواها. لذلك كان كل نبى أو رسول يبعث إلى قومه خاصة. حتى إذا ما وصلت الحضارة الإنسانية إلى مرحلة تمكنها من تدوين التعاليم السماوية بطريقة صادقة فلا يصيبها التحريف ولا يأتى عليها الاندثار، لم يعد هناك مجال لإرسال رسل جُدُدْ. وكان ذلك هو الحال مع الرسالة الخاتمة وهى الإسلام. فقد دُوِّن القرآن تدوينا دقيقاً كما أنزل على رسولنا الكريم. كذلك كانت سيرة الرسول نفسه، بكل وقائعها. وكل أحاديثه – قولاً أو فعلاً أو إقراراً لفعل – كل ذلك كان محفوظاً فى صدور الصحابة. ثم دُون فى صحاح كتب الحَديث. وبلَّغ الرسول دعوته إلى ملوك الأرض فى جميع أنحائها: شرقا إلى فارس، وغربا إلى مصر، وشمالاً إلى الروم، وجنوبياً إلى الحبشة. ولم يعد هناك مجال لرسالات أخرى بعد رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ) .

والنبى – من نبأ – والنبأ هو الخبر العظيم الشأن. ويصحُ معنى الفاعل فهو نبى أى مُنبِئ عن الله تعالى، وبمعنى المفعول لأن الله أنبأه ما يقول فهو نبى، وجمعها نبيون وأنبياء.

وبعض الأنبياء وصفوا أيضاً بأنهم رسل مرسلون. لقوله تعالى:

«واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا». (٥٤ – مريم).

وقيل إن الرسول هو الذى أنزلت عليه رسالة أى كتاب، مثل إبراهيم وموسى وداوود وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ولكن بعض الرسل لم ينزل عليهم كتاب، مثل إسماعيل ولوط، ويونس، وكانوا من المرسلين: ولم يأتوا بشريعة جديدة أو كتاب جديد. ومن ثَمَّ قالوا إن الرسل هم من كان ينزل عليهم الرسول الأمين جبريل عليه السلام. أما الأنبياء فكان يوحى إليهم بالرؤيا الصادقة. كذلك قيل إن الرسول هو المبتدِئ بوضع الشرائع والأحكام. والنبى هو الذى يحفظ شريعة غيره ومن هنا قالوا إن كلَّ رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً.

ولم يذكر القرآن الكريم كل الأنبياء، بل قال تعالى :

«منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك». (٧٨ – غافر).

وقد قَصَّ علينا القرآن الكريم قصص عدد كبير من الأنبياء.

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن» (٣ – يوسف).

وكان قصص القرآن الكريم مجالاً لكثير من الكتاب والأدباء . هذا ذكرها باختصار لتلائم المبتدئين وذاك ذكرها بتفصيل قليل أو كثير لتشبع من يريد زيادة المعرفة.

وهنا كان لابد أن أسأل نفسى: هل هناك إضافة أستطيعُها؟ وكان الجواب: نعم، هناك مجال للإضافة، وهو التوثيق التاريخى للقصص القرآنى. فلم أجد فيما كتب عن قصص القرآن – على كثرته – خريطة واحدة توضح أماكن الأحداث التاريخية. وهذا ما هدفت إليه. وهو استكمال هذا النقص بأن تضمن الكتاب عدداً من الخرائط، توضح أين عاش الرسل، وكيف قُدِّر لهم أن يوجدوا فى هذا المكان أو ذاك، وكيف كانت هجرة الآباء والأجداد. وفى هذا السبيل اتبعت افتراضاً يقبله العقل والمنطق، بل وليس هناك من سبيل لافتراض غيره. ذلك أن القوم إذا تكاثروا فى مكان إقامتهم، ضاق بهم المكان، وقَصُرت الموارد عن كفايتهم من المعيشة والسكنى. يصبح لزاماً أن يرتحل البعض إلى مكان تتوافر فيه المراعى والأرض الزراعية. ومن الطبيعى أن يبقى الأب فى مكانه ويرتحل الابن، وتتكرر بعد عشرات السنين نفس القصة ويرتحل الحفيد إلى مكان آخر وهكذا . فإذا وجد أن أحد الجدود كان يسكن مثلاً فى شمال العراق، وأحد الذرية كان يعيش فى مكان ما حول خليج العقبة. فإنه من المحتم أن الأجيال الموجودة بينهما تكون موزعة على الخط الممتد من شمال العراق إلى خليج العقبة.

كذلك كان التوثيق التاريخى بذكر الدول والممالك التى كانت موجودة فى العصر الذى ظهر فيه هذا النبى أو ذاك.

ولقد كانت هناك صعوبة كبيرة فى تحديد موضع بعض البلدان على الخريطة، إذ أن أسماء المدن كثيرا ما تتغير على مر الأزمنة، أو قد تندثر مدينة وتنشأ على أنقاضها مدينة أخرى، ولزم البحث عن أطالس لأسماء المدن فى هذه الأزمنة القديمة.

ونفس الصعوبة وجدت عند تحديد العصر التاريخى لظهور بعض الأنبياء ومعاصريهم من رؤساء الدول. وعلى سبيل المثال فإن جميع كتب التفسير الإسلامية تذكر اسم النمرود على أنه الملك الذى أمر بالقاء إبراهيم عليه السلام فى النار. وبالرجوع إلى كتب التاريخ لا نعثر على ملك بهذا الإسم إطلاقاً، وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومثال آخر: فلا يزال الخلاف محتدماً حول من هو فرعون موسى.

ولا مندوحة لمن يتصدى للكتابة عن قصص الأنبياء من أن تكون التوراة أحد مراجعه. والتوراة الأصلية ضاعت عند السبى وأعاد أحبار اليهود كتابتها فى المنفى. ولكن هذه الكتابة لم تكن مطابقة للتوراة الأصلية لعدة أسباب منها:

– **التحريف : «يُحرِّفون الكلم عن مواضعه» .**

– **النسيان : «ونسوا حظا ما ذُكِرُوا به»** . (١٣ – المائدة).

– **إغفال ذكر بعض الحوادث** : مثل إغفال ذكر قصتى هود وصالح عليهما السلام، أو رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز.

– **زيادات** : أى إضافة أشياء لم تحدث ولكنها تخدم هدفاً ارتأوه فوضعوها ضمن ما كتبوه ليوهموا أنها من عند الله.

«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (٧٩ – البقرة).

وحينما ترجمت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى – إلى العربية، اقتبس المؤرخون الإسلاميون وكُتَّاب التفاسير منها دون حذر. فغُصَّت كتب التفاسير وكتب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات والأساطير التى دسها أدباء اليهود على التوراة الأصلية.

ولقد قسا بعض العلماء المعاصرين فى نقد كتب التفسير القديمة لما تضمنته من المبالغات فى بعض الأحيان. ويمكننا أن نلتمس لهم العذر فى ذلك، فلعلهم حين قرأوا الآية الكريمة:

«وأنزل إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» (٤٨ – المائدة).

فهموها على أنها تصديق لكل ما جاء فى الكتب السابقة، فصدقوا كل ما حدثهم به مسلمة أهل الكتاب. وكان منهم من حسن إسلامهم. ورأوا بحسن نية أن يُفصلُوا ما أوجزه القرآن الكريم فى قصصه. وبالطبع جاءوا بالتفاصيل مما علموه سابقاً من كتبهم. ولم يتنبه كتاب التفاسير إلى أن بعض مسلمة أهل الكتاب كان من سوء الطوية بحيث دس أقوالا فيها كثير من المبالغات التى تصل إلى حد الخرافات - ليكيد للإسلام.

«وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» (٢٦ - فصلت).

واللغو هو مالا أصل له ولا معنى له من القول وهذا ما فعلوه.

وساعد على ذلك أن العلوم والمعارف لم تكن قد توصلت إلى تفسير لبعض الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق. فقالوا إن هناك ملَكا موكل بالسحاب ومعه مقراع من حديد يسوق به السحاب. والرعد هو زجره للسحاب. والبرق نار تخرج من فيه!!

كذلك كان تفسير الآيات على غير قصدها

«وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب»
(٧٨ - آل عمران).

ويقول ابن كثير إن أخبار أهل الكتاب على **ثلاثة أقسام** :

- منها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله.

- ومنها ما علمنا كذبه بما دلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

- ومنها ما هو مسكوت عنه. وهو المأذون فى روايته بقوله عليه الصلاة والسلام «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يُصدُق ولا يُكذَّب.

وفى رأينا أن أخبار أهل الكتاب تكون كالآتى :

- ما علمنا بصحته لما عليه دليل من الكتاب أو السنة ، ينطبق عليه الحديث.. «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»

- ما علمنا بكذبه لمخالفته الكتاب أو السنة .

- ومنها ما هو مسكوت عنه، فهذا هو الذى ينطبق عليه الحديث الشريف «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» فلا نصدقهم فقد يكونوا يروون كذبا. ولا نكذبهم فقد يكون ما يقولون هو صدقٌ.

ولقد تميز سرد القصص فى القرآن الكريم بإيجاز، بل وبإيجاز شديد أحيانا حتى ليكاد يكون مجرد إشارة عابرة ولكنها مع ذلك تفى بالغرض المقصود.

روى أحمد عن عمر حديثا أن رسول الله (ﷺ) خطب الناس فقال: أيها الناس، إنى قد أوتيتُ جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصاراً... الخ الحديث.

فالاختصار مطلوب لأن سرد القصص فى القرآن الكريم لم يكن بهدف التسلية، بل كان هدفه العبرة:

«لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب». (١١١ - يوسف).

وما لا يخدم هذا الهدف من تفاصيل، تجاوز عنه القرآن الكريم، فمثلا فى قصة نوح عليه السلام، لم تكن أبعاد السفينة ذات أهمية، إذ العبرة هى أن الكافرين كانوا هم المغرقين.

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً». (٢٥ - نوح).

ولكننا نجد التوراة تحدد أبعاد السفينة بالذراع طولاً وارتفاعاً، ثم يأتى آخرون ويظنون أنه كلما عظمت أبعاد السفينة كان ذلك أدعى إلى الإيمان بقدرة الله تعالى، فقالوا طولها ٦٠٠ ذراعاً وقال آخرون ٨٠٠ وقالوا بل ألف ذراع وقال غيرهم ألف ومئتان وزاد غيرهم فقال ألفا ذراع، وفى الماضى كان هذا الكلام يؤخذ على علاّته، أما فى عصرنا الحالى، فقد اشتدت الحملة على الإسلام، ويحاول المبشرون والمستشرقون النيل منه، فبدأوا فى إظهار هذه المبالغات وتضخيمها ونسبتها إلى الفكر الإسلامى لأنها موجودة فى كتب التفسير، ولو أنصفوا - ورجعوا إلى أصولها - لعرفوا بل تيقنوا أنها دخيلة على كتب التفسير، ولكن أنىً لهم أن يفعلوا ذلك!!

وزاد الطين بلة أن بعضاً من هؤلاء المبالغين - ليقنعوا الناس بأقوالهم المبالغ فيها - نسبوها إلى بعض الصحابة - والبعض كان أكثر اجتراءً فوضع أحاديث عن رسول الله (ﷺ) تؤيد أقوالهم، ولم يكن عند بعض السامعين القدرة على تمييز هذه الأحاديث الموضوعة، وعلم الحديث علم واسع - فهناك الحديث الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمنكر، وهناك أحاديث الآحاد والحديث المتواتر، كذلك توجد أحاديث متصلة فى سندها وأخرى فيها انقطاع فى السند - ومن الرواة من هو ثقة، ومنهم من لا يعتد بقوله لعدم تمحيصه لما يسمع، وعدم تمييزه الصحيح من المشكوك فيه أو الموضوع.

ولقد راودنى خاطر أن أتجاهل تماماً هذه المرويات عن أهل الكتاب ولا أذكرها، ولكنى رجعت فحدست أن القارئ ربما وجدها فى كتاب آخر فيظن قصوراً منى بعدم الإطلاع على بعض ما كتب الأقدمون، لذلك فقد رأيت أن أذكر ما جاء فى كتب التفسير القديمة من أقوال

غريبة – والتنبيه على أنها قد تكون من مدسوسات بعض أهل الكتاب من إسرائيليات أو موضوعات، ونقدها نقداً يتمشى مع روح العصر الحالى.

كذلك قد يرى البعض أنى أكثرت من ذكر ما جاء فى التوراة، ونقلت فقرات عديدة بنصها الذى جاء فى التوراة. وقد قصدت من وراء ذلك أن أوضح للقارئ العنصر البشرى للسرد التوراتى للأحداث. ففى بعض الأحيان ينسبون للأنبياء أشياء لا يُتَصَوَّر صدورها من أشخاص عاديين. فما بالنا بأنبياء معصومين!! ذلك أنهم لم يكونوا يوقِّرون الأنبياء التوقير اللازم، ولا كانوا ينظرون إليهم نظرة الإجلال والإكبار التى نحملها – نحن المسلمين – للأنبياء جميعاً.

كذلك قصدت أن يلمس القارئ بوضوح أن التوراة الحالية شئ مغاير للتوراة الأصلية التى ضاعت عند السبى فكتبوها من جديد. ولم يكونوا أمناء عند إعادة كتابتها. فليس فيها العبرة والعظة المرجوة من سرد قصص الأنبياء. بل مكتوبة على غرارْ عامة الكتب التاريخية من التسلسل المألوف للأحداث. كذلك سيلمس القارئ مدى انحراف فكرتهم عن الإله. فهم – وإن كانوا يؤمنون بإله واحد – إلاَّ أنهم تصوروه على هيئة إنسان، يأكل ويشرب، ويتعب ويستريح. فيقولون فى الإصحاح الثانى تكوين: فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك الله اليوم السابع لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل خالقا.

وينفى القرآن الكريم هذه الفرية فيقول:

«ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لُغوب» (٣٨ – ق).

كما أنهم ينسبون إلى الله أعمال الانسان، فذكروا أنه كان ماشياً فى الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب، وأنه دفن موسى حين مات فى مؤاب (عباس العقاد).

كما أن كتاباتهم يتَّضح منها إيمانهم بمبدأ تجسد الإله فيقولون فى الإصحاح الثانى عشر تكوين:

فظهر له (لإبراهيم) الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر، فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك. وتستمر التوراة: وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب. وبعد مراجعة مع الرب – استغرقت صفحة كاملة – قالوا: وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

وتتجلى نظرة التجسيد للإله فى أنهم يخاطبونه كما يخاطب البشر بعضهم بعضاً مثل:

حدث أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقايين: أين أخوك هابيل فقال لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ وهو سؤال استنكار لا يجب أن يصدُر من عبد يخاطب الله سبحانه وتعالى!!

أما الإسلام فهو يقول عن الله: ليس كمثله شيئ - وله الصفات والأسماء الحسنى وينزهه عن التجسد، بل حتى عن التصور، وكل ما خطر ببالك فهو غير ذلك.

والقرآن الكريم - كلام الله - لم يصبه تحريف ولا تبديل. جاء مُعجزاً في لفظه ونسقه ومعناه، فهو فريد في كل ذلك، فنرى فيه المسائل العقائدية والأحكام الشرعية والتعاليم الخلقية والدعوة والنصيحة والعبرة والعظة والزجر والتخويف والترغيب والحجج والبراهين والشواهد والقصص التاريخية والإشارات إلى آيات الله في الكون، كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين بوجوه متباينة وأساليب متعددة، وإذا ذكرت حادثة تاريخية لم تتكر على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ، وإذا أتى بتشريع جاء به بصياغة لم يعتدها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال، وعند عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة السلوك يختار نمطاً يغاير سائر ما كتب في هذا المجال، وهو بهذا فريد في نظمه. فمثلا عند سرد إحدى قصص الأنبياء تجد يتخلل السرد أحيانا حديث عن السماء كيف خُلقت وعن الإنسان نفسه كيف خُلق وعن الأمم الخالية وما حدث لها. لا ليدرس الإنسان التاريخ من خلاله ولا لتُدرس علوم الطبيعة مما جاء به، بل ليقر في الأذهان مبدأ وحدانية الله وأنه خالق كل شئ وهو رب كل شئ وهو الوحيد الجدير بالعبادة ويركز على مبدأ مسئولية الإنسان عن عمله، وهكذا.. ويتكرر ذلك عدة مرات، في كل مرة بلفظ جديد ولترسيخ قيمة جديدة، وهكذا جاءت قصص الأنبياء - في القرآن الكريم - في عدة سور، ولكنها - كما سبق أن قلنا - نظرات متعددة من زوايا مختلفة.

ولكننا - نحن البشر - نرغب أحيانا في أخذ فكرة متصلة متواصلة عن هذا النبي أو ذاك وربط ظهوره بالأحداث على مسيرة التاريخ، وهذا ما حاولته في هذا الكتاب.

وكنت قد عرضت فكرة هذا الكتاب على الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي في مقابلة مع فضيلته في ديسمبر العام الماضي، فأشفق عليَّ لما علم بمقصدي، ولكن فضيلته اقتطع جزءاً من وقته الثمين ليقرأ بعض ما كتبت، ثم شجعني على المضيِّ في هذا الاتجاه وكان أكبر تشجيع لي هو تفضله بكتابة تقديم للكتاب، وقد أرسله لي ساعات قليلة قبل ركوبه الطائرة يوم الثلاثاء ٥ مارس ١٩٩٦ مسافراً للاشتراك في مؤتمر عن الإسلام والحضارة الغربية بالرياض، وكان سروري عظيماً بهذا الفضل الذي أسبغه عليَّ، ولم يكن وقت فضيلته يتسع المرور عليه بالمنزل لأشكره فاتصلت تليفونيا وشكرته وتمنيت له العودة سالماً إن

شاء الله. وفجعت – كما فجعت الأمة الإسلامية – بالأزمة القلبية التى فاجأته أثناء ندوة مساء الجمعة ٩ مارس. فبينا هو يدون ملاحظاته استعداداً لتوضيح وجهة النظر الإسلامية، إذا بالقلم يسقط من يده، ونقل إلى المستشفى على عجل إلاَّ أن روحه الكريمة فاضت إلى بارئها فور وصوله المستشفى، وهكذا سقط الفارس شهيداً فى ساحة القتال التى طالما ناضل فيها – ساحة الفكر، وسلاحه – قلمهُ – فى يده، وكأنما كان القدر يدخر له أن يدفن بالبقيع فى المدينة المنورة، مدينة رسول الله (ﷺ) .

وعزاؤنا أنه – بمشيئة الله – فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً.

ولا أعتقد أنى بهذه الكلمات بمستطيع أن أوفيه حقه من الشكر، لذلك أدعو الله أن يجزيه عنى – وعن الأمة الإسلامية – خير الجزاء.

وفى الختام – أقدم الشكر لكل من عاون بالرأى والمشورة أو بإعارة بعض المراجع.

وأرجو ألاّ يبخل علىّ القراء بملاحظاتهم، حتى تكون الطبعات التالية – إن شاء الله – أقرب إلى الكمال .

والله ولى التوفيق ،،،

المؤلف

آدم عليه السلام

لما شاءت إرادة الله أن يوجد آدم على الأرض، أخبر الملائكة فقال سبحانه وتعالى:

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون» (٣٠ – البقرة)

لم يكن تساؤل الملائكة اعتراضا منهم على مشيئة الله عز وجل فهم منزهون عن ذلك. بل كان سؤال تعجب واستغراب.

ولعل الملائكة قد رأوا الحيوانات على الأرض وهي تتصارع ويقتل بعضها بعضاً. وافترضوا أن الإنسان سيفعل مثلها.

أو لعل الله أطلعهم على الغيب وعمّا سيفعل الإنسان في المستقبل أثناء حياته على الأرض.

وعن مجاهد بن عبد الله بن عمرو قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يُخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم. فلما قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن؟ أو أنهم عرفوا أن هذه الخلافة في الأرض إنما هي تكريم، فطمعوا أن يكون هذا التكريم من نصيبهم، هم الذين يعبدون الله ويسبحونه ولا يفتُرون عن عبادته، فأرادوا أن يكون لهم شرف عبادته في الأرض أيضاً.

وفسر بعضهم قول الملائكة على أنه استغراب وتعجب من فِعْل بني آدم في المستقبل، كأنهم يقولون وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم، أو كأنه سؤال على وجه الاسترشاد لا على وجه الإنكار.

المهم أن الملائكة عجزوا عن فهم حكمة الله تعالى في جعل هذا الخليفة من جنس آخر يختلف عنهم.

وكان جوابه سبحانه وتعالى أن قال لهم: **إني أعلم مالا تعلمون.** فهو يعلم أن عمارة الأرض تحتاج إلى خَلْق آخر غير خلقة الملائكة أو الجان. خلقاً يرتبط بالأرض ودنياها، يحبها ويعمل على عمارتها. ويتحمل في سبيل ذلك الجهد والمشقة. وذلك يختلف عن طبيعة الملائكة النورانية، أو طبيعة الجان النارية. بل يكون مخلوقاً من طين الأرض.

«إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين» (٧١ – ص) .

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» (١٢ – المؤمنون) .

وإذ تمت مشيئة الله وتحول الطين بسبب التخمير إلى طين لزج، يلتصق بعضه ببعض.

«إنَّا خلقناهم من طين لازب» . (١١ - الصافات)

ثم تغيرت رائحة الطين فصار صلصالاً مسنونا أى أملس مصقولا.

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» (٢٦ - الحجر) .

«ثم سواه ونفخ فيه من روحه» (٩ - السجدة) .

وليس لنا أن نسأل عن ماهية الروح بعد أن قال الله فى شأنها:

«ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً». (٨٥ - الاسراء)

وقال بعض العلماء إنها ذاتٌ لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر، وقالوا إن اتصالها بالجسد ينتج عنه النفس، وعلى كل فإنه إعلاءً لشأنها وقدرها. نسبها الله إلى نفسه فقال ونفخ فيه من روحه. كنسبتنا البيت الحرام بمكة إلى الله فنقول: هو بيت الله. وقول إبراهيم عليه السلام: عند بيتك المحرم.

«فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». (٧٢ - ص ، ٢٩ - الحجر)

فكان أول ما شهده آدم بعد خَلْقِهِ هو سجود الملائكة له. سجود تكريم، لا سجود عبادة. أو هو سجود لنفخة الروح فيه. فهم لم يؤمروا بالسجود إلاَّ بعد نفخ الروح فيه وهى دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى فى بعث الحياة فيما لا حياة فيه.

«وعلَّم آدم الأسماء كلها». (٣٢ - البقرة)

وهنا جاء ذكر اسم ذلك المخلوق الذى سيجعله الله خليفة فى الأرض وهو «آدم» .

وقيل أن الاسم مشتق من أدمة الأرض وأديمها. وهو وجهها فسُمِّى بما خُلِقَ منه. والأرض يميل لونها إلى السمرة. ومن معانى آدم السمرة. ونقول آدمته الشمس يعنى لوحت لونه أى صيرته إلى السمرة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُوضِّح للملائكة شرف آدم، ولماذا فضَّله الله بأن اختصه بالخلافة فى الأرض ومعنى قوله تعالى لهم **«إنى أعلم مالا تعلمون»** - فعلم آدم أسماء كل شئ.

جاء فى كتب التفسير: قال السدى فيما حدثه عن ابن عباس قال: علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا جمل وهذا فرس وهذا حمار.

وقال الضحاك عن ابن عباس قال هى الأسماء التى يتعارف بها الناس. إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وغيرها.

وقال مجاهد علَّمه اسم كل دابة واسم كل طير.

وقال الربيع: أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال ثم عرضهم عبارة عما يعقل. ولكن ابن كثير يقول إن هذا الذى رجح به ليس بلازم فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن

الجميع بصيغة من يعقل التغليب كما قال تعالى: **«والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين»**. وقال بعضهم أسماء ماكان وما يكون إلى يوم القيامة.

وهذه التفسيرات كلها مردود عليها أنه من المستحيل أن يَعْلَم آدم أسماء جميع الأشياء ماكان وما يكون إلى يوم القيامة، ولا حتى أسماء الحيوانات كلها. فنحن نعلم فى عصرنا الحالى أن الحيوانات والدواب تبلغ أنواعها مئات الآلاف، وعليه فكلها اجتهادات من المفسرين ولا بأس بها فى العصر الذى كتبت فيه هذه التفاسير.

وأحسن ما قيل هو ما جاء فى تفسير روح المعانى للألوسى (جـ١ ص٢٢٣) إذ قال: الاسم علامة للشيئ ودليل يرفعه إلى الذهن. وقالوا بأنه خلق فى آدم بموجب استعداده علماً ضروريا باشتقاق تلك الأسماء ومدلولاتها، ووجهة دلالتها واستعداداً لإدراك أنواع المدركات فألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها ومعارفها.

وهذا يتفق مع مفهوم عصرنا من أن الله أودع في الإنسان المقدرة على اشتقاق الأسماء للأشياء التى يراها والأفعال التى تقع أمامه. وبواسطة هذه الأسماء يمكنه التعبير عما يريده ويمكنه نقل خبرة جيله إلى الأجيال التالية.

ولرب قائل . كيف يعجز الملائكة – ومالهم من قدرات هائلة فى الانتقال عبر المكان والزمان – عن معرفة أسماء أشياء عرضت عليهم. وللإجابة نضرب مثلاً بجهاز كمبيوتر عملاق يجرى ملايين العمليات الحسابية فى الثانية الواحدة أو فى جزء من الثانية. ولكن لو وُضِعت أمامه قطة وطُلِب منه أن يسميها لم يستطع. فهو لا يعلم إلا ما أدخل فيه من معلومات ولا يستطيع أن يشتق اسما لشيئ لم يعرض عليه من قبل. أما عقل الإنسان فقد زوده الله بالمقدرة على وضع الأسماء للأشياء، وها نحن نرى آلاف المخترعات، وكل جهاز يتكون من آلاف القطع وكل قطعة لها اسم. ولا أكون مُغاليا إذا قلت إنه لولا وضع مسميات للأشياء لما كان هناك تبادل للمعرفة ولما كان هناك تقدم للبشرية على مر العصور. وعبَّر القرآن الكريم عن هذه القدرة على وضع أسماء للأشياء بأنه علَّم بالأسماء كلها. كما نقول لمن تعلم الأبجديه إنه يقرأ كل شيئ. أى أنه قادر على قراءة كل ما يعرض عليه.

ولما رأى الملائكة ما أعطى الله آدم من العلم، أقروا له بالفضل إلا إبليس.

«وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين».
(٣٤ – البقرة)

«إلاَّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين». (٣١ – الحجر)

«إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين». (٧٤ – ص)

«فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه». (٧٦ – ص)

«قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين». (٣٢ – الحجر)

«قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». (١٢ – الأعراف)

«فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين». (١٣ – الأعراف)

«قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً». (١٨ – الأعراف)

«قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين». (٢٤ – الحجر)

«قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين». (٧٧ – ٧٨ – ص)

وسجود الملائكة لآدم كرامة عظيمة من الله تعالى وهو سجود سلام وإكرام. كما قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف. ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجَّداً.

وهنا مسألة: إذ أن الذين أُمروا بالسجود هم الملائكة، وإبليس كان من الجن. فهل شمله أمر السجود؟ قال بعضهم إن إبليس كان من الملائكة وكان اسمه عزازيل. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علما فدعاه ذلك إلى الكِبْر. وبعضهم قال إن الجن فرع من الملائكة وبعضهم قال إن إبليس كان من الجن ولكنه كان حاضراً. فلما أمر الله الملائكة بالسجود دخل إبليس فى خطابهم فإنه وإن لم يكن عن عنصرهم إلاَّ أنَّه كان قد تشبه بهم وتوسَّم أفعالهم. وعلى كل فقد كان مأموراً بالسجود بدليل قوله تعالى:

«قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك». (١٢ – الأعراف)

«قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ». (٥٧ – ص)

ولما خالف الأمر واستكبر أصبح من الكافرين.

وقد يخالف المخلوق أمر الخالق إما تكاسلاً أو نسيانا أو لا يجد عزماً على تنفيذ الأمر مع علمه بأنه أمر من الله تعالى وأنه واجب التنفيذ ولكنه لا يجد قوة على تنفيذه، أو يجد هوى فى نفسه لمخالفة الأمر. هذه معصية. أما أن يناقش الأمر ويرد الأمر على الله. فهذا هو الكفر. وإبليس ناقش الأمر ذاته وردَّ رداً فيه جرأة بالغة.

«قال أأسجد لمن خلقتَ طيناً». (٦١ – الاسراء)

«قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين». (٧٦ – ص)

«قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون». (٣٣ – الحجر)

وكان جزاء كفره أن طُردَ من الجنة، ومن رحمة الله تعالى :

«قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين». (٣٤ – ٣٥ – الحجر)

«قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين». (١٣ - الأعراف)

وفى اسم إبليس قال بعض المفسرين بأن إبليس كان من الجن ثم أبلس.

«إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه». (٥٠ - الكهف)

وأبلس فى العربية يعنى سكت لحيرة أو انقطاع حُجَّة. ويكون معنى إبليس المقطوع الحجة فى الامتناع عن السجود لآدم وقال آخرون (الأستاذ رؤوف أبو سعدة ، من إعجاز القرآن ، جـ ١ ص ١٦٣). إن تسمية إبليس بهذا الاسم جاءت مقترنة بعصيانه أى بامتناعه عن السجود لآدم. وفور هذا كان لَعْنه وطرده من رحمة الله لإنه عاصٍ ورافض لأمر الله فإبليس معناها العاصى والرافض والمتأبى لأمر الله.

«إلا إبليس أبى». (٣٤ - البقرة)

حـــــواء

يقال إن آدم كان يتحدث أحيانا مع الملائكة، ولكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى. ولهذا كان آدم يحس بالوحدة. وجاء فى تفسير الألوسى (روح المعانى) إن الله ألقى على آدم النوم، ثم أخذ ضلعاً من جانبه الأيسر وخلق منه حواء. فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه. فسألها من أنت؟ قالت امرأة. قال ولم خلقت؟ قالت لتسكن إلى. فقالت الملائكة تجربه لعلمه من هذه؟ قال امرأة. قالوا لم سميت امرأة؟ قال لأنها من إمرئ أخذت. (أو لأنها خلقت من المراء وهو الجدال) قالوا ما اسمها. قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لأنها خلقت من شئ حى.

وقال الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم. جـ ١ ص ٢٢٠) إنَّ حواء مشتق من الفعل حوى ومعناها التجمع والاستدارة ومنه الحية لأنها تتحوى أى تستدير على نفسها. ومنه حواه بمعنى استولى عليه وملكه. والحواء هو المكان الذى يحوى الشيئ. وبهذا تكون حواء تعنى السكينة والسكنى، وهذا يتفق مع الهدف الذى من أجله خلقت حواء لقوله تعالى:

«هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها» (١٨٩ - الأعراف)

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها» (٢١ - الروم)

وقيل إنها خلقت قبل دخول الجنة ودخلا معاً وظاهر الآية الكريمة يُشير إلى ذلك فى قوله تعالى:

«وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» (٣٥ - البقرة)

وإلا توجه الخطاب إلى معدوم - وقيل إن حواء كانت موجودة فى علم الله لذلك جاء ذكرها فى الخطاب.

وذهب خيال البعض بعيداً فقال إن الله بعث جنداً من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما تحمل الملوك. وإباسهما النور حتى أدخلوهما الجنة.

وجاء فى التوراة إصحاح - ٢ - تكوين: فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم، هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً.

فـى الجنـــة :

«وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» (٣٥ - البقرة) .

«ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» (١٩ - الأعراف) .

صدر أمر الله بأن يسكن آدم وزوجه الجنة. وما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنها الجنة، دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة. وذهب أناس آخرون إلى أنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحانًا لآدم وحواء . وقال غيرهم إنها جنة من جنات الأرض تقع فى مكان مرتفع قيل بأرض عدن، والمكان كثير وكثيف الظلال يسمى جنة ، كما فى قوله تعالى:

«أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب» (٢٦٦ - البقرة) .

«كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين» (٢٦٥ - البقرة) .

«لقد كان لسبأٍ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» (١٥ - سبأ) .

«ونزلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات» (٩ - ق) .

ويكون الهبوط فى قوله تعالى **«اهبطوا منها جميعاً»** على أنه انتقال من بقعة إلى بقعة أقل ارتفاعاً أو إلى بقعة منخفضة - كما فى قوله تعالى: اهبطوا مصراً.

ومن قالوا بخلق آدم فى الأرض رجحوا أن الجنة كانت فى الأرض أيضاً. إذ لم يُذكر أنه نقله إلى السماء. وقيل ولو كان نقله إليها لكان أولى بالذكر، لأن العروج إلى السماء فيه تكريم كذلك فإن جنة السماء قال الله سبحانه وتعالى فى شأنها **«لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلاّ قليلاً سلاماً سلاما»**. و **«لا لغوٌ فيها ولا تأثيم»** و **«وما هم منها بمخرجين»**. وقد لغا إبليس فيها، وكذَّب، وأخرج آدم وحواء منها.

كما أن جنة الخلد دار نعيم وليست بدار تكليف وقد كُلِّف آدم بألا يأكل من الشجرة.

ولا يدخلها الكافرون. وإبليس كان من الكافرين وقد دخلها للوسوسة، ولو كانت دار الخلد ما دخلها ولو مستترا فى داخل الحيَّة كما قالوا. ولا يجوز أن يقع فيها عصيان ومخالفة.

ويرى البعض أنها جنة فى السماء خلقت خصيصاً لاختبار آدم، ثم اضمحلت.

والرأى الشائع أنها جنة فى الأرض.

وآخرون يرون أن الأحوط والأسلم الكف عن تعيين مكانها. فذلك ليس له أهمية كبيرة - والمهم أنها كانت مكاناً لاختبار آدم.

فالإنسان فى طبيعته غير الملائكة. فالملائكة مجبولون على الطاعة.

«لا يعصون الله ما أمرهم. ويفعلون ما يؤمرون» . (٦ - التحريم).

أما الإنسان فقد شاءت إرادة الله أن يكون مُخيراً فى أفعاله وهذه هى الأمانة التى حملها الإنسان.

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً» (٧٢ - الأحزاب).

وقيل إن السموات والأرض والجبال أشفقن منها من غير معصية، ولكن تعظيماً لله ألاّ يقوموا بها. وعن ابن عباس أن الله سبحانه وتعالى قال لآدم: إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها؟ قال إن أحسنت جزُيت وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها.

فالسموات والأرض مجبولة على الطاعة لقوله تعالى:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين» (١١ - فصلت).

والملائكة أيضا مجبولون على الطاعة.

«لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» (٦ - التحريم).

أما الانسان فهو مخير فى أفعاله. إن شاء أطاع فأثيب وإن شاء عصى وعوقب.

وجاء وقت الامتحان. ولكن قبل الامتحان حذر الله سبحانه وتعالى آدم من إبليس :

«فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» (١١٧ - طه).

كان التجول فى الجنة فى أى مكان مباحاً. وكذلك الأكل من كل ثمار الجنة إلاّ شجرةً واحدة نُهى عنها. وكان هذا النهى هو الاختبار.

«وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (٣٥ - البقرة).

«فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (١٩ - الأعراف).

ووقع خلاف فى هذه الشجرة فقيل هى الحنطة وقيل النخلة. وعن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم أنها شجرة الكرم أى العنب، وقال ابن جرير عن مجاهد إنها التينة. وبعضم قال شجرة المحبة. وقيل شجرة الطبيعة والهوى. وقيل شجرة الخلد. وقيل إن من أكل منها خلد. وقال العلامة أبو جعفر بن جرير، جائز أن تكون أى منها.

وعلى العموم فإن تعيين نوع الشجرة لا يفيد بشيئ فيما نحن بصدده من أن هذا كان أول اختبار لآدم فى حمل الأمانة وفى حرية الاختيار. وللأسف فإن آدم لم ينجح فى هذا الامتحان.

«فوسوس إليه الشيطان» (١٢٠ – طه).

«فوسوس لهما الشيطان» (٢٠ – الأعراف).

والوسوسة تكون فى النفس لقوله تعالى:

«ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه» (١٦ – ق).

وللنفس والقلب مدخلان:

الأول من الخارج وهو الحواس. فالحواس قد تحمل ما يثير الشهوة.

والثانى من الباطن وهو الخيال، وينتقل الخيال من شيئ إلى شيئ.

والخواطر أى ما يحصل من أفكار تكون إما على سبيل التذكر أو على سبيل التجدد.

والخواطر أيضاً أقسام:

– خاطر محمود، يدعو إلى الخير ويسمى إلهاماً.

– وخاطر يدعو إلى الشر ويسمى وسواساً.

– وخاطر يلتبس فيه الأمر على الانسان فلا يدرى أهو من لَّمة الملك أو من لمة الشيطان.

ومن مكايد الشيطان أنه يعرض الشر فى معرض الخير. فالشيطان لا يدعو الناس إلى الشر الصريح، بل يصوره على أنه خير فيقوم الانسان بعمله.

وكانت وسوسة الشيطان لآدم وحواء مُغلَّفة بما هو محبب إلى نفسيهما وهو الخلود.

«وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» (٢٠ – الأعراف).

«فوسوس إليه الشيطان. قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (١٢٠ – طه).

ولم يكتف بهذا. بل أقسم لهما حتى يزدادا اقتناعاً بصحة قوله:

«وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين» (٢١ – الأعراف).

وقاسمهما جاءت بصيغة المفاعلة لاشتراك الطرفين فى القسم. قيل هو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول. وقيل إن قبول النصيحة يعتبر مشاركة. وقيل: قالا له أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين، فأقسم لهما فكان التزامهما بقبول ما نصح به.

ونسى آدم أمر ربه ألا يقرب الشجرة. ونسى أن الله حذره من أن الشيطان عدو له وأنه سيعمل على إخراجه من الجنة.. نسى كل ذلك وانصاع لوسوسة الشيطان.

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً» (١١٥ – طه).

«وعصى آدم ربه فغوى» (١٢١ – طه).

والقائلون بأن الجنة كانت فى السماء يتكلفون تفسيرات لدخول إبليس إلى الجنة فمن قائل إنه قام عند الباب وناداهما وأفسد حالهما. وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة.

وقيل أرسل أحد أتباعه على هيئة طاووس تجلى لهما على سور الجنَّة فدنت منه حواء وتبعها آدم. فوسوس لهما الشيطان من وراء الجدار. وقيل توسل بحية تسورت الجنة. وحكاية الحيَّة هى أشهرها. وهى التى جاءت فى التوراة فى الاصحاح الثالث تكوين. كما يلى:

وكانت الحيَّة أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة. لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل. وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. والقصة طويلة ولكنها تنتهى بالقول: فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أُخذ منها. فطُرد من الجنة وأقام شرقى جنة عدن.

ويفهم من القصة أن الشيطان كان داخل الحية وهو الذى وسوس لهما. والبعض يحمل حواء تبعة المعصية كلها. والحقيقة أنهما – آدم وحواء مشتركان فى الفعل فإن كانت حواء هى التى قطعت الثمرة فقد اشترك آدم بالقبول والأكل منها كما أكلت حواء، وكان قطف حواء للثمرة موافقا لهواه ورغبته فى الخلود. وكان ما أكلاه يسيرا جدا يصل إلى حد التذوق:

«فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (٢٢ – الأعراف).

«فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما. وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وعصى آدم ربه فغوى» (١٢١ – طه).

وكان أكلهما من الشجرة ومعصية ربهما حطا لأنفسهما من رتبة الطاعة إلى المعصية فكأن الشيطان قد دلَّى من درجتهما، أو من الدالة وهى الجرأة أى فجرَّأهما على المعصية بما غررهما به من القسم وبما منَّاهما به من الخلود (تفسير الألوسى، جـ ٨ ص ١٠٠).

وفي حديث عن على بن عاصم عن سعيد بن أبى عردبة عن قتادة عن الحسن عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله (ﷺ) إن الله خلق آدم رجلاً طوالا كثير الشعر كأنه نخله سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه شعره وأول ما بدا منه عورته.

وإذا كان ذلك بالنسبة لآدم فلابد أن شعر حواء أيضاً كان طويلا ومسترسلا يغطى كل جسمها، وقد يكون فى الشجرة التى أكلا منها مادة جعلت شعرهما يسقط. أو أن شعورهما بهول ما اقترفاه من معصية الله، قد أسقط الشعر عنهما وبدت لهما عوراتهما.

وقال وهب بن منبه كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواءاتهما. ولعله يقصد أن المعصية قد جعلت هذا النور ينطفئ.

رأى آخر فى تفسير ما حدث هو أن أكل ثمار الجنة التى كانت مباحة لهما كان لا يتبقى منه فضلات فى أمعائهما فكانا لا يُحدثان أى لا بول ولا براز. فلما أكلا الشجرة بدأت حاجتهما إلى التبول وإلى الغائط ورأيا النجاسة تخرج من سواءتهما فحاولا إخفاءها.

ويذكر هذا الرأى الألوسى فى تفسيره فيقول: ونقل الأجهورى عن حجة الاسلام الغزالى أنه عليه السلام لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الفضلة. ولم يكن ذلك مجعولاً فى شئ من أطعمتها إلاَّ فى تلك الشجرة فلذلك نُهى عن أكلها. فجعل يدور فى الجنة. فأمر الله تعالى ملَكًا يخاطبة فقال له أى شئ تريد يا آدم؟ قال أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى. فقال له فى أى مكان تضعه؟ أعلى الفرش أم على السرر أم فى الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك؟ ثم أمره الله تعالى بالهبوط ويقول الألوسى وأنا لا أرى لهذا الخبر صحة.

فواضح أن واضعي هذا القول كانوا متأثرين بأن هذه الجنة هى جنة الخلد لذلك جاء قولهم الفرش (المرفوعة) والسرر كما جاء فى سورة الواقعة والأنهار والظل الظليل. وجعلوا من أسباب خروجهما من الجنة هو حتى لا يحدثا فيها. وقد سبق ترجيح أن جنة اختبار آدم لم تكن جنة الخلد، بل كانت جنة فى الأرض.

وبعضهم قال: إن الأكل من الشجرة المحرمة أثار فى نفسيهما شهوة الجنس وكانا لا يشعران بالشهوة من قبل. وكانا ينظران إلى أعضائهما كما ينظران إلى باقى أجزاء الجسم.

فلما ثارت شهوتهما تغيرت نظرتهما إلى هذه الأعضاء وشعرا بالحياء وأرادا تغطيتها. ويمكن تشبيه الأمر بالأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم قد يلعبون ذكوراً وإناثًا عرايا بدون حرج حتى إذا كبروا بدأوا يشعرون بالخجل من تعرية أنفسهما.

وهذا الشعور بالخجل من العُرى نوع من الحياء أودعه الله في آدم وبنيه. فالحيوانات لا تستشعر العرى ولا ترى حرجاً في ظهور عوراتها. ولعله من الخطأ أن نقول «عورة» عند الحيوانات. فهى ليست بعورة ولا سوأة بل هى أعضاء مثل الأيدى والأرجل والفم. بل إن الحيوانات لا تستشعر أى حرج من ممارسة الجنس أمام أقرانها. أما الإنسان فالحياء طبيعة فيه. وستر العورة واجب لذلك فإن المذاهب التى تقول بالعودة إلى الطبيعة ومستعمرات العراة التى توجد فى بعض البلاد الأوربية ماهى إلاّ مخالفة للطبيعة البشرية السوية وعودة للحيوانية الفجة بل إن «الطبيعة» نفسها قد سترت عورة الإنسان بشعر العانة سواء فى الرجل أو المرأة.

ولعل إبليس كان يعرف ما سيحدث لهما من شعور بالخزى عندما تبدو لهما عوراتهما. وكان هذا جزءاً من انتقامه من آدم.

«فوسوس لهما الشيطان، ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما» (٢٠ – الأعراف).

«يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان، كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما» (٢٧ – الأعراف).

ولعل الرأى الأول هو أقرب الآراء إلى الحقيقة – وهو أن شعرهما كان من الطول بحيث يغطى جميع أجزاء جسمهما. فلما أكلا من الشجرة سقط الشعر وبدت لهما سوءاتهما.

«وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (٢٢ – الأعراف، ١٢١ – طه).

وعن ابن عباس قال ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما. وخصف النعل إلصاق بعضه ببعض. فكانا يخيطان ورق التين ليغطيا أنفسهما.

ولتوضيح ما سبق أن ذكرناه عن اعتناق اليهود لفكرة تجسد الإله نذكر ما كتبوه فى التوراة عن هذا الموضوع، إصحاح ثالث تكوين: وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم، المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله المرأة ما هذا الذى فعلت؟ فقالت المرأة: الحيَّة غرتنى فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتُرابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسك ونسلها. هو يسحق

رأسك وأنت تستحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم، لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. شوكا وحسكا تنبت لك. وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود. وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما... وتتجلى النظرة التجسدية للاله عندهم فى الفقرة التالية:

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن.

فـى الأرض :

أيّا مـا كـان مكان الجنة، فـقـد كـانت نهـاية المطاف فى الأرض، واسـتـقـر آدم وحـواء فى الأرض.

وجاء قوله تعالى :

«فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه. وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو. ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» (٣٦ – البقرة).

ويذكر القرآن الكريم ندمهما على معصيتهما لأمر الله.

«وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (٢٢ – ٢٣ – الأعراف).

ونرى هنا بلاغة السرد القرآنى. فإن الكلام ولو أنه على لسان آدم وحواء إلاّ أنه يصح أن يقال فى كل موقف ينسى الإنسان فيه تعاليم الله ويخالفها. ثم يتذكر فيقول: رب إنى ظلمت نفسى، وإن لم تغفر لى وترحمنى لأكوننّ من الخاسرين. فليس الهدف مجرد سرد تاريخى لما حدث. بل ليستخلص القارئ العظة والعبرة وهى كيف استغفر آدم لذنبه فتاب الله عليه ليكون أيضا استغفارنا لما قد نرتكبه – وتكون التوبة من نصيبنا إن شاء الله كما كانت لآدم.

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٣٧ – ٣٨ – البقرة).

والمشهور عن ابن عباس أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم ليقولها ليتوب الله عليه هى قوله: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، كما فى الآية.

وعن ابن مسعود أنها ، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلاَّ أنت، ظلمت نفسى فاغفرلى، فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت.

والتوبة هى الرجوع – وإذا أسندت إلى العبد تضمنت أموراً ثلاثة: معرفة الذنب – والندم – والعزم على عدم العود . وكثيراً ما تطلق على الندم وحده، كما فى الحديث الشريف: الندم توبة.

وإذا أسندت إلى الله سبحانه وتعالى كانت عبارة عن قبول التوبة والعفو عن الذنب.

«وعصى آدمُ ربَّه فغوى، ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى» (١٢٢ – طه).

وفى تفسير قوله تعالى «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» روايات لا تثبت ولا تخرج عن كونها من الإسرائيليات أو الموضوعات، من ذلك ما ذكره السيوطى (الدر المنثور جـ ١ ص ٥٨ – ٦١) قال: عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله (ﷺ): لما أذنب آدم الذنب الذى أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال أسألك بحق محمد إلاَّ غفرت لى، فأوحى الله إليه ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك.

ومن الموضوعات أيضا، ما أخرج الديلمى عن على، قال: سألت النبى (ﷺ)» عن قول الله: **«فتلقى آدم من ربه كلمات، فتاب عليه»** فقال: إن الله أهبط آدم بالهند، ومكث آدم بالهند مائة سنة باكيا على خطيئته، حتى بعث الله إليه جبريل وقال: يا آدم ألم أخلقك بيدى؟ ألم أنفخ فيك من روحى؟ ألم أسجد لك ملائكتى؟ ألم أزوجك حواء أمتى؟ قال: بلى قال: فما هذا البكاء؟ قال: وما يمنعنى من البكاء وقد أخرجت من جوار الرحمن، قال فعليك بهذه الكلمات، فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك، قل: اللهم إنى أسألك بحق محمد، وآل محمد. سبحانك لا إله إلاَّ أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم.

ويذكر السيوطى أيضاً عن ابن عباس عن النبى (ﷺ) قال: سأل بحق محمد، وعلى، وفاطمة، والحسن والحسين، إلاَّ تبت علىَّ. فتاب عليه. ومثل هذا الحديث لا يُشك فى اختلاقه وأنه من وضع الشيعة (محمد بن أبو شهبة. الإسرائيليات والموضوعات صـ ٢٥٣ – ٢٤٥).

وكان أمر الهبوط إلى الأرض، وهذا ما كان فى علم الله وقدره من قبل خلق آدم. منذ أن قال الله **«إنى جاعل فى الأرض خليفة»**. وما كان وجوده فى الجنة. سواء جنة فى السماء أو

جنة فى الأرض – إلا لإشهاده تكريم الله له بسجود الملائكة. وإطلاعه على إحدى القدرات التى أودعها الله فيه وهى المقدرة على تسمية الأشياء بأسمائها. وكذلك لمس آدم عدواة إبليس له وحقده عليه منذ أن رفض السجود، ولمس غوايته له ليعصى أمر ربه. وكان أيضا تشريع التوبة.

كل هذه الدروس كان مطلوباً من آدم أن يعيها جيداً قبل أن يخطو أول خطواته على الأرض.

وتختلف كتب التفسير فى مكان هبوط آدم إلى الأرض، فالقائلون بأن الجنة كانت فى السماء يقولون إن آدم نزل بالهند وحواء بجدة وإبليس بالبصرة والحية بأصبهان. ولكن هذه الفُرقة ليس لها من داعٍ إذ يثور السؤال كيف التقى آدم بحواء بعد ذلك وبينهما آلاف الأميال، وليس له علم بالاتجاهات ولا خبرة لعبور الأنهار ولم يكن قد استأنس من الحيوانات ما يُمكِّنه من عبور الصحارى والقفار. والقائلون بهذا الرأى يقولون إن الله كان يطوى الأرض لآدم فى كل خطوة كذا ميل!! وقرب ابن عمر المسافة فقال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة. وكما سبق أن قلنا إن المرجح هو أن جنة الاختبار كانت في عدن في مكان مرتفع وحين أُخرج آدم منها هبط إلى السهول المنخفضة. والأقرب إلى العقل أن آدم وحواء خرجا معاً وهبطا إلى الأرض في مكان واحد.

ويرجح هـ . ج ويلز فى كتاب معالم تاريخ الإنسانية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد جـ ١ ص ١٠١) أن مكان ظهور أول إنسان العصر الحجرى الحديث هو مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية – وهذا المكان هو اليمن ويتفق مع القائلين بأن الجنة كانت في عدن.

كان آدم فى الجنة لا يشقى، فقد كانت المعيشة رغداً. والرغد سعة الرزق وكثرته. وثمار الجنة كانت فى متناول يده وموجودة فى كل مكان، وحيث شاء. ولم يشعر بعطش فالأنهار موجودة والماء متوافر ولا يحس برداً ولا زمهريراً.

«إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى» (١١٨ – ١١٩ طه).

«وكلا منها رغداً حيث شئتما» (٣٥ – البقرة).

ونبهه الله تعالى إلى عداوة إبليس وأنه سيعمل على إخراجهما من الجنة

«فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» (١١٧ – طه).

ومع كل هذا ، نسى آدم التحذير وأكل من الشجرة، وأُخرج من الجنة، وبدأ الشقاء.

وهنا نلاحظ أن التحذير كان بصيغة المثنى، لكونه لآدم وحواء، فى حين أن الشقاء كان فى صيغة المفرد المخاطب وهو آدم، مما يحمل ضمناً أن جزءاً أكبر من الشقاء سيكون من نصيب آدم لقوامته على المرأة ومسئوليته فى البحث عن معايش الحياة، وقد يكون فتشقى فى صيغة المفرد والخطاب لآدم ولكنه يتضمن حواء أيضاً لكونه هو الأقوى، وإذا شقى القوى فمن باب أولى أن يشقى الأضعف أيضاً.

وبدأ يحسان بالجوع – ولم تكن الثمار فى متناول يده كثمار الجنة فكان عليه أن يتسلق الأشجار ليصل إلى الثمار، وظمأ – فبحث عن الماء حتى اهتدى إلى نهر أو بئر – وشعر بلفحة الشمس وحرِّها فاحتمى بظل الأشجار، الشئ الرابع الذى كان له فى الجنة هو « ولا تعرى» – وحينما اقترفا المعصية وبدت لهما سوءاتهما غطيا أنفسهما بورق الجنة، وما كانت هذه الأوراق لتدوم بل جفت وتهرَّأت ولعله اهتدى إلى جلود الحيوانات كبديل أكثر دواماً وأكثر مناسبة وكذلك لعلهما بحثا عن كهف يلجأن إليه حماية من البرد، ومن الحيوانات الكاسرة، وحياءً، ليشعرا بالخصوصية وهما يمارسان حياتهما الزوجية.

وقال تعالى : **«هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا، لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون».**

(١٨٩ – ١٩٠ الأعراف)

ويقول الألوسى : وهذه الآية عندى من المشكلات .

وقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حديثا عن عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى (ﷺ) قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سمِّيه عبد الحارث فإنه يعيش فسمَّته عبد الحارث فعاش فكان هذا نوعاً من الشرك بالله.

ورواه الترمذى فى تفسير الآية عن مجاهد عن المثنى بن عبد الصمد وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا، ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد، ولو أن الإمام أبا محمد بن أبى حاتم فى تفسيره ضعَّفه وأرجَحَ بأن الصحابى عمر بن إبراهيم هو الذى ذكره وقال لعله تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب.

وقال محمد بن إسحق بن سيار عن داود بن الحصنى عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيُعبِّدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال لو أنكما سميتماه بغير الذى تسميانه لعاش، فولدت ولداً فسماه عبد الحارث.

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك بن حصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتاهما إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجكما من الجنة - لتطيعنى أو لأجعلن له قرنى إبل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن. يخوفهما. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثانية فخرج ميتاً، أيضا. ثم حملت الثالثة فأتاهما فذكر لهما: فأدركهما حُب الولد فسمياه عبد الحارث.

وقد اعترض عدد من العلماء على تفسير الآية بهذا الشكل السابق ذكره، إذ أن فيه نسبة الشرك إلى آدم وحواء، وآدم عليه السلام نبى معصوم عن الشرك، فمثلا الإمام القرطبى ذكر هذا التفسير وبين عدم ارتضائه له وقال: ونحو هذا مذكور فى الإسرائيليات وليس لها إثبات، فلا يُعول عليها من له قلب. ويقول ابن كثير فى تفسيره : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب.

وقد وصف ابن كثير الحديث الذى ذكر فى هذا الموضوع أنه حديث شاذ وأن عمر بن إبراهيم الذى رواه قال عنه أبو حاتم الرازى: لا يُحتجُّ به. كما قال إن الحسن - المذكور فى سلسلة رواة الحديث - فسر الآية بغير هذا، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله (ﷺ) لما عدل عنه إلى تفسير آخر. فهذا يدل على أن الحديث موقوف على الصحابى ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب ابن منبه.

وأما التفسير للآية الذى قال به الحسن، فقد ذكر أن محمد بن ثور عن معمر قال الحسن: عُنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى اليهود والنصارى. رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا. وهو بهذا يشير إلى قوله (ﷺ) «ما من مولود إلاَّ ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه» ويقول ابن كثير: ونحن على مذهب الحسن البصرى أنه ليس المراد فى الآية آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله تعالى:

«فتعالى الله عما يشركون»

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير هو الآية التالية لذلك:

«أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون»
(١٩١ - ١٩٢ الأعراف)

فهذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله ولا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع.

وعن الحسن وقتادة أن ضمير جعلاً وآتاهما يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا إلى آدم وحواء عليهما السلام، وهو قول الأصم (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ١٤٠) ويكون المعنى

قوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة، خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وخلق لكل نفس زوجاً من جنسها فلما تغشاها وحملت جعلا له شركاء – فسميا عبد اللات وعبد العزى وغير ذلك، ولذلك كان القول «فتعالى الله عما يشركون» بصيغة الجمع يدل على عدم تعلق الآية بآدم وحواء.

وعن أبى مسلم أن صدر الآية لآدم وحواء كما هو الظاهر، بقوله «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها» وانقطع الحديث. ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر.

وفى رأينا أن أول الآية: هو الذى خلقكم. خطاب لجمع فهو ليس موجها لآدم وحواء والجمع المخاطب هم ولد هذه النفس وزوجها ويبين الله لهم أنهم خلقوا من نفس واحدة وجعل منها زوجها، ثم تكاثرت الذرية. وأن كل زوجين، حينما تحمل الأنثى يدعوان الله إذا آتاهما صالحاً سيكونان من الشاكرين. فما إن يأتيهما الله صالحاً حتى يجعلا له شركاء سواء فى التسميةأو فى غيرها، وفى نهاية الآية يكون الخطاب ثانية إلى الجمع – من ذرية آدم – فى قول: فتعالى الله عما يشركون ولم يقل عما يشركان – حتى لا يختلط الأمر على القارئ فيظن أن المقصود بالشرك هى النفس الأولى وزوجها أى آدم وحواء.

وعلى كل حال فإنها تبين أن الشيطان لم يكن ليكف عن ملاحقة آدم وحواء حتى بعد إخراجهما من الجنة إذ أنه توعد بنيه أيضا. لقوله مخاطبا الله عز وجل.

«قال أرأيتك هذا الذى كرمت على، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا»
(٦٢ – الأسراء)

ولاشك أن وسوسة الشيطان كانت المحرض لقابيل حتى يقتل أخاه هابيل.

قصة هابيل وقابيل :

وتذكر جل الكتب قصة هابيل وقابيل على النحو التالى:

غَشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض فولدت له قابيل وتوأمته إقليما. ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى، ولما بلغوا مبلغ الرجال أدركوا أمر الله تعالى: أن يتزوج قابيل من لبودا توأمة هابيل ويتزوج هابيل من إقليما توأمة قابيل. وكانت توأمة قابيل – إقليما – هى الأجمل فأراد أن يستأثر بها لنفسه. فقال له آدم إنها لا تحل له. فرفض قابيل. فقال آدم. قربا قربانا. فأيكما تُقُبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع. فقدم صبرة من الطعام من أردإ زرعه. وكان هابيل راعيا صاحب

ماشية، فقدم كبشا سمينا من خيار ماشيته. ووضعا قربانهما على الجبل، فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش، ولم تأكل قربان قابيل، فنزلوا عن الجبل وتفرقا. وقد أضمر قابيل فى نفسه قتل أخيه.

«واتل عليهم نبأ ابنى أدم بالحق إذ قربا قربانا. فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك. قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك. إنى أخاف الله رب العالمين. إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. فأصبح من الخاسرين». (٢٧ – ٣٠ المائدة)

وقد اختلف فى كيفية قتله. فقال بعضهم ضربه بحديدة. ولكن يرد هذا الرأى أن الحديد لم يكن معروفاً فى هذا الوقت. ويقال إن إبليس تمثل له وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر. وقصد قابيل أخاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات.فلما قتله لم يدر ما يصنع به.

«فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى، فأصبح من النادمين» (٢٢ – المائدة) .

فبعث الله غرابين. قتل أحدهما الآخر. فحفر له، ودفنه برجليه ومنقاره. فعلم كيف يصنع بأخيه. فحفر فى الأرض قبراً لأخيه، ووضعه فيه، ووارى عليه التراب.

وتقول التوراة تكوين – إصحاح ٤ – ٨ (وقد سبق ذكر ذلك فى المقدمة)

فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخى؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخٌ إلىَّ من الأرض. فالأن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهارباً تكون فى الأرض. فقال قايين للرب: ذنبى أعظم من أن يحتمل إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض. ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهارباً فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن.

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أراد ألاّ يُقتل قابيل انتقاما لمقتل هابيل. حتى يظل حيا يتعذب بذنبه، ويشقى فى فلاحة الأرض فلا تعود تعطيه غلتها وثمارها. ويظل بقية حياته هارباً وتائها فى الأرض.

ومن الأقوال التى لا يعتد بها، وما قاله أيضا الضحاك عن ابن عباس، أنه مكث يحمل أخاه

فى جراب على عاتقه سنة حتى أنتن – فإن تغير الرائحة يظهر بعد أيام قليلة فلا يعقل أن يتحملها أحد، كما أن لفظ القرآن الكريم فبعث الله، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب من غير تراخ.

ومن الإسرائيليات أيضاً المروية عن دهب: أن الأرض نشفت دم ابن آدم المقتول. فلعن ابن آدم الأرض. فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دماً بعد دم هابيل إلى يوم القيامة. ولعل هذا القول وضعه الأقدمون لتعليل ظاهرة أن الماء والسوائل الأخرى تتشرب فى الأرض بينما يظل الدم لا يتشرب. ولكن حاليا يقدّم لنا العلم تفسير هذه الظاهرة. ليس بسبب لعن ابن آدم للأرض، بل بسبب أن الدم فيه مواد تجعله يتجلط بمجرد ملامسته التراب ومتى تجلط الدم لا يمكنه التسرب فى مسام الأرض.

ونعيد هنا ما سبق أن قلناه فى المقدمة، من أن نظرة بنى إسرائيل للإله، فيها نزعة إلى التجسيد. يتضح ذلك فى قول قايين للرب: من وجهك أختفي!! فى حين يؤكد القرآن الكريم على إحاطة علم الله بكل شئ فى قوله تعالى:

«عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسرّ القول ومَن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» (٩ – ١٠ الرعد) .

فمهما هرب قابيل فهو لن يغيب عن علم الله.

ومن نظرتهم التجسيدية للإله أنهم يخاطبونه كما يخاطبون البشر. من ذلك ما سبق ذكره فى المقدمة (ص٧) من رد قابيل على الرب لما سأله عن هابيل. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخى؟ وهو سؤال استنكارى لا يليق من عبد فى حضرة ربِّه.

وهكذا كان دم هابيل أول دم أريق على الأرض من دم ولد آدم – وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية عن آخرين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا تُقتل نفس ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها. لأنه أول من سن القتل».

وحديث آخر روى عن عبد الرازق عن معمر عن الحسن قال قال رسول الله (ﷺ) : «إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم».

ويقال إن عمر هابيل وقت أن قُتل كان عشرين سنة. ويكون عمر قابيل آنذاك اثنتين وعشرين سنة لأنه أكبر من أخيه بعامين.

وقال سالم بن أبى الجعد لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أُتِي فقيل له، حياك الله وبياك أى أضحكك. وبُشِّر بغلام. فعند ذلك ضحك.

وطاف آدم على امرأته فولدت غلاماً بدون أخت. وقالت إنه قد وهُب لها خلفاً من هابيل الذى قُتل وسُمِّى شيث ومعناها «هبة الله». وكان عمر آدم يوم أن ولد شيث مائة وثلاثين سنة.

أمَّا ما نسب إلى آدم عليه السلام من قول الشعر يرثى به هابيل فهو أيضا من الموضوعات إذ الشعر ممنوع على الأنبياء قياساً على ما قيل فى حق رسول الله (ﷺ) .

«وما علمناه الشعر وما ينبغى له» (٦٩ - يس) .

وإن قيل إن ذلك كان خصوصية للمصطفى حيث كانت معجزته هى القرآن وحتى لا يختلط الأمر على الناس. إلا أن الآيات التالية تجعله أيضا ممتنعا على باقى الأنبياء لما فيه من مبالغات وغزل ومدح وهجاء وهو مالا يليق بالأنبياء وعصمتهم.

«والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون» (٢٢٤ - ٢٢٦ الشعراء) .

هل كان آدم نبيا أم رسولاً

روى ابن حيان فى صحيحه عن أبى ذر قال قلت يارسول الله كم الأنبياء قال مائة وعشرون ألفا. قلت يارسول الله من كان أولهم قال آدم. قلت يارسول الله نبى مرسل. قال نعم.

وفى حديث آخر بنفس الإسناد أنه أُنزل عليه خمسون صحيفة.

وقال الطبرانى حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: قال رسول (ﷺ) . ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل. وأفضل النبيين. آدم.. الخ وهذا إسناد ضعيف فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وغيرهم.

وتقول بعض الروايات إن عدة صحف أنزلت على آدم وأن بعضاً منها أنزل أيضا على ابنه شيث وكان آدم قد استخلفه من بعده وعهد إليه وعلمه عبادات ساعات النهار والليل. وبالطبع فإن آدم كان يعظ بنيه وأحفاده وذريته. ويحثهم على طاعة الله وعبادته.

وبلغ آدم عمره الذى قدره الله له. وفى حديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعا أن عمر آدم اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنة. وهذا يمكن ألا يتعارض مع ما ورد فى التوراة من أنه عاش ٩٣٠ سنة إذ يمكن التوفيق بين الرقمين من أن ٩٣٠ سنة شمسية تساوى ٩٥٧ سنة قمرية ويضاف إلى ذلك ٤٣ سنة فترة مقامه فى الجنة قبل خروجه منها على حسب ما ذكره ابن جرير فيكون الجميع ألف سنة.

وتوفى آدم عليه السلام يوم جمعة. وماتت حواء بعده بسنة واحدة. وقال ابن إسحق وغيره إن الله بعث الملائكة غسلته وكفنوه فى ثلاثة ثياب، ثم لحدوا له ودفنوه، ثم قالوا لمن حضروا: هذه سنة ولد آدم من بعده. ويقال إن قبره كان فى كهف وكان بنوه وأحفاده يزورون قبره ويذكرون الله عنده وظلوا على تعاليمه وشريعته زمناً. ولكن هذا لم يكن ليستمر طويلاً فقد كان الشيطان يتربص بهم.

أبنـــاء آدم

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء». (١ – النساء)

وقال أهل العلم بأخبار السلف بأن حواء كانت تلد لآدم توأمين في كل بطن غلاماً وجارية إلاً ابنه شيث فقد ولدته منفرداً. وكان جميع من ولدتهم حواء أربعين ذكرا وأنثى فى واحد وعشين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث.

وقد عاش آدم على الأرض ٩٣٠ سنة (٩٥٧ سنة قمرية) وماتت حواء بعده بسنة واحدة، كما سبق أن ذكرنا . وعدد ٢١ ولادة فى ٩٣٠ سنة تعتبر قليلة جداً. فإن فى الريف، فى عصرنا الحالى من تصل ولاداتها إلى ١٥ ولادة فى عمر لا يزيد عن الستين أو السبعين عاماً.

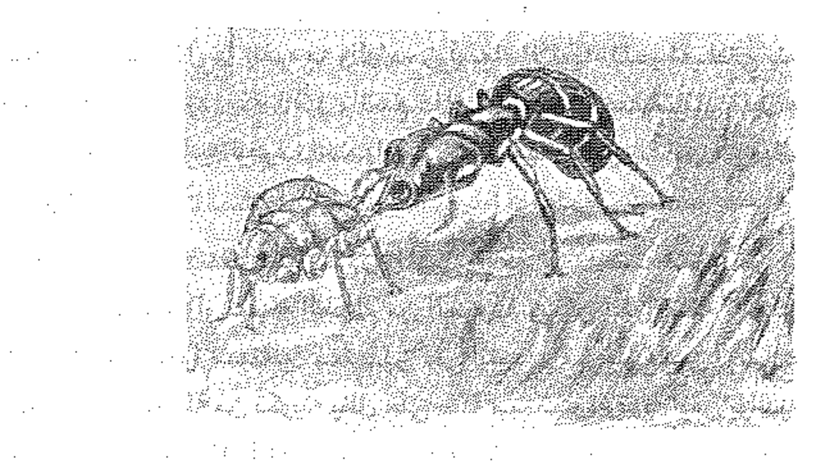
ولهواة المسائل الحسابية أسوق الأرقام التالية: لو فرضنا أن عدد الولادات استمر بمعدل ٢٠ ولادة لمدة ٣ أجيال ثم نقص إلى معدل ١٥ ولادة لمدة ٣ أجيال التالية، ثم نقص إلى ١٠ ولادات لمدة ٣ أجيال أخرى ثم إلى ٥ ولادات فقط لثلاثة أجيال أيضا. لو فرضنا ذلك وهو فرض معقول جداً لوصلنا إلى نتيجة غريبة.

آدم وحواء	٢ =
الجيل الأول : ٢٠ ولادة × ٢ توأم = ٤٠	
وهابيل قتل وعوضا عنه شيث	٤٠ =
الجيل الثانى ٤٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠ أسرة نبدأ بها الجيل الثانى	
ونفترض أن كل أسرة أنجبت ٢٠ طفل	٤٠٠ =
الجيل الثالث ٤٠٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠٠ أسرة × ٢٠ ولد	٤٠٠٠ =
الجيل الرابع ٤٠٠٠ ÷ ٢ = ٢٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل	٣٠ ٠٠٠ =
الجيل الخامس ٣٠,٠٠٠ ÷ ٢ = ١٥,٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل	٢٢٥ ٠٠٠ =
الجيل السادس ١١٢,٥٠٠ أسرة × ١٥ طفل	١ ٦٨٧ ٥٠٠ =
الجيل السابع ٨٤٠,٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل	٨ ٤٠٠ ٠٠٠ =
الجيل الثامن ٤,٢٠٠,٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل	٤٢ ٠٠٠ ٠٠٠ =
الجيل التاسع ٢١ مليون أسرة × ١٠ طفل	٢١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ =
الجيل العاشر ١٠٥ مليون أسرة × ٥ طفل	٥٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠ =
الجيل الحادى عشر ٢١٢,٥ مليون أسرة × ٥ طفل	١ ٣١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ =
الجيل الثانى عشر ٦٥٦,٢٥ مليون أسرة × ٥ طفل	٣ ٢٨١ ٢٥٠ ٠٠٠ =
	٥ ٢٨١ ٠٩٦ ٩٤٢ =

أي أنه في مدى اثنى عشر جيلاً وصل عدد ذرية آدم أكثر من ٥ مليارات وهو يقارب عدد السكان الإجمالي لجميع شعوب الكرة الأرضية في وقتنا الحالي. بعد ١٦ أو ٢٠ ألف سنة من عهد آدم، فلابد أن نسبة الوفيات كانت مرتفعة جداً جداً.

لقد أدرجت هذه المسألة الحسابية لأن البعض قد يستبعد أن يكون كل شعوب الأرض هم من نسل آدم وحواء، ولكن الحساب يؤيد أن ذلك ممكن جداً.

نعود إلى آدم وحواء أول نزولهما على الأرض وبالطبع كان أكلهما كله فاكهة الأشجار الناضجة – وظلا على ذلك عدداً من السنين، ولابد أن الله ألهم آدم استئناس الغنم وزراعة الحبوب، فنحن نرى أن بعض أنواع النمل تزرع في جحورها أنواعاً من الفطريات (عيش الغراب) لتتغذَّى عليها. ونعلم أيضاً أن أنواعاً من النمل تقوم بتربية حشرة المن وتغذيتها وتعمل على تكاثرها وحلب لبنها لتتغذى عليها – (شكل ١).



شكل ١ – يحلب بعض النمل حشرة المن.

ولاشك أن آدم اهتدى أيضا إلى زراعة الحبوب وكذلك إلى رعي الأغنام وأكل لحومها. وقد رأينا في قصة ابني آدم أن قابيل كان يزرع الحبوب وأن هابيل كان يرعى الأغنام.

وبمولد الأبناء الأول لآدم، بدأت نواة «القبيلة» و«المجتمع».

ويختلف البشر عن الحيوانات في هذا المجال، فالوليد من قطيع الغنم أو البقر – بعد بضع ساعات من الولادة – يهب منتصباً على قوائمه الأربع ويمشي مع القطيع. صحيح أنه يلازم أمه التي ترضعه لعدة أشهر ولكنه سرعان ما يتعلم الأكل ويمكنه الاعتماد على نفسه ويستقل

عن أمه كُلِّيَّة، وقد تنقطع صلته بها. أمَّا عن الأب، فلا شعور بالأبوة إلاّ في الحيوانات التي يتلازم فيها الذكر والأنثى طول حياتهما. المهم أن الحيوانات يمكنها الاستقلال بنفسها في فترة مبكرة من العمر. وإن كانت غالبية الرئيسيات تعيش في «قطعان» أو «مجموعات» تسهل لها محاصرة فريسة واقتناصها لمأكلها.

ولكن البشر يكونون «مجتمعات». وأحد العوامل التي تحتم «الحياة الاجتماعية» للبشر يتمثل في الوقت اللازم لتربية الأطفال الآدميين. ففترة الرضاعة تمتد إلى عامين، وإن كانت تقل في بعض الأحيان عن ذلك ببضعة أشهر. كذلك فإن تعلم المشي يحتاج إلى الاعتماد على الوالدين. ثم يتعلم الطفل الكلام عن طريق محاكاة الأصوات التي تصدر عن الوالدين. ثم يتعلم اللغة بالربط بين شئ ما وكلمة ما، أي يتعلم أسماء الأشياء. وهذه هي المَلَكة التي أودعها الله في آدم وبنيه حينما قال **«وعلم آدم الأسماء كلها»** فلم يكن العلم مقصوراً على آدم فقط أو آدم وحواء معاً. بل كانت مَلَكة مودعة فيه لإطلاق الأسماء على الأشياء التي يراها. وتتملكنا الفرحة أول ما ينطق أولادنا «بابا» و«ماما» ونبدأ في تعليمهم هذه يد وهذه رجل وهكذا. ويختزن الطفل في عقله، كل ما يتفوه به والداه من أسماء للأشياء المحيطة، حتى يتعلم الأسماء كلها!! أسماء عالمه المحدود. وكلما كبر واتسع عالمه تعلم أسماء جديدة. وإن قابل أشياء لم تعرض له من قبل أشار لوالديه ليعرف اسمها. وإن كان شيئا لم يره الناس من قبل. وضعوا له اسماً يعرفونه به.

وحتى بعد أن يتعلم الطفل الأكل والمشي واللغة، يجد نفسه عاجزاً عن الوصول إلى الغذاء في قمم الأشجار أو تهيئة الطعام من الحبوب. ويمكن القول بأنه لا يمكن للأطفال من بني البشر أن يصبحوا مستقلين معتمدين على أنفسهم قبل بلوغ سن الإثنى عشر عاماً. وخلال هذه الفترة الطويلة من تكوينه يظل على صلة مستمرة وقوية ليس بوالديه فقط، بل بإخوته وأخواته، سواء من كانوا أكبر منه سنا أو أصغر منه. ومن خلال هذه المعاشرة الطويلة تنتقل إليه خبراتهم. ويلمس فائدة ذلك ويميل إلى البقاء داخل المجموعة. ومن الطبيعي أن تكون هناك اختلافات في الطباع والميول وبالتالي تحدث اختلافات في الآراء. وصدامات وصراعات نتيجة رغبة أحد الأطراف الاستئثار بميزة دون فرد آخر.

وهذا حدث في المجتمع الأول، مجتمع آدم وحواء، وقد بلغ قابيل وأخته سن الثانية والعشرين وهابيل وأخته سن العشرين وأراد قابيل الاستئثار بأخته توأمته مع أن ذلك كان ممنوعاً. وقد سبق تقديم القصة. وقتل قابيل أخاه هابيل وكان هذا من عمل الشيطان ووسوسته تمشيا مع قول إبليس:

«لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين». (٢٩ - الحجر)

ومن الطبيعي أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل، شعر ببشاعة جريمته، ولم يكن ليتحمل نظرات أبويه، ولا نظرات إخوته المستنكرة لفعلته، وخرج هارباً في الأرض خوفاً من أن يقتله أحد إخوته انتقاما لمقتل هابيل.

وتقول التوراة: فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن.

وحتى بدون هذه الجريمة، فما كان لبني آدم وأحفادهم ليبقوا في مكان واحد. فلقد رأينا في المسألة الحسابية السابقة أنهم – بعد ثلاثة أجيال فقط – ولو افترضنا الجيل عشرين سنة – أي بعد ستين سنة وصل عددهم إلى ٤٤٤٢ فرداً. ولم تكن البقعة التي نزل بها آدم وحواء لتَسَعَ كل هذا العدد ولا لعُشْرِه. فكان لابد أن ينقسموا جماعات وترتحل كل جماعة سعيا وراء مكان جديد تتوافر فيه مقومات المعيشة من أكل وشرب وأماكن السكنى. فإن كان آدم وحواء قد وجدا كهفاً يأويان إليه ، يحتميان به من البرد وحماية لهما ولأبنائهما من الحيوانات المفترسة. فما كانت الكهوف لتتوافر لهذا العدد الكبير من الأحفاد في مكان واحد. وهكذا كانت العوامل التي تحدد عدد الجماعة هي الإمكانات الغذائية وتوافر المأوى. وليس من المحتمل أن أي وحدة من وحدات المجتمعات الأولى كان يزيد عددها عن ٢٠٠ فرداً بل المرجح أنها كانت أقل من ذلك بكثير. وهكذا كان لابد أن ينقسم أبناء الجيل الثالث (٤٤٤٢) إلى حوالي اثنين وعشرين وحدة يرتحل أغلبها وتبقى الوحدة «الأم» في مكانها. وإن كان قابيل قد ارتحل شرقاً بعد ارتكاب جريمته فلابد أن جماعات أخرى اتجهت غرباً أو شمالاً. ووجب علينا أن نذكر شيئًا عن جغرافية المكان حتى نعرف أي الطرق سلكت هذه المجموعات في ارتحالها وهجرتها. ونبدأ بنبذة عن الأرض ونشأتها.

الأرض :

لا يهمنا هنا كيف نشأت الأرض. هل نتجت من تكثف سحابة من الغبار الموجود بين الكواكب وتقاربت ذراته فارتفعت درجة حرارته. أو أن نجما كبيرا مر قرب الشمس فجذب جزءًا من مادتها، انتثر وتكونت منه الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس ومن بينها الأرض. فكل النظريات تؤكد أن الأرض بعد تكوينها كانت كتله من الحجارة والمعادن المنصهرة. وبمرور الزمن برد سطحها وظهرت به تجاعيد، فظهرت الجبال وقيعان المحيطات التي امتلأت بالماء عند تكثف بخاره المحيط بالأرض.

ومرت على الأرض أزمنة لا يعلم مداها إلى الله سبحانه وتعالى ولا يعلم طول اليوم إلاَّ هو. ولكنه – كما أخبرنا جل وعلا.

«خلق الأرض في يومين». (٩ – فصلت)

ولا يعلم أحد ما طول اليوم من هذه الأيام.

«وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون». (٤٧ – الحج)

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنه». (٤ – المعارج)

ولاشك أن هناك – فى علم الله – أيامًا أخرى أطول من ذلك بكثير يصل طول اليوم إلى ملايين السنين بل إلى آلاف الملايين من السنين وما ضرب الله المثلين السابقين إلاَّ تقريبا لأذهاننا.

وتمكن العلماء من دراسة صخور الأرض ومعرفة الأحقاب التى مرت بها الأرض وقسموها إلى حقبة ما قبل الحياة. وهى ما قبل ٣٥٠٠ مليون سنة. وكانت الأرض لاتزال ملتهبة. فلم يكن من الممكن أن تنمو عليها أى حياة.

ثم بدأت الأرض تبرد. وبدأت أنواع الحياة تظهر عليها تباعاً حسب ملاءمة درجة الحرارة، وتركيب الجو المحيط بالأرض. كل ذلك ليضع الله الأقوات فى الأرض.

«قل أئنَّكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها. وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين».
(٩ – ١٠ فصلت)

وكانت المعادن فى باطن الأرض من ذهب وفضة وفحم. وردمت بعض البحار بما فيها من أحياء مائية تحولت بمرور الزمن إلى بترول ، وظلت بحارٌ أخرى زاخرة بالأسماك.

«وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا». (١٤ – النحل)

وظهرت النباتات على اليابسة .

«وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه». (٩٩ – الأنعام)

ثم ظهرت الثدييات.

«والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون». (٨ – النحل)

كل ذلك تمهيد لظهور خليفة الله فى الأرض وهو الإنسان .

وكانت الأرض تتعرض فى بعض الأوقات إلى انخفاض شديد فى درجة الحرارة وتتكون طبقات من الجليد تغطى أجزاءً كبيرة من الكرة الأرضية. ثم تدفأ الأرض وينصهر الجليد ويتحول إلى ماء وتفيض الأنهار وتمتلئ البحار والمحيطات. ويقدر العلماء أن أربعة عصور جليدية قد مرت على الأرض وكان آخر هذه العصور الجليدية فى قمته منذ ٣٠ ألف سنة

تقريبا. وكان نزول آدم إلى الأرض فى بداية فترة الدفء بعد العصر الجليدى الرابع – منذ حوالى ٢٠ – ١٥ ألف سنه.

وكما نرى من شكل ٢و٣ فإنه أثناء العصر الجليدى، يتبخر ماء البحار والمحيطات وبدلاً من سقوط المطر، يسقط بَرَد، وتتراكم الثلوج. فتقل مياه البحار والمحيطات وتتكشف الأجزاء الضحلة من قيعانها. وبعض المضايق الحالية تكون وقتئذ أرضا جافة يسهل إجتيازها.

وكما يتضح من شكل ٤ – أن مضيق باب المندب لم يكن موجوداً. بل كان أرضا يابسة يسهل اجتيازها، وكذلك مضيق هرمز.

سبق أن قلنا إن قابيل لما قتل هابيل فرَّ هارباً فى اتجاه الشرق، فى طريق الهجرة رقم١ وسكن أرض نود شرقى عدن. ولكن مع تكاثر بنى آدم وأحفاده تبعه آخرون وكلما تكاثر العدد اندفعت الهجرات كما فى الشكل حتى وصلت إلى مكان مضيق هرمز وعبرته إلى جنوب آسيا ثم إلى جنوب شرق آسيا ثم أستراليا كما فى شكل ٥.

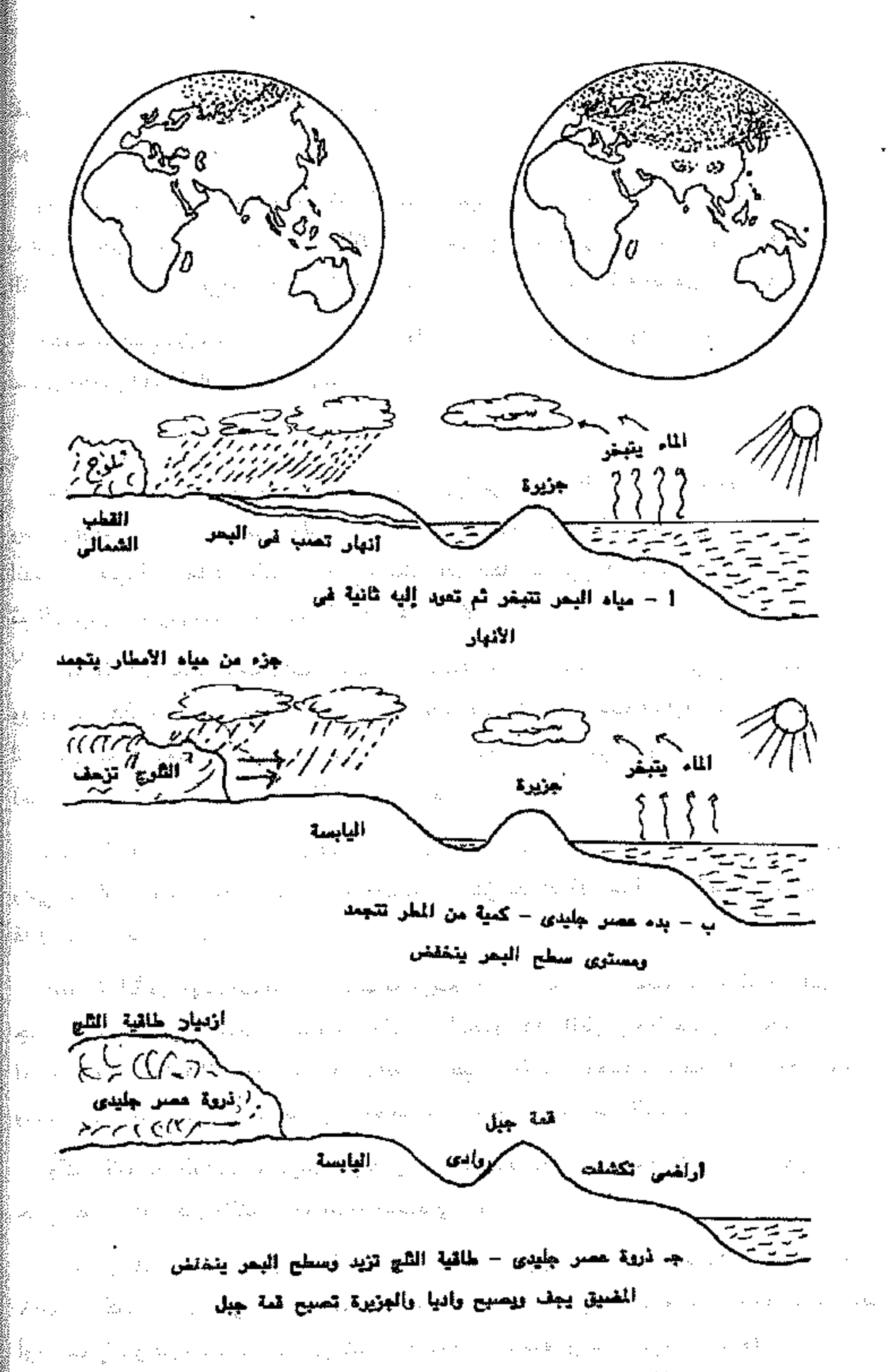
ولابد أنه قد اندفعت هجرات أخرى إلى وسط آسيا ثم عبر مضيق برنج إلى الأمريكتين. ويكون فى هذا تفسير لوجود بعض من بنى آدم عند اكتشاف هذه القارات فيما بعد – وهذا للرد على من يدَّعون أن سكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر بأمريكا قد انحدروا من آدم آخر غير سيدنا آدم. وزعموا أن ذلك يؤيد نظرية التطور.

ومن هذا الشكل نرى أن من عمروا جنوب شرق آسيا واستراليا كانوا من نسل قابيل. وهى أماكن لم يظهر فيها نبى أو رسول. وهذا يتفق مع العقل. فما كان الله ليجعل من نسل قاتل أخيه نبيا أو رسولاً.

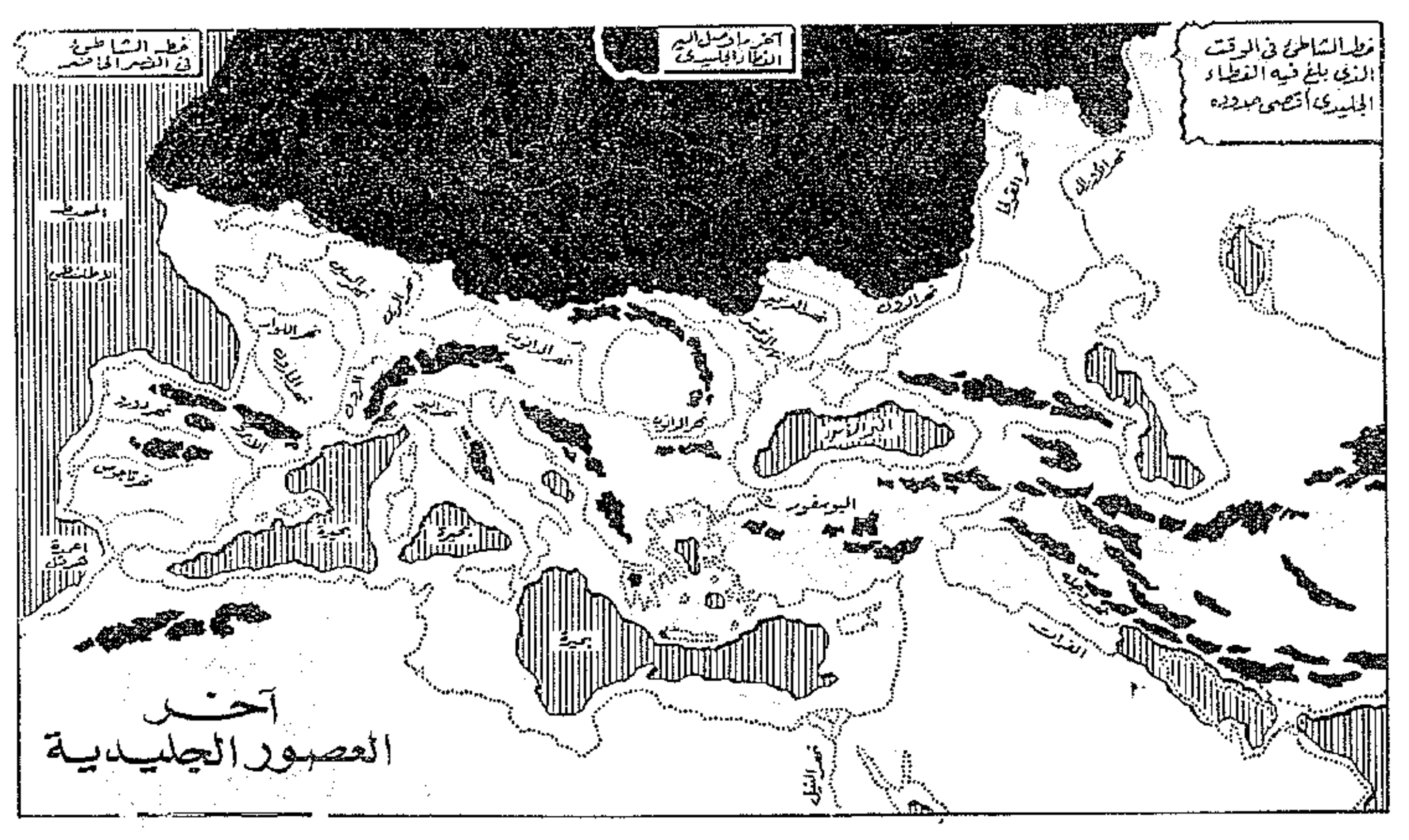
الطريق الثانى لهجرات بنى آدم بعد تكاثرهم، كان غربا: عبر مضيق باب المندب الذى كان جافا. ولابد أن أبناء شيث بن آدم وأحفاده قد اتخذوا هذا الطريق ولما جابهتهم جبال إثيوبيا المرتفعة ساروا شمالاً بجوار الساحل الغربى للبحر الأحمر وكما سنفصل فيما بعد. فإنهم وصلوا إلى وادى النيل الخصيب وعمروه ثم ظهر فيهم إدريس عليه السلام.

وكان الطريق الثالث للهجرات من عدن، هو شمالاً بحذاء الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى وصلوا فلسطين والشام، ثم آسيا الصغرى فأوربا.

قلنا إن قابيل وبنيه ساروا شرقاً. وأصبحوا بعيدين وغير مختلطين بأبناء عمومتهم الذين كانوا يسكنون قرب قبر آدم. ولم يكونوا ليستطيعوا أن يذهبوا ليزوروا قبر جدهم. وتضايق أولاد قابيل. ولعل أحدهم قال: إن لأبناء أعمامنا ما يطوفون حوله ويعظمونه وأنتم مالكم من

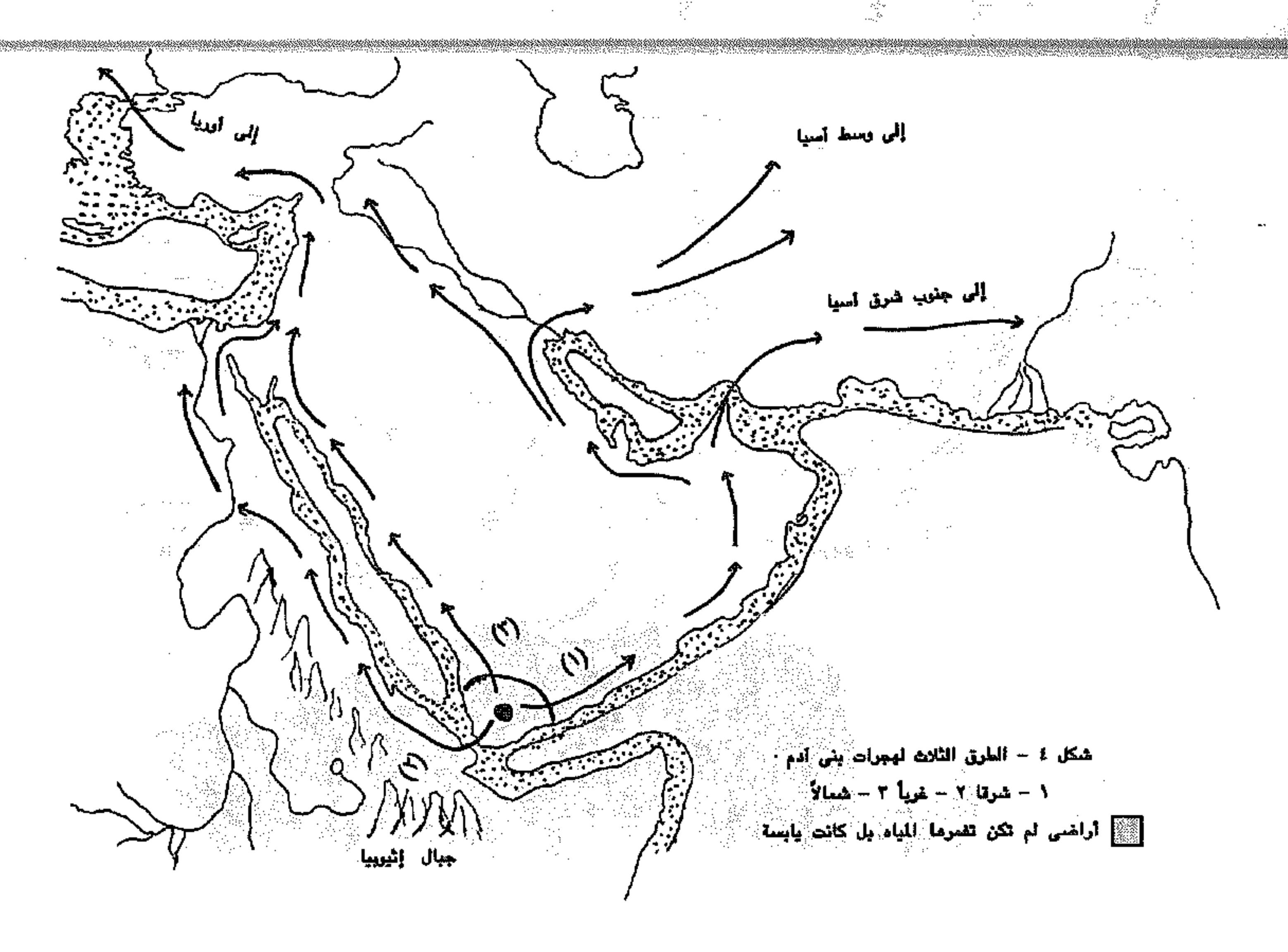


شكل ٢ - انخفاض سطح البحر فى العصور الجليدية

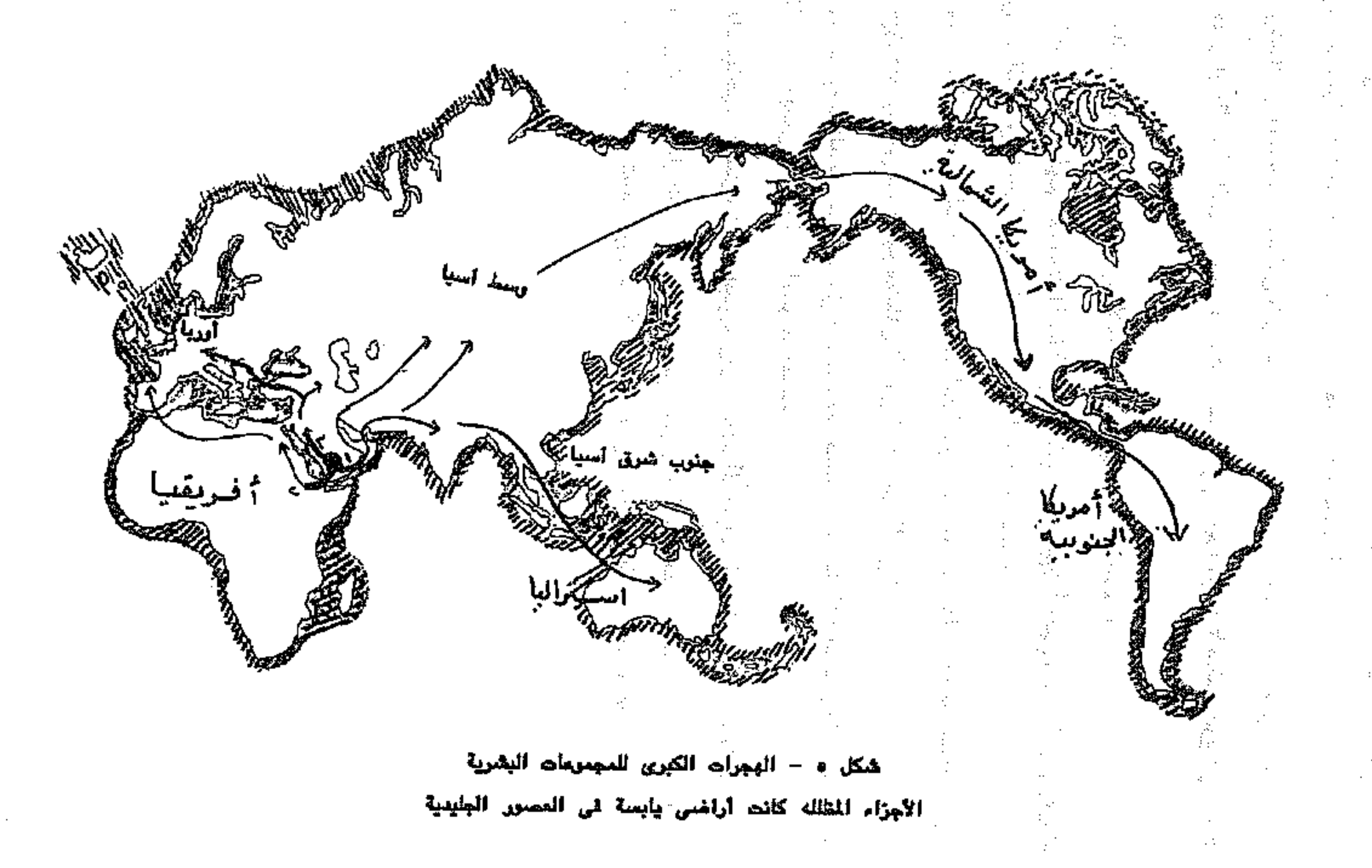


شكل – ٣ – منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط

في آخر العصور الجليدية



شكل ٤ - الطرق الثلاث لهجرات بنى آدم .
١ - شرقا ٢ - غرباً ٣ - شمالاً
أراضى لم تكن تغمرها المياه بل كانت يابسة



شكل ٥ - الهجرات الكبرى للمجموعات البشرية
الأجزاء المظللة كانت أراضي يابسة في العصور الجليدية

شيئ، وإنِّى لصانعه لكم. وصنع لهم صنما. وراح أبناء قابيل يطوفون حوله يبكون آدم ويمضى الوقت تناسوا ذكرا الله وذكر آدم. وكانت هذه بداية عبادة الأصنام.

ولاشك أن وسوسة الشيطان كان لها دور كبير فى هذا الضلال فهو الذى توعد بنى آدم.

«قال أرأيتك هذا الذى كرمت على، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلا». (٦٢ – الإسراء)

وقال **«لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين».** (٢٩ – الحجر)

وقال **«لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين».** (١٦ – ١٧ – الأعراف)

وفى المقابل كان الإلتجاء إلى الله هو الملاذ من وسوسة الشيطان وغوايته لقوله تعالى :

«إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتبعك من الغاوين». (٤٢ – الحجر)

وكلما بعد الناس عن الطريق المستقيم وضلوا – أرسل الله الرسل والنبيين مبشرين ومنذرين – يهدون الناس إلى الصراط المستقيم.

«إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاَّ تعبدوا إلا الله» (١٤ – فصلت)

وكان أول الرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم بعد آدم هو إدريس عليه السلام إلاَّ أنه من المحتمل أن شيثا ، بن آدم كان نبيا ، وإن لم يقص القرآن الكريم عنه شيئاً.

شيث عليه السلام

لا تذكر الكتب التى كتبت قصص الأنبياء شيئاً عن شيث - ابن آدم - فهى لا تضعه فى عداد الأنبياء - ولكن ورد حديث لأبى ذر عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ ١ ص ٩١).

ونزول صحف على شيث تجعل منه نبياً. ورسولاً أيضاً حسب ما هو معلوم من تعريف الأنبياء والرسل (ص٢ - المقدمة).

وعلى ذلك يكون شيث ممن قال عنهم القرآن الكريم:

«ورسلاً لم نقصصهم عليك» (١٦٤ - النساء)

إذ لم يرد شئ عنه فى القرآن الكريم.

أما لماذا لم يرد شئ عنه فى القرآن الكريم فلعل سيرته مع القوم لم يكن فيها ما يمكن استخلاصه ليكون عبرة لغيرها من الأمم - وذلك هو الهدف من القصص القرآنى لقوله تعالى:

«لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» (١١١ - يوسف)

وكان فى ميلاد شيث خصوصية تميز بها على باقى إخوته - إذ وُلِدَ منفرداً. وكان كل إخوته يولدون ومع كل واحد منهم أخت له فى البطن الواحد إلاَّ شيثا. ولد منفرداً.

ومعنى شيث هبة الله، وسمَّياه بذلك لأنهم رزقا به بعد أن قُتِلَ هابيل.

وفى هذا تقول التوراة - (تكوين ٤ : ٢٥) :

وعرف آدم امرأته. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً، قائلة لأن الله قد وضع لى نسلاً عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله.

وتقول أيضا (تكوين ٥ : ٤):

وعاش آدم مائة وثلاين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً. وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانى مائة سنة. وعلى هذا فيحتمل أن شيثا كان أقرب الأبناء شبهاً بآدم عليه السلام.

وما كانت الصحف لتنزل على شيث لو بقى فى نفس الأرض التى بها أبوه - آدم - إذ الأولى أن تنزل الصحف - كما كانت تنزل - على آدم نفسه. وهذا يدل على أن شيثاً لابد كان قد ارتحل إلى أرض جديدة. ويؤكد ما افترضناه من أنه مع تكاثر الذرية من أبناء آدم وبنيهم

وأحفادهم – ضاقت بهم الأرض فى عدن – فارتحل شيث – ومعه بعض من إخوته وبنيهم – فى طريق مغاير للطريق الشرقى الذى اتخذه قابين، فارتحل هو غرباً وعبر مضيق باب المندب الذى كان فى ذلك الوقت أرضاً يابسة (شكل ٧ صفحة ٤٨).

كانت الجماعة التى معه على ديانة التوحيد التى علمهم إياها آدم عليه السلام. ولكن البشرية كانت لاتزال فى أولى خطواتها وكان أمامها الكثير الذى يجب أن تعلمه. يُيَسِّرُ لها حياتها على الأرض. ولعل الله اختار شيثا ليكون هو الراعى لشئون القوم وأنزلت عليه الصحف التى جاء ذكرها فى الحديث الشريف. وبالقطع لم تزد على أنها استكمال لتعاليم آدم عليه السلام، وتفصيل أو توضيح لما أمرهم به من عبادات. وقد يكون جاء بها شئ يصلح لهم أيضاً من أمور دنياهم – المهم أنه لم يكن فى قصته أو سلوك الجماعة معه ما هو عبرة لغيرهم من الأمم، فلم يكن هناك من داع لذكر شئ عن قصته فى القرآن الكريم. بل كان ضمن الرسل الذين لم يقصصهم الله سبحانه وتعالى.

وتقول التوراة أيضاً:

كان عمر شيث ١٠٥ سنة لما وُلِدَ له أنوش.

وأنوش كان عمره ٩٠ سنة لما ولد قينان.

وقينان كان عمره ٧٠ سنة لما ولد مهللئيل.

ومهللئيل كان عمره ٦٥ سنة لما ولد له يارد.

ويارد عمره ١٦٢ سنة لما ولد له أخنوخ.

وأخنوخ هو إدريس عليه السلام وكان أول نبى جاء ذكره فى القرآن الكريم بعد آدم عليه السلام.

إدريس عليه السلام

جاء ذكر إدريس عليه السلام فى القرآن الكريم فى سورتين :

«واذكر فى الكتاب إدريس، إنه كان صدِّيقا نبيًا. ورفعناه مكاناً عليًا». (٥٦ - ٥٧ - مريم)

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل، كُلّ من الصابرين، وأدخلناهم فى رحمتنا، إنهم من الصالحين». (٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

ولم يذكر فى القرآن الكريم أكثر من ذلك عن إدريس عليه السلام ولعل ذلك سببه أن المصريين لم يؤثر عنهم أنهم عارضوه بل إنهم آمنوا به واتبعوه - بل إن مبادئ الديانة التى أُرسِلَ بها أثرت فيهم تأثيراً عميقاً وبقى الدين محوراً رئيسياً فى حياة المصريين - ولم يكن فى قصتهم عبرة أو عظة لغيرهم من الأمم اللاحقة.

كذلك كان ذكره فى كتب قصص الأنبياء مختصراً، فى بعضها لم يزد عن نصف صفحة والبعض الآخر توسع بإضافة ما كتب فى التفاسير من أساطير عن تفسير قوله تعالى:

«ورفعناه مكاناً عليا». وفى كيفية رفعه إلى السماء، وسنذكرها فيما بعد.

وقد جاء ذكر إدريس فى صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله (ﷺ) : «لما عُرِج بى أتيت على إدريس فى السماء الرابعة».

كذلك لم تذكر التوراة عن إدريس إلاَّ «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» وهو تعبير عن «رفعه» الذى جاء فى القرآن الكريم.

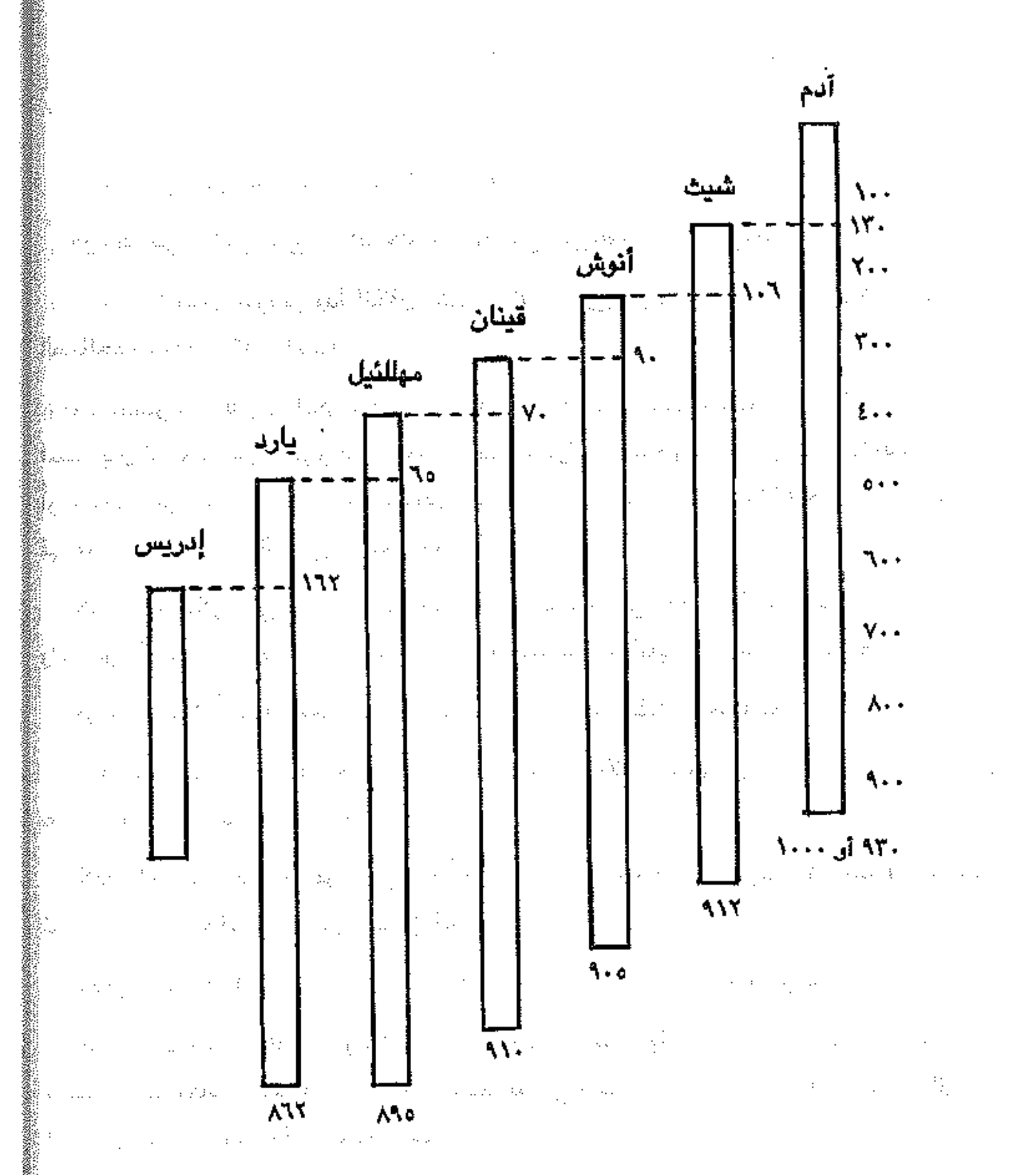
وذكرت التوراة (تكوين ٥:٦ - ٢٤) سلسلة النسب من آدم حتى إدريس هكذا :

هذا كتاب مواليد آدم:... وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولَدَ ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثا ثمانى مائة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مائة وثلاثين سنة ومات.

وعاش شيث مائة وخمسة سنين وولد أنوش. وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مائة وسبع سنين، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام شيث تسع مائة واثنتى عشرة سنة ومات.

وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. وعاش أنوش بعد ما ولد قينان ثمانى مائة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أنوش تسع مائة وخمس سنين ومات.

وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل. وعاش قينان بعد ما ولد مهللئيل ثمانى مائة وأربعين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام قينان تسع مائة وعشر سنين ومات.



شكل ٦ – نسب إدريس عليه السلام.
الرقم أسفل العامود هو العمر كله
والرقم العلوى هو السن عند ولادة الإبن.

وعاش مهللئيل خمساً وستين سنة وولد يَارَدَ. وعاش مهللئيل بعد ما ولد يارد ثماني مائة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام مهللئيل ثماني مائة وخمساً وتسعين سنة ومات.

وعاش يَارَدَ مائة واثنتين وستين سنة وولد أخنوخ. وعاش يارد بعد ما ولد أخنوخ ثماني مائة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنين وستين سنة ومات.

وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه.

هذا ما جاء في التوراة عن أخنوخ أى باختصار هو أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم. كان عمر آدم لما ولد شيث ١٣٠ سنة وعمر شيث لما ولد أنوش ١٠٥ سنة وعمر أنوش لما ولد له قينان ٩٠ سنة، وعمر قينان لما ولد مهللئيل ٧٠ سنة وعمر مهللئيل لما ولد له يارد ٦٥ سنة. وعمر يارد لما ولد له أخنوخ ١٦٢ سنة (شكل ٦).

فإذا جمعنا هذه الأعمار لاتضح لنا أن أخنوخ ولد لما كان عمر آدم ٦٢٢ سنة – وبالطبع كانت ذرية شيث قد ارتحلت ارتحالاً متواصلاً حتى وصلت أرض مصر – حيث ولد أخنوخ – عبر فترة زمنية تقدَّر بخمسمائة سنة.

ومنشأ القول بأن إدريس الذى جاء ذكره في القرآن الكريم هو «أخنوخ» في التوراة – هو تطابق المعنى في قوله تعالى **«ورفعناه مكاناً عليًا»** – وما جاء في التوراة: ولم يوجد لأن الله أخذه.

كما أن رفعناه الواردة في القرآن كان رفعاً حقيقياً وليس معنويا – إذ أن جميع الأنبياء لاشك في ارتفاع مكانتهم المعنوية وارتفاع قدرهم عند الله – إلاَّ أنه لم يوصف أحد منهم بذلك إلاَّ إدريس عليه السلام – وكذلك عيسى عليه السلام في قوله تعالى :

«يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ». (٥٥ – آل عمران)

لم ينتبه المستشرقون إلى اختلاف اسم النبى كما ورد في القرآن الكريم – إدريس – عن الاسم الوارد في التوراة – أخنوخ إذ هم لم يعتقدوا أن الاسمين هما لشخص واحد. وإلاَّ لكانوا طنطنوا وأفاضوا كما فعلوا في اسم أبى إبراهيم عليه السلام – آزر – كما جاء في القرآن الكريم و – تارح – كما جاء في التوراة. وسيجئ ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني إن شاء الله في سيرة إبراهيم عليه السلام.

إلاَّ أن الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٢٤) فسر اختلاف الأسماء هذا على أن الاسم العربى هو ترجمة لمعنى الجذر المشتق عنه الاسم الوارد في التوراة.

ولأقرِّب المسألة إلى ذهن القارئ أضرب مثلاً من الطب. فإننا نقول إن شخصاً عنده Anemia وهو لفظ إنجليزى - ويمكن عند تعريبه أن نلجأ إلى إبقاء النطق كما هو عند الكتابة ونكتبه بحروف عربية هكذا - أنيميا - أى كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية. ولكن الغيورين على اللغة العربية لا يرتضون هذا الحل. فيُرجعون اللفظ الأجنبى إلى مَقَاطعه فنجد أن An تعنى قلة و emia - تعنى دم أى تعنى قلة أو فقر دم. وعلى ذلك فإن فقر دم هى الترجمة العربية لكلمة أنيميا الإنجليزية.

فإذا انتقلنا إلى أسماء الأشخاص ونفترض شخصاً اسمه بالإنجليزية Mr. Carpenter فمن الممكن أن نبقى النطق كما هو ونكتبه بحروف عربية هكذا مستر كاربنتر - ومن الممكن إرجاع الاسم الإنجليزى إلى معناه نجد أنه هو الشخص الذى يعمل الأدوات الخشبية أى النجار فتكون الترجمة العربية لاسم Carpenter كاربنتر - هو النجار.

وعلى هذا المنوال يمكن ترجمة مستر بلاك سميث Mr. Blacksmith إلى الاسم بالعربية - السيد الحداد.

ومستر Shepard شبرد إلى الراعى.

وهذه الطريقة مستعملة حالياً فى بعض الأسماء مثل :

مدرسة الراعى الصالح Bon Pasteur بدلاً من بونباستير.

مدرسة القلب المقدس Sacre Coeur بدلاً من ساكركير.

وهى طريقة تعطى معنى للإسم العربى لا تعطيه له طريقة كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية.

هذا ملخص الطريقة التى افترض الأستاذ رؤوف أبو سعدة أن القرآن الكريم قد اتبعها: الرجوع بالإسم الأجنبى إلى جذره اللغوى، ثم ترجمة الجذر أو أخذ مرادفه فى اللغة العربية واشتقاق الاسم منه فيكون للإسم العربى نفس معنى الاسم الأجنبى.

بتطبيق هذه الطريقة على اسم أخنوخ - الوارد فى التوراة. يرى الأستاذ رؤوف أن أصلها العبرى هو «حنوك»، وفى العبرية إذا جاءت الكاف بعد حرف متحرك أو معتل تنطق خاء، أى أن حنوك تصبح حنوخ. وكلمة حنوك العبرية مشتقة من حَنَّك وهى تقابل الحنكة فى العربية بمعنى الثقافة وحسن التدبير، وحنَّك العبرية فقهه وثقفه وعلَّمه فهو حنوك أى حنوخ أو أخنوخ.

والجذر العربى المرادف هو درس. والإسم إدريس مشتق من دَرَسَ بمعنى الدارس الحاذق الذى درَّس لغيره وعلَّمه وهو يساوى فى المعنى اسم أخنوخ الوارد فى التوراة. والمشهور أن إدريس هو الذى علَّم المصريين العلوم والحساب والنجوم والسياسة فضلاً عن التعاليم الدينية وعقيدة البعث للحياة الآخرة . وعلى كلٍّ فهو اجتهاد لا بأس به.

كيف وصل إدريس والمصريون إلى مصر ؟

كما ذُكِرَ فى المقدمة فإن نهج الكتاب هو ربط قصص الأنبياء بالتاريخ لذلك كان لزاماً أن نذكر كيف وصل أبناء آدم من نسل شيث إلى وادى النيل ، وأدّى تكاثرهم إلى وجود قدماء المصريين – وكيف كانت دياناتهم التى استدعت إرسال إدريس عليه السلام نبياً.

سبق أن افترضنا أن أبناء شيث وأحفاده وبعضاً من إخوته – عندما ضاقت بهم الأرض فى عدن – قد اتخذوا طريق الهجرة رقم ٢ – عبر مضيق باب المندب الذى كان فى ذلك الوقت – قرب آخر العصر الجليدى الرابع – جافاً يسهل اجتيازه، وواصلوا سيرهم شمالاً حتى وصلوا أرض مصر (شكل ٧).

لم تذكر أى من الكتب السابقة مثل هذا الافتراض ولكنه هو الإحتمال الأكبر حدوثاً. إذ أن أول الحضارات التى ظهرت فى العالم كانت فى مصر، وأول نبى بعد آدم وشيث كان إدريس، وكان ظهوره فى مصر أيضاً. ولعل القبائل من نسل شيث ظلت ترتحل تدريجياً شمالاً بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأحمر، فى السهل الساحلى حتى وصلوا الهضبة الشرقية لوادى النيل وسكنوها.

ولم يكن مناخ تلك الأماكن صحراوياً أو جبلياً قاحلاً كما قد يتبادر إلى الذهن إذ نراها الآن، بل كانت الأمطار تسقط عليها. فتوفرت المراعى التى ساعدت على العيش. واستمرت القبائل تتكاثر ويزداد تعدادها. فترتحل جماعات منها طلباً للرزق ويكون الاتجاه شمالاً حيث الأمطار أكثر وفرة والمراعى أغزر.

وسكن بنو شيث وبنو أنوش وقينان ومهلئيل الهضبة الشرقية لوادى نهر النيل. ولكن لما بدأت حرارة الأرض فى الإرتفاع، بدأ العشب يقل فى الهضبة. وأخذ الناس يهاجرون طلباً للماء. ولابد أنهم تعقبوا بعض مجارى السيول ورأوا أن أغلبها يتجه غرباً فتبعُوه إلى أن وصلوا إلى نهر النيل العظيم، حيث وجدوا الماء العذب متوافراً بكثرة فاستقروا حوله. وأغرى توافر الرزق القبائل الأخرى بالقدوم إلى وادى النيل.فالمراعي تسع الكثيرين، وبسرعة انتشر الناس فى الوادى وعمروه. وقُدِّر لمصر أن تكون مهداً لأول حضارة فى العالم.

ومع دفء الجو ذابت الثلوج وامتلأت المحيطات والبحار بالمياه. وأصبح ممر باب المندب مضيقاً تغمره المياه وانفصلت قارة آسيا عن أفريقيا فى هذا المكان وأصبح على من يريد العبور من عدن إلى أفريقيا أن يتخذ طوفاً أو مركباً.

ويجدر هنا أن نذكر نبذة عن مصر وعن ديانتها وكيف تطورت من أبناء شيث الذين كانوا

شكل ٧ - كيفية عبور شيث وقبيلته باب المندب
ثم وصول القبائل من نسله إلى مصر
أماكن كانت يابسة في ذلك الوقت

يعبدون الله كما علمهم جدهم آدم عليه السلام. وكذلك بما وصلهم من صحف أنزلت على شيث. ولكن بمرور الزمن ضلوا ولزم أن يُرسَلَ نبى لهدايتهم وكان هو إدريس عليه السلام.

مصر قبل إدريس عليه السلام :

بعد أن عبرت جماعات البشر مضيق باب المندب اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل فى الهضبة الشرقية لوادى النيل التى كانت زاخرة بالمراعى. وكان كل عمل الإنسان فى ذلك الوقت هو رعى الأغنام. وشرب لبنها. وأكل لحومها. ولحوم ما قد يصيده من حيوانات أخرى مثل الغزال والأرانب. ولعله تعلَّم أن يسلخ جلدها بعد ذبحها، ويكشط الدهون منها بقطع من الحجارة شحذها لتكون حادة، ثم يضع الجلود فى الشمس بعد أن يشد أطرافها بأوتاد ويتركها حتى تجف. ثم يلفها حول وسطه لإخفاء العورة والحماية من البرد. ومن المؤكد أنه بعد ذلك تعلم كيف يخيط بعضها إلى البعض بإبر من العظم وخيوط من الكتان. فتوفرت له ثياب مهندمة بعض الشيئ، ولعله صنع أيضا خياماً ليبيت فيها.

وعندما كانت الجماعات تنتقل من أرض إلى أرض، كانت النساء يحملن الأطفال والمتاع، بينما الرجال يحملون العصى أو الحراب حماية من أى طارئ.

ولما وصل الإنسان إلى وادى نهر النيل، بدأ الاستقرار، فالماء متوافر – والصيد أيضاً متوافر، من الأسماك فى المستنقعات، والظباء فى الأحراش، وتوافر العشب للأغنام، ولم تعد هناك حاجة للارتحال الدائم. وبدأ يفكر فى مبيت أكثر أماناً من الخيام. وأوجدت طبيعة العقل البشرى الخلاقة الحل. فقد رأى الطين يجف وصبح جامداً. فكان أن جعل منه قوالب وبنى بها بيتاً. ثم تفنن فى تشكيل الطين وصنع أوانى لحفظ الحبوب.

ومن شروط استقرار الحياة استقراراً صحيحاً، هو وجود منطقة يتوافر فيها الطعام. ومورد ماء يمكن أن يعتمد عليه على مدار السنة. وتوافر الحشائش كعلف للماشية. ووجود مواد تصلح لبناء المسكن.

ولم تكن هذه الاشتراطات لتتوافر – فى ذلك العصر السحيق – فى الشرق الأوسط إلا فى مكانين: وادى النيل، وفى المنطقة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات. لذلك ظهرت أولى الحضارات فى العالم فى مصر، وحين وصل البشر إلى منطقة ما بين النهرين ظهرت ثانى الحضارات. لذلك كان أول الأنبياء بعد آدم، هو إدريس عليه السلام فى مصر، يليه نوح عليه السلام فى العراق.

كان هذان الإقليمان يتمتعان بمورد دائم من المياه لا ينضب وشمس ساطعة فى أغلب

العام، وتربة طينية خصبة، وهكذا كانت الزراعة تجود على المزارعين بمحصول وافر. بالإضافة إلى مراعى الأغنام وأشجار النخيل والعنب والتين. أما مواد البناء فكان الطين متوافراً فى الإقليمين وزاد فى مصر فيما بعد، الحجر الجيرى، وهو سهل النحت وسهل التهذيب. فظهرت المبانى من الحجارة فى مصر.

وفى هذه الظروف كان الناس يكفون عن التجوال ويستقرون ويتكاثرون وينتجون عدداً من السكان أكثف مما تطيقه الأرض، فكان لابد أن تهاجر جماعات - تلو الجماعات إلى أماكن جديدة. وتم طرد عدد كبير من الحيوانات أو صيدها - ولم تعد هناك جلود تكفى احتياجاتهم وتوصل الذهن البشرى إلى غزل صوف الغنم وألياف شجر الكتان والتيل فى خيوط ثم نسجها فى أقمشة.

وبرع سكان مصر فى صنع الأوانى من الفخار - وظهرت مهارتهم أكثر فى قَطْعِ الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها. فصنعوا الفئوس والمناجل ثم صنعوا آنية جميلة الشكل من البازلت الأسود والمرمر.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن السكان وقد استقروا فى وادى النيل كانوا وحدة واحدة كما فى عصرنا الحالى. بل كانوا عبارة عن جماعات صغيرة متناثرة. كل جماعة بَنَت لها عدة بيوت، وحولها مساحة لزراعتها تكفيهم من الحبوب ومرعى لأغنامهم. أى أنها كانت قرى صغيرة تفصلها المستنقعات عن غيرها من القرى.

وتعلم الإنسان أن يعمل طوفاً من نبات السمار. ثم من نبات البردى، يركبه ليعبر به هذه المستنقعات. ثم استعمل سيقان الأشجار بعد تجويفها وفى مرحلة تالية صنع المراكب الصغيرة من ألواح الخشب.

العقيــــدة

كان السكان الأوائل قريبى العهد بآدم وشيث. وظلوا فى الشدائد والملمَّات يلجأون إلى الله ويذكرونه. ولعل الشيطان فيما بعد قد وسوس لهم - كما وسوس لبنى قابيل الذين ارتحلوا شرقاً - وأغراهم بصنع تمثال على هيئة آدم - حتى يظل فى ذاكرتهم. ولعلهم كانوا يطوفون حوله ويذكرون الله. ولكنهم بعد فترة نسوا ذكر الله ونسوا آدم. وبدأوا يقدسون التمثال نفسه.

كذلك فإن كل جماعة كان يرأسها أكبرهم سناً. ينظم أمورهم ويحكم بينهم. والكل يطيعونه ويهابونه. وينغرس فى نفس الصغار توقير الرجل المسن والخوف منه. وكان عليهم ألاَّ يجلسوا مكانه ولا يلمسوا درعه أو رمحه.

وعند موت أحد هؤلاء الرؤساء والمسنين كان البعض يراهم فى أحلامهم، فيظن أن أرواحهم هائمة. فكانوا يصنعون تماثيل على هيئتهم لتسكن إليها هذه الأرواح فلا تؤذيهم – وهكذا ظهرت فكرة **تقديس الأسلاف**. وأحيانا كانت الجماعة تتخذ **طوطماً** – حجراً بدون تشكيل أو بتشكيل بسيط – تزعم أن روح هذا السلف قد حلَّ فيه فيقدسونه. وأحياناً تتخذ الجماعة حيواناً تجعله طوطماً، وبالطبع فإنها تحرِّم ذبح هذا الحيوان أو صيده. وقد يكون للجماعة عدة طواطم فى آن واحد.

ثم نشأت فكرة أخرى، ولعلها كانت بسبب الأمراض التى كانت تسبب الوفاة فى سن مبكرة، وأصبحت تُعزَى إلى الإصابة باللعنات. ومن ثم ظهرت **فكرة التطهير وإزالة اللعنات** بإرشاد المسنين أو العجائز المحنكات. وكان هذا بدء ظهور **الكهانة والسحر**. ولاسترضاء الأرواح الشريرة كانت تُقَدَّم الضحايا والقرابين. وهذا جعل لطبقة الكهنة سلطاناً عظيماً على الناس. وبدأوا يبنون المعابد التى يقدسون فيها الأصنام والطواطم، وتُقدَّمُ إليها الهبات والقرابين لتكون من نصيبهم. فازدادوا ثراء بغير تعب. وكان لابد من قوة أعلى ينتسبون إليها، فجعلوا الملوك من نسل الآلهة. أو تحل روح الإله فيهم. والتف حول الملوك والكهنة، السحرة والدجالون. كل ذلك جثم على صدور الشعب وزاد من متاعبهم إذ كان عليهم أن يعملوا ليوفِّروا لكل هؤلاء معيشة رغدة بدون عمل حقيقى يؤدونه.

وظل الحال كذلك ما يقرب من خمسمائة عام، وازداد طغيان الكهنة وازداد الظلم. ولعل الشعب المغلوب على أمره، وجد أن خير ما ينسيه همومه، هو عصير العنب بعد أن يترك مدة ليتخمَّر، فانتشرت صناعة النبيذ.

وكان لكل جماعة معبودها – تمثالاً أو طوطماً – على هيئة إنسان أو حيوان أو حتى نبات، وكانت الصراعات تقوم بين الجماعات لاستلاب الحبوب أو الماشية وكثر الفساد وعم البلاد كلَّها. وكان لابد أن تتدخل العناية الإلهية!

جماعة واحدة لم تصبها هذه الشرور، هى جماعة يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وَوُلِدَ ليارد ولد سماه أخنوخ أو خنوخ أو إدريس واختاره الله لهذا الأمر وبعثه نبياً.

إدريس عليه السلام :

«واذكر فى الكتاب إدريس، إنه كان صدِّيقاً نبيًّا، ورفعناه مكاناً عليًّا». (٥٦ – ٥٧ مريم)

وكان إدريس أول بنى آدم أُعْطِيَ النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وقال سفيان عن منصور، عن مجاهد، إن إدريس لم يمت، ورُفع كما رُفع عيسى، وقال رفع

إلى السماء الرابعة. وقال العوفى عن ابن عباس، رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وعن الحسن البصرى قال رفع إلى الجنة.

وفى تفسير الألوسى (روح المعانى جـ ١٦ ص ١٠٦) حديث عن ابن المنذر عن عمر مولى عفرة يرفع الحديث إلى النبى (ﷺ) قال: إن إدريس كان نبياً تقياً زكيًا. وكان يقسم دهره على نصفين : ثلاثة أيام يعلِّم الناس الخير. وأربعة يسيح فى الأرض ويعبد الله مجتهداً. وكان يصدر من عمله وحده إلى السماء من الخير، مثل ما يصعد من جميع أعمال بنى آدم. وأن ملك الموت أحَبَّه فى الله وصَحِبَهُ (وإدريس لا يدرى أنه مَلَك). واختصار الحديث أن إدريس لما رأى أنه لا يأكل شك فيه. فاعترف بأنه مَلَك الموت. وسأله إدريس قال: أُحب أن تذيقنى الموت ثم ترد علىَّ روحى. فقال ما أقدر إلاَّ أن استأذن. فاستأذن ربه فأذن له. فقبض روحه ثم ردها الله تعالى إليه. فقال له مَلَك الموت: يا نبىَّ الله كيف وجدت الموت. قال أعظم مما كنت أحَدَّث وأسمع. ثم سأله رؤية الجنة وأن يدخلها ليأكل من ثمارها ويشرب من شرابها ليكون بعد ذلك أشد طلباً فى عبادته. ففعل – ولما طلب منه ملك الموت الخروج من الجنة رفض إدريس وقال إن شئت خاصمتك. فقال إدريس إن الله تعالى قال: كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته. وقال وما هم منها بمخرجين. لذلك فهو حى فى الجنة.

وروى ابن جرير الطبرى عن عدة رواة. أن الله أوحى إلى إدريس أنه يرفع إليه كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم. فأحب أن يزداد عمله فأتاه مَلَك من الملائكة فقال له إدريس كَلِّم ملك الموت حتى ازداد عملاً. فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء. فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً. فكلَّم ملك الموت فى الذى كلمه به إدريس. فقال. وأين إدريس؟ فقال هو على ظهرى. فقال ملك الموت فالعجب! بُعثتُ وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو على الأرض، فقبض روحه هناك.

ورواه ابن حاتم بنهاية أخرى. إذ قال إدريس سَلْ لى ملك الموت كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه. فقال لا أدرى حتى أنظر. فنظر فقال إنك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلاَّ طرفة عين. فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس. فاذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وقال الحافظ ابن كثير. وهذا من الإسرائيليات وفى بعضه نكارة والأسلم تفويض علم ذلك إلى الله.

أين ولد إدريس ؟

أغلب الأقوال أنه ولد بمصر فى مدينة منف، وسموه هرمس الهرامسة وسماه الله عز وجل فى القرآن الكريم إدريس.

فرقة ثانية قالت إن إدريس ولد ببابل فلما وجد أن من أطاعوه نفر قليل نوى الرحلة عنهم وسار ومن معه حتى أشرفوا على وادى النيل.

وفى رأينا أن هذا الافتراض غير صحيح. إذ كيف وُجِد ببابل؟ وما هو الطريق الذى سلكه أجداده حتى وصل إلى العراق. وهل سلك أبناء شيث نفس الطريق الذى سلكه قابيل - شرقاً. حتى وصل إلى جنوب العراق. ثم وسطها. ثم غرباً إلى فلسطين ثم جنوباً فغرباً إلى مصر. فمادام المقر الأخير إلى مصر. فالأقرب إلى العقل أن يكون طريق باب المندب هو أقصر الطرق إلى مصر وكان المضيق، كما سبق أن قلنا، جافاً يسهل اجتيازه، كما أن الإتجاه غرباً يرجحه رغبتهم فى مغايرة الطريق الذى سلكه قابيل.

ماذا كانت دعوته ؟

لقد كانت البشرية لا تزال فى أولى خطواتها وكانت تحتاج إلى كثير من علوم الدنيا لتمضى فى رحلتها فى الأرض. كما كانت تحتاج لتعميق وتأصيل الإدراك بالحياة الآخرة والبعث والحساب. وكانت هذه دعوة إدريس عليه السلام.

وآتاه الله العلم. فعلَّمه للناس ويقول الألوسى (تفسيره. جـ ١٦ ص ١٠٥): فهو أول من خط بالقلم، وأدخل الكتابة، وكان خياطاً فصنع القماش من الكتان ولبس المخيط. وكان الناس قبله يلبسون الجلود. واتخذ المكاييل والموازين. وهو أول من درس علوم النجوم. فقد ألهمه الله عز وجل أسرار الفلك وترتيبه وتركيبه. ونقط اجتماع الكواكب. وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك.

ولو تمعنا فى قول القائلين بأن المصرى القديم اكتشف ذلك بنفسه لوجدنا صعوبة كبيرة فى تصديق ذلك. فقد كان ذلك يقتضى أن يظل فرد أو عدة أفراد يرقبون النجوم كل ليلة على مدار العام يسجِّلون مواقعها بكل دقة. ثم يراقبون تعاقب الفصول ويرصدون دورة القمر ليكتشفوا السنة القمرية - ووجب عليهم أن يراقبوا ارتفاع الشمس فى الأفق وميلها ويكتشفوا السنة الشمسية. ثم يلاحظوا كوكبى المشترى والزهرة على مدى قرون ليتمكنوا من رصد انتظام دورتهما. لهذا نميل إلى الرأى القائل بأن إدريس عليه السلام قد أُلهم هذا العلم. فوضع بذلك أساس علم الفلك. وكان سهلاً بعد ذلك على الكهنة أن يستمروا فى دراسة حركة النجوم والكواكب.

كذلك قالوا إنه أول من علَّم بالطب. وإن قال البعض إن بعض الحيوانات تعرف أنواعاً من النبات تفيدها عندما تمرض وذلك بالغريزة. قلنا إن الغريزة ما هى إلاَّ مقدرة أودعها الله فى الحيوان ليحفظ بها نفسه. وتعرف الحيوانات ذلك النوع من الحشائش دون أن يدلها عليه أحد

أما البشر فغير ذلك. فقد يدرك أحدهم بالتجربة – أن نباتاً معيناً له فائدة في ذلك المرض فيعلِّمه لغيره. فإذا كان الاكتشاف مثيراً وكبيراً. وحدث بطريق المصادفة بدون تجارب كثيرة قلنا إنه إلهام. فإذا كان إدريس قد علِمَ من أسرار الطب وعلاج كثير من الأمراض. فقد كان ذلك إلهاماً ألقاه الله إليه.

كذلك قالوا إنه أول من استعمل المكاييل والموازين.

كذلك قالوا إنه وضع فكرة بناء البيوت فى تجمعات على هيئة قرى أو مدن. ويقال إن عدد المدن التى أنشئت فى زمانه بلغ ١٨٨ مدينة. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أنها مدن كمدننا الحالية إذ الأغلب أن أيًا من هذه المدن ما كانت لتزيد عن عشرة بيوت أو عشرين أو نحو ذلك. كذلك يقال إنه قَسَّم البلاد إلى أربعة أقسام وجعل على كل منها حاكماً يسوس الناس.

أى باختصار أن الله ألهمه من أمور الدنيا أسس قيام الحضارة الإنسانية من كتابة وقراءة وثياب ومكاييل وموازين المعاملات وعلم الطب والهندسة والفلك والسياسة.

هذا من علوم الدنيا – كذلك فقد آتاه الله النبوَّة. ويقول الألوسى: إن الله أنزل عليه ثلاثين صحيفة. ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار كان فيها الدعوة إلى دين الله، والتوحيد، وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح فى الدنيا. وبيَّن أن عمل المرء محسوب عليه. وأن الموت ليس هو نهاية المطاف. بل إن هناك حياة أخرى توزن فيها الأعمال ويُحاسب عليها. وحضَّ الناس على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل. وأمرهم بصلوات وصيام بضع أيام من كل شهر. وأمرهم بإعطاء بعض أموالهم إلى الفقراء. وغلَّظ عليهم فى الطهارة من الجنابة. وحرَّم المُسْكِرَ من كل شئ من المشروبات. وجعل لهم أعياداً كثيرة كان جلُّها مرتبطاً بالكواكب مثل رؤية الهلال ودخول الشمس رؤوس البروج.

ومن أقوال هرمس الذى يرى كثير من العلماء أنه هو إدريس ما ذكره الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص ٤٥):

– إذا دعوتم الله فأخلصوا النية.

– لا تحلفوا كاذبين .

– تجنبوا المكاسب الدنيئة.

– حياة النفس الحكمة.

– من تجاوز الكفاف لم يغنه شئ.

– حُب الدنيا وحُبُّ الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبداً.

وقد كان لسلاسة الطبيعة فى وادى النيل من حيث مناخه، وانبساط أرضه، وانتظام النيل

فى فيضانه، وجلبه الخير والنماء بوفرة للإنسان والحيوان، أثر فى استقرار الحياة وسلاسة أخلاق سكانه فلم يؤثر عن المصريين معارضتهم لإدريس عليه السلام حين أمرهم بنبذ أصنامهم، ولا كذبوه فى أنَّه مُبَلِّغٌ من ربه. بل إن المصريين آمنوا به واتبعوه وتعمقت العقيدة الدينية فيهم وتأصلت تأصلاً كبيراً حتى لنلاحظ – أنهم وإن ضلوا طريق الإله الحق فيما بعد – إلاَّ أن الدين ظل هو المحرك الأكبر لحركة الحياة لدى المصريين القدماء. كذلك إن قلنا إن المصريين قد آمنوا بإدريس عليه السلام، فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن المصريين كلهم، فرداً فرداً، قد فعلوا ذلك. فإن المجتمعات الأولى كانت عبارة عن قرى صغيرة وكل مدينة منفصلة عن المدن الأخرى بمستنقعات كثيرة. وكل مدينة لها حاكم. وكان هذا الوضع يسمى إمارات المدن City States أى كل مدينة هى إمارة مستقلة. وإذا وقع حدث ما فى مدينة، فلا يستدعى ذلك أن تُلِمَّ به كل المدن الأخرى، صحيح أن المدن المجاورة يمكن أن تُلِمَّ به، فقد كان اتصال المدن ببعضها البعض أمراً ضرورياً، ولكن المدن البعيدة كان يصعب الاتصال بها. وهكذا فقد ظلت على عبادة أصنامها وطواطمها. إلاَّ أن التعاليم السماوية التى جاء بها إدريس عليه السلام، لابد – بمرور الزمن – قد وصلتها، وتطعَّمت بها العقيدة الوثنية التى كانت سائدة فى هذه المدن.

وحتى المدن التى كانت بلغتها دعوة النبى إدريس، وآمنت به، واتبعته، لعلَّ الكثير منها – بعد رفعه – لم تبق متمسكة بالديانة الإلهية التوحيدية. إذ لم تستطع عقولها هضم فكرة إله واحد لا تراه الأعين. وكان الفكر البشرى فى هذا الطور البدائى من الحضارة لا يؤمن إلاَّ بما هو محسوس وواقع تحت بصره. لذلك فقد ارتدَّت بعض الجماعات، وتلمَّست إلهاً فيما يقع عليه بصرها. واتخذت كل قبيلة لها ربًا وكان طور تعدد الآلهة هو ما يسمى Polytheism وتعددت الأرباب والآلهة، لتصل إلى العشرات بل المئات.

إلاَّ قبيلةً واحدة، هم نسل إدريس عليه السلام. فقد ظلوا على إيمانهم بالله الواحد الأحد. ولعلهم لم يطيقوا العيش وسط الضلال الذى بدأ يحيط بهم فارتحلوا شمالاً حتى وصلوا إلى الدلتا ثم إلى سيناء شرقاً. ثم شمالاً إلى فلسطين ثم شرقاً عبر الشام إلى شمال العراق. وكان إدريس قد ولد له متوشالح وعمره ٦٥ سنة. وفى أثناء ارتحالهم وُلِدَ لمتوشالح لامك عند عمر ١٨٧ سنة أى كانت قد مرت ٢٥٢ سنة لتجوالهم. وصل لامك فى نهايتها إلى شمال العراق. وبعد ١٨٢ سنة من عمره ولد له نوح – الذى أصبح نبياً – مرسلاً إلى أهل العراق.

هل هرمس الهرامسة هو إدريس عليه السلام ؟

ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار أنه جاء فى صفحة ٣٤٨ من كتاب تاريخ الحكماء بخصوص هرمس الهرامسة ما يأتى: وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التى ظهرت

قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ النبى ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم وهو إدريس النبى عليه السلام. وقالوا إنه أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية وأول من بنى الهياكل ومجَّد الله فيها . وأول من نظر فى علم الطب، وألَّف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية. وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلحف الأرض من الماء.

وقيل أيضاً أن هرمس هذا كان رجلاً آدم تام القامة. حسن الوجه كث اللحية مليح الشمائل. عريض المنكبين. ضخم العظام، قليل اللحم، متأنياً فى كلامه. كثير الصمت إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، وإذا اغتاظ احتد.

وكان مدة مقامه فى الأرض اثنتين وثمانين سنة وكانت له مواعظ وآداب مثل:

- الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر .

- الأعياد فى حفظ الفروض. والشريعة من تمام الدين. وتمام الدين كمال المروءة .

- السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة.

- لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نِعَمِه بمثل الإنعام على خلقه.

- من أراد بلوغ العلم وصالح العمل. فليترك من يده أداة الجهل وسيئ العمل. كما ترى الصانع الذى يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة. فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبداً.

- خير الدنيا حسرة، وشرها ندم.

- إذا دعوتم الله سبحانه وتعالى فأخلصوا النية. وكذا الصيام والصلوات فافعلوا.

- لا تحلفوا كاذبين. ولا تهجموا على الله سبحانه وتعالى باليمين. ولا تُحلِّفوا الكاذبين فتشاركوهم فى الإثم.

- تجنبوا المكاسب الدنيئة.

- أطيعوا ملوككم، واخضعوا لأكابركم، واملأوا أفواهكم بحمد الله.

- حياة النفس الحكمة.

- لا تحسدوا الناس على مواتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل.

- من تجاوز الكفاف لم يغنه شيئ.

فإن كانت هذه الأقوال حقيقة من أقوال هرمس فالاحتمال الأكبر أنه هو إدريس عليه السلام – لأن هذه الأقوال تعبرٌ عن إيمان حقيقي بالله وتدعوا إلى مكارم الأخلاق.

إلاَّ أن هذه الأقوال. وما جاء عنه في كتاب تاريخ الحكماء لم يؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص قاطع.

كذلك يُضعفها ما قالوه عنه من إخباره بالطوفان. وقولهم إنه بنى الأهرام والبرابى فى صعيد مصر الأعلى. وصوَّر فيها جميع الصناعات والآلات. ورسم فيها صفات العلوم حرصاً منه على تخليدها لمن بعده خشية أن يذهب رسمها من العالم.

وهذا الكلام يجافي الحقيقة. فبعد أن أميط اللثام عن أسرار اللغة الهيروغليفية وجد أن هذه الرسوم كانت لتمجيد الملوك. ولم تكن لتسجيل العلوم خشية ضياعها. ولو كان ذلك كما ذكروا لكانت طريقة التحنيط جديرة بالتسجيل أيضاً وهو مالم يحدث. كما أن الذين بنوا الأهرام والمعابد عُرِفَتْ أسماؤهم. ولم يكن من بينهم من تسمى باسم هرمس الهرامسة كما أن الإخبار عن الطوفان كان من الممكن أن يؤيد قولهم لو كان الطوفان قد عمَّ مصر. أما وأن الطوفان لم يوجد له أثر فى مصر فإنه من غير المعقول أن يتنبأ بالطوفان الذى سيحدث فى العراق. فأى فائدة تُرجى من ذلك لأهل مصر!! فإذا كان هرمس هو إدريس عليه السلام فإن بعض الأخبار عنه قد أضيفت ظناً أنها تؤيد نبوته – أو أن هرمس كان رجلاً صالحاً يتبع ملة إدريس، وأضيفت أيضاً هذه الأخبار على سيرته.

مصر بعد إدريس عليه السلام

ليس الهدف سرد لتاريخ مصر فى هذه الفترة – بل سيكون الكلام من جزءين: الجزء الأول يتحدث عن الديانة المصرية القديمة. والجزء الثاني يختص بأثر دعوة إدريس السماوية على هذه الديانة.

(أ) الديانة المصرية القديمة :

سبق أن قلنا (ص ٥٠) إن تقديس الأسلاف كان هو بداية الإنحراف فى العقيدة الدينية. ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على مصر وحدها فقد كانت منتشرة بين جموع بنى البشر وكان لها أثر أيضاً فى العراق فى ظهور الآلهة: ود وسواع ويعوق ويغوث ونسراً، كما سيجئ عند الكلام عن نوح عليه السلام.

كذلك كانت محاولة استرضاء الأرواح بعمل تماثيل أو طواطم تسكن إليها – عاملاً آخر فى ظهور الوثنية.

وكان الرجل البدائى ينزع إلى أن يعزو لكل شئ روحاً. حتى الجماد وهو ما سماه الأستاذ عباس العقاد « استحياء» Animism. ولكن لأن لفظ استحياء قد يحمل معنى من الحياء وليس الحياة - لذلك فالأفضل منه لفظ «إضفاء الحياة».

كذلك لم يكن الفكر الإنسانى فى ذلك العصر قد تطور تطوراً كبيراً. وكان من السهل أن يتخيل أشياء تخرج عن المنطق، ولا يمكن أن نتصورها فى عصرنا الحالى. كما كانت مخاوفه كبيرة. كذلك كان الناس يدركون أنهم فى حاجة إلى قوة تفوق ما لديهم من قوة، يلجأون إليها عند الشدائد. وكان عندهم «وعى» بوجود هذه القوة أو ميل غريزى يؤكد لهم وجودها. ولكن لم يكونوا يعرفون كنهها. لذلك لجأوا فى تجسيد هذه القوة مذاهب شتى.

والمصريون القدماء - مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من بنى البشر فى ذلك الوقت - التمسوا الإتصال بهذه القوة وارتأوا أن أفضل السبل لذلك هو اختيار إطار أو محور محدَّد مرئى، يمكن أن تتجمع فيه الصفات التى تعبر عن هذه القوى، وكلما أرادوا الإستعانة بصفة ما لهذه القوة، جعلوا لها روحاً، ثم جعلوا لها رمزاً لتحل فيه، ليمكنهم طلب العون من خلاله، وسنرى فيما يأتى الآن أن تعدد الآلهة كان بسبب تعدد صفات هذه القوة، وتعدد إمكانياتها وتعدد المطلوب منها. فلم تعبد البقرة أو القطة فى مصر القديمة لذاتها، بل لأنها ترمز إلى تجسيد صفة من صفات القوة العليا.

فإذا نظرنا إلى ديانة مصر القديمة، وجدنا تطبيقاً لنظرية إضفاء الحياة ووجود روح لكل شئ. وتبعاً لتعدد المطلوبات من صفات القوة العليا، فإن الأرباب كانت أيضاً متعددة مثل:

١ - **أرباب الطبيعة** : أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها، كالرعد والبرق والمطر والرياح والشمس والقمر.

٢ - **أرباب النسل والخصب** : وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث، ويسمونها بالأمهات الخالدات. وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

٣ - **أرباب المعانى** : كرب العشق ورب الحرية ورب السلام ورب العدل ورب الحرب ورب الصيد.

٤ - **أرباب الإنسانية والأسرة** : وهم الأبطال والقادة المحبوبون والموهوبون أو الأسلاف، ترقَّوا بعد وفاتهم إلى أرباب.

٥ - **آلهة الخلق** : التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان.

٦ - **الآلهة العليا** : وهى الآلهة التى تحاسب الناس بشرائع الخير ومحاسن الأخلاق وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء.

في هذه المرحلة تعددت الأرباب بصورة كبيرة ووصلت إلى العشرات بل المئات. بل توشك كل أسرة كبيرة أن تتخذ لها رباً تعبده، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبُّل الصلوات.

بعد ذلك بدأت مرحلة أخرى. وهو دور التمييز والترجيح بين الأرباب Henotheism. إذ يأخذ ربٌّ من هذه الأرباب المتعددة في البروز والرجحان على سائرها – لأنه رَبُّ قبيلة كبيرة دانت لها القبائل الصغرى. ثم ظهرت آلهة المدن. والمعبود المحلي هو إله المدينة وحاميها. وكما سبق أن قلنا إن هذه المدن. كانت «إمارات مدن» أي كل مدينة إمارة مستقلة تضم حولها عدداً من القرى. ثم بدأت بعض المدن تتعاظم وتضم إليها مدناً أخرى. بالتالي يسود إله المدينة الأقوى وتختفي الآلهة المحلية، أو تتوارى إلى الظل، أو يتم امتصاصها في أقانيم الآلهة الأعظم أهمية، وبدأت الآلهة تقل في عددها إلى عدد المقاطعات أو الأقاليم التي تتكون منها مصر وهي ٢٢ في الوجه القبلي و ٢٠ في الوجه البحري.

تجسيد الآلهة :

كان المصري القديم في ذلك الزمن المبكر – ينظر إلى الحيوانات البرية – رغم كونها هدفاً للصيد – نظرة ملؤها الرهبة بسبب ضراوتها وقوتها. أما الحيوانات المستأنسة، فقد عبد بعضها تعظيماً منه لصفة فيها، واعتقاداً منه أنه بعبادتها ستضفي عليه من صفتها هذه.

ومن الحيوانات والطيور التي عبدها قدماء المصريين:

١ – اللبؤة . وليس الأسد.

٢ – الثور. بسبب قوته الإخصابية.

٣ – الكبش. أيضا لقوته الإخصابية.

٤ – البقرة. اختيرت رمزاً للأمومة لعنايتها وحُنوِّها على وليدها.

٥ – العجل حابي أو العجل أبيس. وكان يُنتقى إما أسود اللون تماماً أو أبيض تماماً.

٦ – فرس النهر والتمساح.

٧ – القطة. وهي المعبودة الحامية من لدغات الثعابين، إذ أن القطة كانت دائماً قاتلة لهذه الكائنات السامة.

٨ – الصقر حورس.

٩ – الطائر المقدس إيبس وهو بالعربية أبو منجل من فصيلة أبي قردان. والنوع الذي قدسه المصريون يمتاز بريشه الأبيض ورأسه ورقبته سوداء اللون.

١٠ – الكوبرا: وقد أصبحت رمزاً لمملكة الدلتا، وبعد التوحيد السياسي ظلت توضع على التيجان والرموز الملكية.

كذلك قُدست شجرة الجميز فقد كان المعتقد أن أرواح الموتى القادمة من المدافن المجاورة على شكل طيور، تجد في ظل الجميزة الوارف، حاجتها من الطعام والشراب تقدمها لها الإلهة الخيِّرة التي تقطن الشجرة. فقدست نزولاً على ذلك الإعتبار (انظر شكل ١٩ ص ٧٤) .

ومع التقدم الفكري، تغيرت النظرة لهذه الحيوانات. فقد انجلى الكثير من الغموض الذي كان يحيط بها ومن ثَم الرهبة منها. إذ كان في الماضي يخشاها أو يطلبها بجانبه. ولكن مع اتساع المعرفة تراجع تقدير المزايا التي عبدها من أجلها مثل، جبروت قوة الوحوش أو غرائز الأمومة في إناث الحيوانات، أو القدرات الفائقة لتحليق الطيور الجارحة. واضمحلت في نظر الإنسان هذه القوى الجسدية، وأضحت القيمة المعنوية الموجودة لدى الأنسان، مساوية في الأهمية. وهكذا مزجوا الفكرتين. معاً فأصبحنا نرى آلهة ذات جسد بشري ورأس حيواني. ولطرافتها رأينا وضع صور بعضها (شكل ٨، ٩، ١٠، ١١).

فالإله حورس يُصَوَّر بجسد إنسان ورأس صقر.

والإله أنوبيس يحمل رأس ابن آوى أو رأس كلب.

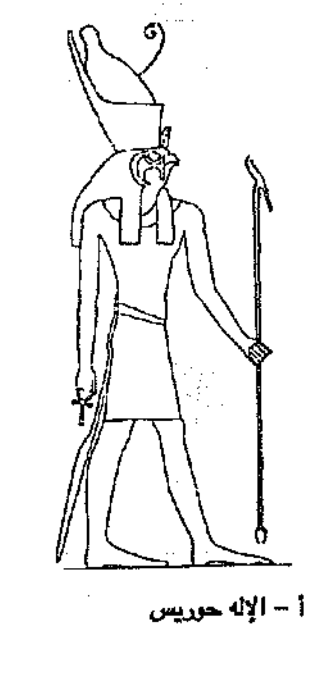
والإله خنوم يحمل رأس كبش على جسد إنسان.

والإلهة حتحور رغم أنها تحمل رأساً بشرية ذات وجه أنثوي إلا أنها زودت بقرني بقرة بينهما قرص الشمس.

وكانت آخر مرحلة في تصوير المعبودات هي تصويرها في هيئة بشرية كاملة بجسد إنساني ورأس إنساني أيضاً (شكل ١٢).

أثر الحياة السياسية على العقيدة :

وكان للحياة السياسة أثر كبير على الحياة الدينية. فقد أدت مراحل الإندماج السياسي بين المقاطعات والأقاليم إلى تغيرات في مراكز الآلهة. فقد كانت تسود آلهة المقاطعات الأقوى وتختفي الأخرى أو تقل أهميتها. وقد يعمد كهنة واتباع الآلهة المهددة بالنسيان – من أجل الحفاظ على مراكزهم وبالتالي على ما يقدم لهم ولآلهتهم من قرابين وهدايا – إلى تزويجهم من الإله الرئيس أو إدخالهم في ثالوث إلهي مقدس معهم. وباشرت أقاليم الوجه البحري نضجها السياسي وتجمعت في مملكتين.



أ – الإله حوريس

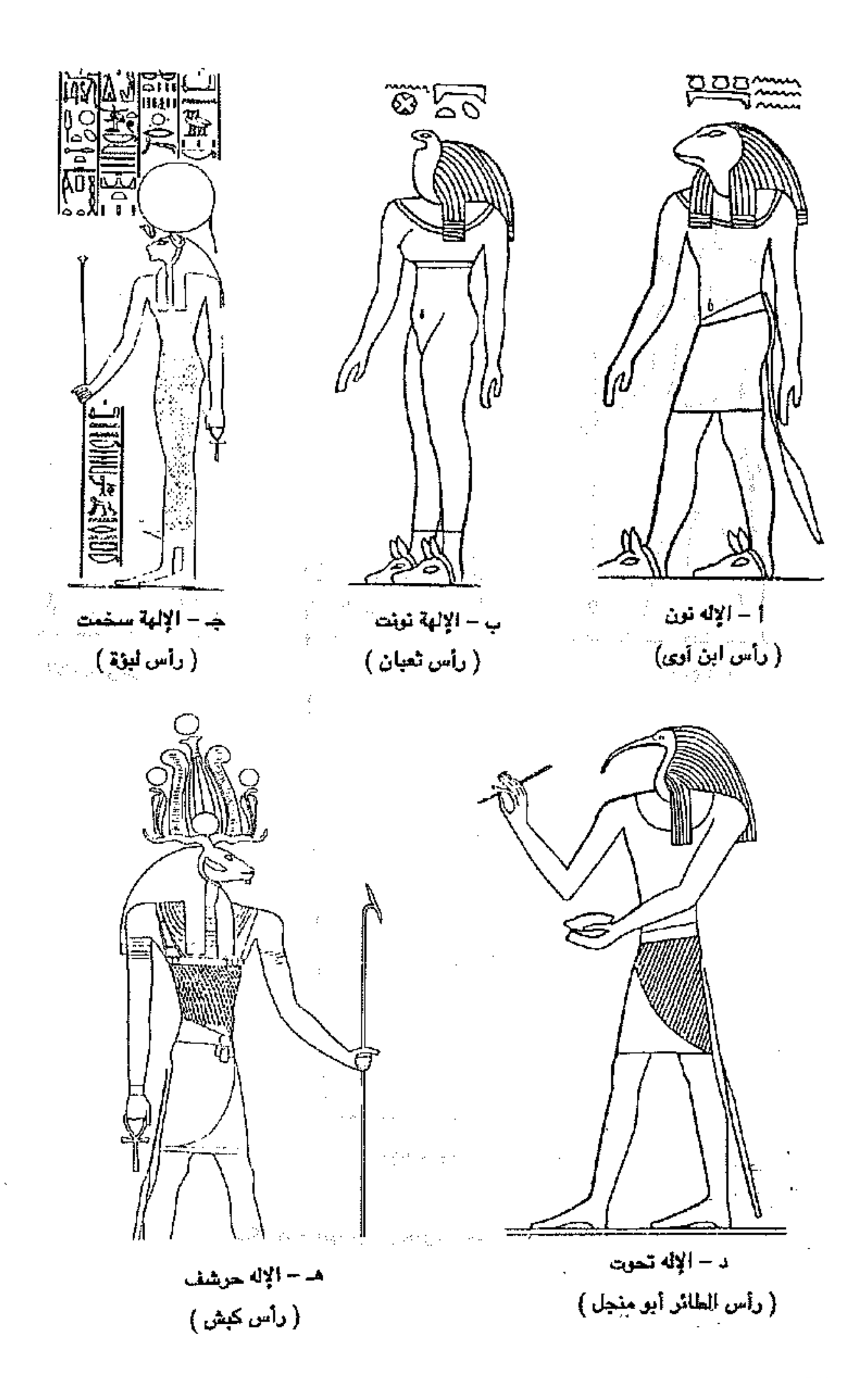


ب – الإله أنوبيس



جـ – الإله خنوم

شكل ٨ – آلهة برأس حيوان وجسد إنسان



أ – الإله نون
(رأس ابن آوى)

ب – الإلهة نونت
(رأس ثعبان)

جـ – الإلهة سخمت
(رأس لبؤة)

د – الإله تحوت
(رأس الطائر أبو منجل)

هـ – الإله حرشف
(رأس كبش)

شكل ٩ – آلهة برأس حيوان وجسد إنسان



شكل ١٠ – الإله « آمون رع »

شكل ١١ – أ-الإله « آش » بجسم رجل ورأس لبؤة وثعبان .

ب – الإله « سوبك » برأس تمساح



أ – الإله « حا » فى يده حربة
يحمى بها المتوفى

ب – « سشات » إلهة الكتابة
تسجل أعمال البشر

جـ – الإله « خونسو »

شكل ١٢ – آلهة فى صورة بشرية كاملة

– **مملكة شرق الدلتا** : وقدست معبودها عنجتي، وصورته في صورة بشرية مميزاً بريشتين فوق رأسه، وكانت عاصمتها بلدة عنجة.

– **مملكة غرب الدلتا** : وقدست ربها الأكبر حور، ورمزت إليه بهيئة الصقر.

ثم اتحدت المملكتان فى مملكة واحدة عاصمتها سايس (صا الحجر حالياً قرب فرع رشيد) واتخذوا المعبودة «نيت» حامية لهم ورمزوا لها بسهمين متقاطعين وقوسين متشابكين باعتبارها من رعاة الحرب.

وأعقب ذلك اجتماع **أقاليم الصعيد** تحت زعامة مدينة نوبت (قرب قنا) واتخذت «**ست**» ربا لها واعتبروه من أرباب السماء والأمطار.

ثم انتقلت عاصمة **الوجه البحرى** إلى عنجة وتزعمها «**أوزير**» أو «**أوزيريس**». ثم خلعوا عليه من أوصاف الآلهة وقدسوه وسميت العاصمة باسمه برأوزير (أبو صير حالياً). وحارب أوزيريس الصعيد وانتصر عليه وضمه إليه. وكان أوزيريس أول من تولّى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة الأرضيين.

ولكن الصعيد ثار وتعصبٌ لمعبوده ست. ولكن تمت الوحدة مرة ثانية واتخذوا مدينة أون (عين شمس والمطرية حالياً) كعاصمة وظلوا يمجدون الرب أوزيريس بجانب رع رب الشمس.

ومنذ الأسرة الرابعة أصبح الملك ابنا للإله «رع» وظهرت أسماء الملوك الذين بنوا الأهرام: خفرع. منكاورع، ثم ملوك الأسرة الخامسة: تى رع ، سر رع، وجد رع.

هل أوزريس هو إدريس عليه السلام ؟

رجح البعض أن إدريس هو أوزريس. ولعل تقارب الاسمين هو الذى أوحى بهذه الفكرة ولكن قبل الخوض فى هذا الجدل نذكر أسطورة أوزريس نفسها:

وأسطورة أوزريس واحدة من أشهر الأساطير فى مصر القديمة. وقد سُجِّلت فى بعض متون الأهرام الدينية، منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٥ ق.م) مما يدل على أنها منقولة عن عصور أسبق منها، وأن لها صبغة القداسة، وتدخل فى نسجها ذكريات قومية بعيدة ومسحة دينية وعبرة خلقية.

وكان أوزريس وإيزيس (أوزير وإيسة) أخوين وزوجين، يكملهما أخوان آخران هما ست (سوتخ) وزوجته وأخته نفتيس (نيت حت). (ولعل هذه الرباعية تحكى هابيل وقابيل وأختيهما). وكان الأربعة يجمعون بين الألوهية والبشر. واعتبرت الأسطورة أوزريس ملكاً على البشر، يُعلِّم الناس السلام والعدل، ويعلمهم الزراعة والكتابة (ولعل هذا مأخوذ عن قصة إدريس عليه

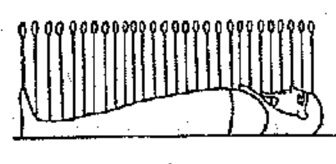
السلام لأنه أول من خطَّ بالقلم). فأحبه الناس، وحقد عليه أخوه ست، وأخذ يدبِّر له مكيدة يتخلص بها منه. فصنع تابوتاً يسعه تماماً، وزخرفه بالجواهر والأحجار الكريمة. ودعاه إلى وليمة كبيرة حضرها كثيرون. وأعلن أنه سيمنح هذا التابوت لمن يكون على قدِّه. فقام كل من المدعوين يجرب حظه ولكن على غير جدوى، ثم قام أوزريس ودخل الصندوق، ولم يكد يمد جسده فيه حتى أسرع المتآمرون وأغلقوا عليه، ثم ألقوا به في النيل. فحمله التيار إلى البحر المتوسط. ومازالت الأمواج تتلقَّفه حتى ألقت به عند مدينة بيبلوس (جُبيل) بفينيقيا (لبنان). فلما علمت زوجته إيزيس بما حدث له، حزنت عليه وبكته بكاءًا مراً. وجدَّت في البحث عنه، حتى وجدت التابوت وعادت به إلى الدلتا. ولكن قبل أن تتمكن من فتحه، فاجأها ست وقطع جسم أخيه إلى اثنتين وأربعين قطعة (عدد مقاطعات مصر) وألقى بقطعة فى كل مقاطعة. لم يفُتّ ذلك فى عَضُد إيزيس، وركبت قارباً لتجمع تلك الأشلاء، وعاونها فى جمعها «تحوت»، إله العلم والحكمة، وأختها نفتيس زوجة ست، و«أنوبيس» إله التحنيط. ولما جمعت الأشلاء كلها قرأت عليها بعض التعاويذ السحرية. فدبت الحياة فيها من جديد وحملت منه حملاً ربانياً، ووضعت منه طفلها حور (حورس) وربَّت طفلها خفية فى أحراش الدلتا. وعاونتها كائنات عديدة على كفالته. فأرضعته بقرة، ورعته معها سبع عقارب. ثم عادت إيزيس وشهَّرت بست الغاصب القاتل. وكان أوزريس قد عهد بالملك لولده حورس، وتعاونت إيزيس مع ولدها للأخذ بثأر أبيه، وطالت المواقع بينهما. وقد تمكن ست فى الموقعة الأولى من نزع عين حورس. ثم استمر القتال بينهم، وانتهى بنصر حورس، واسترجاع عينه التى نزعت منه. وقد قدم حورس هذه العين لوالده أوزريس فارتد إليه بصره. ومنذ تلك اللحظة أصبحت العين رمزاً على كل قربان جميل وكل هدية حسنة ثمينة تقدم للمتوفى.

وعاد النزاع من جديد بين «ست» و«حورس» على العرش وكان حورس يعتمد على إرثه الشرعى للملك. ومساعدة إيزيس له. وكان ست يعتد بقوته وجبروته، ومعاضدة «رع» له. فعرضوا النزاع على محكمة الآلهة والحكماء أصحاب القضاء في عين شمس. وجاءوا ببدن أوزريس ليكون شاهدا على ما حل به من غدر. فأدان القضاة ست بالاعتداء على أخيه، وتولى حورس الملك. ولم يكن لأوزريس فى الدنيا غاية فانتقل إلى العالم السفلى – مملكة الأموات – واختارته الآلهة ليكون قاضى الموتى. فأصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم وإصدار الحكم عليهم بالنعيم أو الجحيم.

وهكذا انتهى جوهر الأسطورة بتغليب الحق على الباطل. والإيمان بعدالة الأرباب. وتبرير أسباب تقديس أوزريس. وجعَل قدماء المصريين مقبرة أوزريس فى أبيدوس مزاراً (حالياً – العرابة المدفونة – مركز البلينا محافظة جرجا). وكان لزاماً على كل مصرى أن يحج إلى هذه المقبرة مرة فى حياته على الأقل.



أ – أوزوريس



ب – جثة أوزوريس بين
نباتات البردى



جـ – ست بعد أن أصبح ملكاً



د – إيزيس ترضع حورس وهما
مختبئان بين الأحراش



هـ – إيزيس تحمي أوزريس بجناحيها

شكل ١٣ – صور من أسطورة أوزريس وإيزيس

كذلك كان «رع» يتمتع بشعبية كبيرة فى «هليوبوليس».

وللتوفيق بين العبادتين أصبح كل ملك موحداً مع «حورس» وابن الإله «رع». كذلك يعتبر كل ملك أنه يُوَحَّد مع «أوزريس» بعد وفاته، وكما بُعث أوزريس، فإن الملك سيُبعث مرة أخرى وبذلك استمر أوزريس. بل وأضحى كل مصرى ميت، ذكراً أو أنثى، كأنه يتوحَّد مع أوزريس، وهكذا استمرت مكانة أوزريس حيث أنه لم يكن ينافس الآلهة الأخرى، فهو يُعنَى فقط بعالم الموتى.

هذه هى أسطورة أوزريس. ولا نرى من تشابه بينها وبين قصة إدريس عليه السلام، إلاَّ فى ما ينسبونه إلى أوزريس من أنه هو أول من علم الناس الكتابة والطب وعلم النجوم. مثل ما فعل إدريس عليه السلام. أما ما عدا ذلك فليس هناك من تشابه إطلاقاً فإن الصراع بين الأخوين، أوزريس وست – وإن كان يشبه صراع ابنى آدم – هابيل وقابيل – إلا أن سبب الصراع فى الحالتين يختلف اختلافاً كبيراً. فى أحدها صراع على الأخت، وفى الأخرى صراع على العرش. كذلك فإن إدريس عليه السلام بشر رفع إلى السماء. أما أوزريس فكان بشراً إلهاً فى حياته وبعد قتله وإحيائه مرة ثانية صار إلهاً. ولكنه لم يرتفع إلى السماء. بل كان يعني بالعالم السفلى، عالم الأموات.

لذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون أوزريس هو نفسه النبى إدريس عليه السلام.

(ب) أثر إدريس على الديانة المصرية القديمة :

سبق أن ذكرنا أنَّ الظروف البيئية والجغرافية لكل من وادى نهر النيل وأرض ما بين النهرين (العراق) كانت متشابهة من حيث وفرة الماء والغذاء والمسكن للإنسان ومواشيه. مما هيأ لمن يصلون إلى هاتين المنطقتين الاستقرار اللازم لنشوء ونمو وترقِّى الحضارة. وإن كانت هذه الظروف أكثر ملاءمة فى مصر عنها فى العراق. فقد كان فيضان نهر النيل منتظماً. وهادئاً فى أغلب الأوقات. اللهم إلاَّ مرات قليلة يكون فيه الفيضان عالياً فيغرق مساحات كبيرة من الأراضي بعكس أنهر العراق التي كان فيضانها العنيف يكتسح كل شيئ أمامه. وإذا جف فإنها تصبح مثل ترعة صغيرة. ولهذا كانت الحضارة المصرية أسبق فى نشوئها وأسرع خطىً فى تطورها.

ولكن حضارة مصر أيضاً، اختلفت كثيراً جداً فى، بعض النقاط، عن حضارة ما بين النهرين، بما لا يمكن تفسيره على أسس جغرافية أو بيئية أو أسس مرحلية، أى تأخر حضارة العراق مثلاً بمرحلة أو مرحلتين عن حضارة مصر. كذلك فإن هذه النقاط من الصعب أن نتصور أنها قد نبعث ذاتياً فى تفكير الكهنة، إذ يصعب تصور أن يصل إليها العقل البشرى

من تلقاء ذاته – ولو كان الأمر كذلك لوصل إليها أو إلى ما يشابهها كهنة العراق ولو فى وقت متأخر وهو ما لم يحدث. وهذا يُرجِّح أن هذه النقاط هى بقايا تعاليم سماوية أنزلت على نبيٍّ أُوحِيَ إليه من السماء ولم يكن هذا النبى سوى إدريس عليه السلام.

وبالرغم من تفشى الوثنية وعبادة الأصنام كما أسلفنا – إلاّ أن دراسة أسس العقيدة ذاتها تكاد تشى بما افترضناه من بقايا تعاليم سماوية جاءت فى زمن مبكر واندثر أغلبها. كما أنه لا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن إدريس وقد بعث فى إحدى المدن أن دعوته انتشرت لكل ما حولها من المدن. إذ أن صعوبة الاتصال بين المدن لم تُتِح لباقى المدن الإلمام بها، لذلك ظلت على عبادتها لآلهتها المحلية. ولعله بين الحين والآخر كانت واحدة من هذه الأسس السماوية تصل إلى الكهنة فيجدون فيها ما يُطَعِّمون به أفكارهم ومن ثم تفسيراتهم الدينية.

وسأحاول هنا أن أذكر أهم ما أعتقد أنه مشتق من تعاليم سماوية – هى تعاليم إدريس عليه السلام.

(١) نظرية الخلْق :

طبقاً **لفلسفة الأشمونيين اللاهوتية** لم يكن فى البداية سوى اللا وجود أو الفوضى ذاتها، والتى تخيلها المصريون إما كعنصر عبارة عن المياه الأزلية، أو قوى تتجسد فى الإله «نون» الذى أُطلق عليه إسم «الواحد القديم». فهو المبدأ الأول أو الأصل الأول. ونلمح هنا تَصَوُّر إله واحد قديم أزلى ومياه أزلية. فكأنهم يقولون هو الأول ولا شئ قبله. وكان عرشه على الماء!!

ولكن العقل البشرى فى ذلك الوقت لا يتحمل تصور غيبى أكثر من هذا – فيعود إلى تجسيد الأزل فيقول: إن قوام هذا الأزل أربعة عناصر: ماء كثيف، وظلام محيط، وقوة دافعة، وعنصر لطيف لا يرى. وتخيلوا أن كلاً من هذه العناصر الأربعة يهيمن عليها ويُجسدُها توأمان لكل عنصر فيها، الأصل مذكر، والفرع مؤنث.

فعنصر الماء الكثيف أو العمق العظيم يجسده «نون» و «نونت».

والظلام المحيط يجسده «كوك» و «كوكت».

والقوة الدافعة أو اللانهاية يجسدها «حوح» و «حوحت».

أما العنصر الرابع فهو روح لطيف لا يرى ويجسدها «آمون» و«أمونت». وعندما استقر آمون فى طيبة أصبح ربًّا للهواء وحفيظاً على مقومات الحياة ونسماتها.

أما **لاهوت هليوبوليس** فيقول بأن الإله «آتوم» قد بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى انبثق بدوره من الماء الأزلى. ثم نفخ الإله فى يده وبزق من فمه الإله «شو» وقرينته «نفتوت»

واللذين نسلا خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات. ويعزى إلى «آتوم» الذى يعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة «الكامل» أو المطلق» ثلاث صفات رئيسية.

١ - فهو الموجود بذاته - الذى أتى إلى الوجود بنفسه.

٢ - وهو الأقدم أو الأزلى .

٣ - كما أنه «الأوحد» - المتفرد بذاته و «سيد الجميع».

وكان «شو» يُجَسِّد الهواء، وأعطى الحياة أو القوة الخالقة والريح والأنسام التى تتنفسها الأحياء. وهو «لا نهائى» و «غير مرئى».

هذه النظريات عن الخلق وما فيها من لمحات صوفية كأنها ومضات نور، تشير إلى بقايا تعاليم سماوية لم يستطع أن يستوعبها فكر بدائى، فجسدها بمحسوس، حتى يستطيع عقله أن يقبلها .

٢ - القَـدَرْ :

قدر الإنسان ومصيره يقع بين يدى الإله «شو» أو «شوى» أو «شاى» فهو الذى يحدد مصيره عند مولده، إما رديئاً أو طيباً. ويبدو فى مفهوم المصرى القديم أن مصائر البشر أو أقدارهم ليست حتماً يستحيل تجنبها. فالإنسان قادر على تغيير قَدَره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك. وطالما أن الغد دائماً يقع بين أيدى الإله، فالطفل يولد مصحوباً بالعناية الإلهية. والوالدان يوطدان صلتهما بالآلهة، فتأمر بأن يولد الطفل لهما. ومنذئذ فإن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال مشيئة الآلهة وموافقتها، فالبشر يقترحون الأفعال أما الآلهة فيفرضونها. أو كما عَبَّر عن ذلك أحد حكماء قدماء المصريين بقوله: الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب.

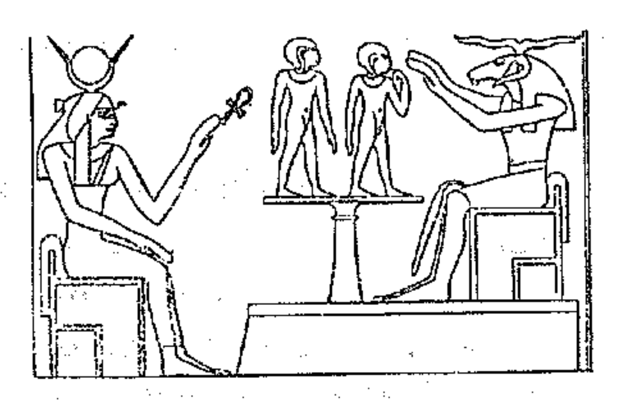
ألا يحاكى ذلك قولنا «العبد فى تفكير. والرب فى تدبير».

٣ - خلق الإنسان من طين :

فالإله خنوم هو الإله الذى يخلق البشر حيث يقوم بعمل الفخارى فيجلس إلى دولابه. ويشكل الطفل وقرينه (شكل ١٤) ومن ألقابه «الفخَّارى الذى يشكل الإنسان».

وجاء فى القرآن الكريم **«خَلَق الإنسان من صلصال كالفخار»** (١٤ - الرحمن)

ولعل مثل هذه الآية وردت على لسان إدريس عليه السلام. ولكن العقل المصرى القديم جسدها فى صورة الإله خنوم يجلس إلى دولاب يُشكِّل البشر من الطين والفخار كما فى



أ

أ – الإله « خنوم » يشكل على دولابه الفخارى إنسان وقرينه
والإلهة « حاتحور » تقدم رمز الحياة



ب

ب – الإله « خنوم » يشكل طفلاً وقرينه
بينما تقوم الإلهة « حكات » بإعطائه الحياة

شكل ١٤ – تصوّر المصريين القدماء لخلق الإنسان وقرينه من طين وإعطائه الحياة

الصورة، ويشكل قرينه الذى يشبهه تماماً. ثم تقوم الإلهة «حكات» بإعطائه الحياة أى تهب له الروح (شكل ١٤ ب).

٤ - الروح والقرين والوفاة والبعث :

قلنا إن الإله «خنوم» يجلس إلى دولابه، ويعمل الإنسان من الفخار. ويستقبل كل إنسان، عند مولده، بأمر من الإله «رع» الـ «كا» - والكا هى القرين وتشبه الإنسان تماماً إلاَّ أنها لا تُرَى (شكل ١٥. ١٦) وقد ورد أن إله الشمس «أتوم» عندما خلق أول إلهين - وذلك بأن تقلهما - وضع ذراعيه من ورائهما. ففاضت عليهما الكا التى كانت له، ودبت فيهما الحياة. ولابد أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا. ولذلك كانت الذراعان الممتدتان هى رمز «الكا». وإلى جانب الكا، توجد الـ «با». وتخيلوها عادة كأنها طائر له وجه إنسان (شكل ١٧) وهى الروح.

فإذا مات الإنسان هجرته الكا، إلاَّ أنها تظل تعنى بالجسد الذى سكنته أمداً طويلاً وتكون بجانب الميت. من وقت لآخر على الأقل، فالموت إذن ليس نهاية، بل هو انتقال إلى حالة أخرى. والموتى يقيمون فى مقابرهم أو فى عالم خاص بهم، وتكون الكا بجوارهم، لذلك فإن القبر يسمى «دار الكا». وجاء فى كتبهم: إنك تعيش سعيداً أبداً (فى القبر) وبجانبك الكا التى لك، إنها لن تهجرك أبداً.

لذلك كانت تُقَدَّم الأطعمه وفقاً لصيغة القربان الشائعة إلى «كا» الميت، وكان ينظر إلى الكا وكأنها «الملاك الحارس» الذى يهتم بالإنسان ويعنى بأمره لذلك كان يوضع بجوار الميت أوانى تحتوى على طعام وشراب.

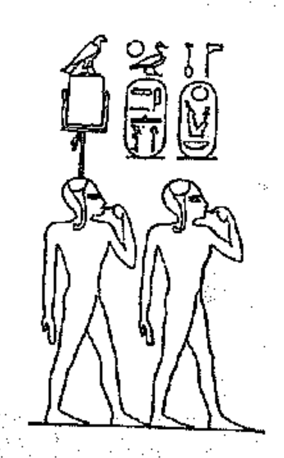
أما الروح فكانت تترك الجسد وتنفلت منه عند الموت. وتخيلوها عادة كأنها طائر (شكل ١٨). وربما تمثلوا روح الميت الذى يبكونه بين الطيور التى تستقر على الأشجار (شكل ١٩). أو تتمثل الروح فى هيئة زهرة. وعلى العموم فهى قد تتشكل فى أى صورة. ولا تستقر فى مكان، فهى اليوم هنا وغداً هناك، وبين الحين والآخر تهبط إلى القبر لتزور الجسد (شكل ٢٠).

والملك المتوفى يطير فى شكل طائر إلى السماء على سلم فإذا كان قد فعل صالحاً فى الدنيا فإنه يطير فى السماء إلى جانب إخوته الملائكة. وقد يأخذه إله الشمس «رع» معه فى سفينته ويجوب السماء معه.

أما الصالحون من عامة الشعب. فينتهون إلى «مقر الأبرار» وتصوَّروه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه، والطعام فيها وفير، بل إن فيها حقل يُسمَّى «حقل الأطعمة»، وأزكى منه حقل يارد «مقر الآلهة والممجَّدين»، على أنه لم يكن من اليسير أن يوفَّق كل إنسان فى بلوغ حقل



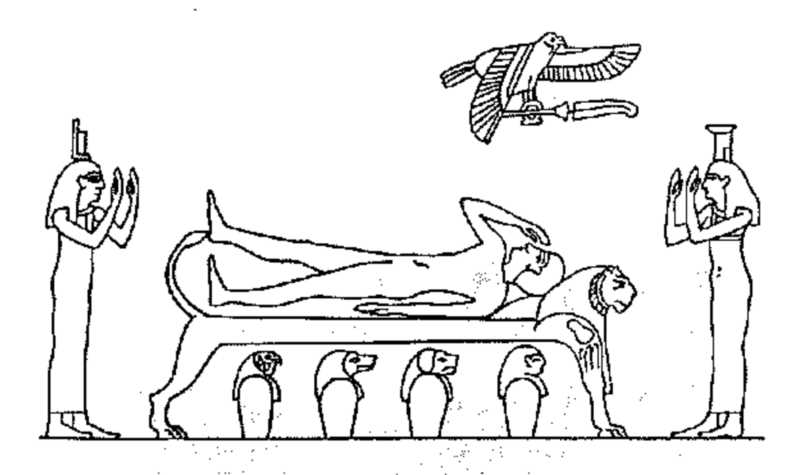
شكل ١٥ - خلق الملك وقرينه عند ولادته بواسطة الإله « حكاو »
وخلفه الإله « حابى » يمسك رموز الحياة . بعد ذلك يقدمهما الإله
« حورس » إلى الإله « آمون رع »



شكل ١٦ - الملك طفلاً ومن ورائه الكا



شكل ١٧ - الروح (على هيئة طائر)



شكل ١٨ – عند الوفاة تنطلق الروح على هيئة طائر وتترك الجسد
يلاحظ الإلهة « نفتيس » عند رأس المتوفى و« إيزيس » عند قدمي

شكل ١٩ – أرواح الموتى طيور تأوى إلى شجرة
الجميز وتقوم الآلهة بإطعامها

شكل ٢٠ – هبوط الروح
على السلم إلى القبر

الأبرار لصعوبة اجتياز المياه التى تحيط به، لهذا كان من الناس مَن يأمل فى عطف الطيور المقدسة، راجياً أن تنقله إلى هذه الحقول، ومنهم من كان يرجو أن تأتى له الآلهة بقارب يعبر به، وإن كان صالحاً جداً يأخذه معه إله الشمس نفسه ليعبر به فى سفينته.

ألا يشبه ذلك – الصراط – الذى يمر عليه الناس يوم القيامة ؟

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

«إنَّ الأبرار لفى نعيم». (١٣ – الإنفطار)

وسبق أن قلنا إن المؤمن بديانة أوزيريس، يعتقد أنه كما أن أوزيريس لم يمت حقًا، فإنه كذلك لن يموت، وأنه سيبعث فى حياة جديدة سعيدة، وسيصحو ثانية على نحو ما بُعث أوزيريس للحياة. لا على شكل خيالى، وإنما فى مبعث جسد، لأن الآلهة جمعت معاً عظام أوزيريس. وأن أم أوزيريس – الإلهة «توت» – كما جاء فى كتاباتهم: إنها تعطيك رأسك، وتجلب لك عظامك، وتجمع لك أعضاءك وتضع قلبك فى جسدك، وروحك تأتى إليك، وستصاحبك من جديد الكا التى لك، وتأتى لك حياتك، ويأتى الإله «چث» ليفتح فمك لتستطيع الكلام من جديد. و«تحوت» و «حورس» يوقفانك. ثم يدعو «حورس» «تحوت» بأن يسوق إليك عدوك ثم يضعك فوق ظهره. ويقول خذ مكانك فوقه فتنتصر على مضطهديك.

ألا يتفق ذلك مع قوله تعالى:

«ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين». (٢٩ – فصلت).

وعن القرين جاء فى القرآن الكريم :

«قال قائل منهم إنى كان لى قرين» (٥١ – الصافات).

«ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين» (٣٦ – الزخرف).

«قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين» (٣٨ – الزخرف).

«ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» (٣٨ – النساء).

«وقال قرينه هذا ما لدى عتيد» (٢٣ – ق).

«قال قرينه ربنا ما أطغيته، ولكن كان فى ضلال بعيد» (٢٧ – ق).

وفى الحديث الشريف: ما من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن.. قالوا ولا أنت يا رسول الله. قال ولا أنا، إلاَّ أن الله أعاننى عليه فأسلم. فلا يأمرنى إلاَّ بخير.

أما الروح فقد قال الله تعالى:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً» (٨٥ - الإسراء).

أما عن الحال فى القبر فقد جاء فيها قوله تعالى:

«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (١٠٠ - المؤمنون).

وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا هم مع أهل الآخرة - يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ المقابر. لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون. وجاء فى الحديث الشريف: القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

٥ - يوم الحساب :

آمن المصريون القدماء أنه بعد القبر يوجد بعث، وحينئذ يحاسب المرء على أفعاله أمام محكمة الموتى.

وجاء مكتوباً عن أحد الحكماء: لا تظن أن هناك أمداً طويلاً إلى أن تحين المحاكمة، وأنه حتى ذلك الوقت سيُنسى كل شئ. فإنهم - القضاة - ينظرون إلى أن الحياة كأنها ساعة.

ألا يشبه هذا قوله تعالى:

«كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار» (٣٥ - الأحقاف) .

وقوله تعالى :

«ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» (٥٥ - الروم).

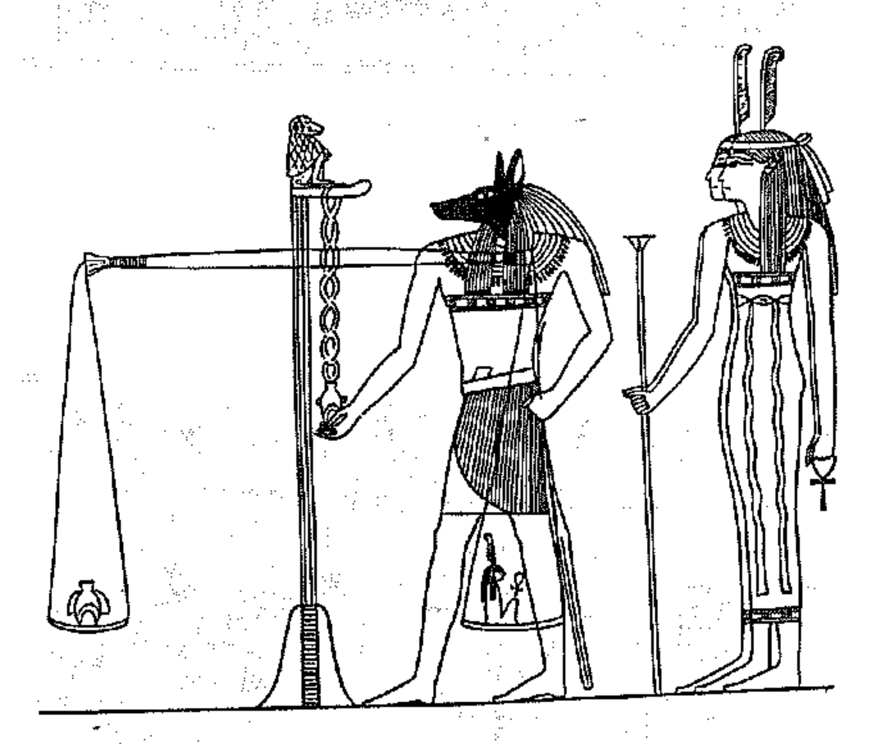
ويمضى الحكيم قائلاً: وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوّم أعمال إلى جانبه.

ألا يشبه ذلك قوله تعالى:

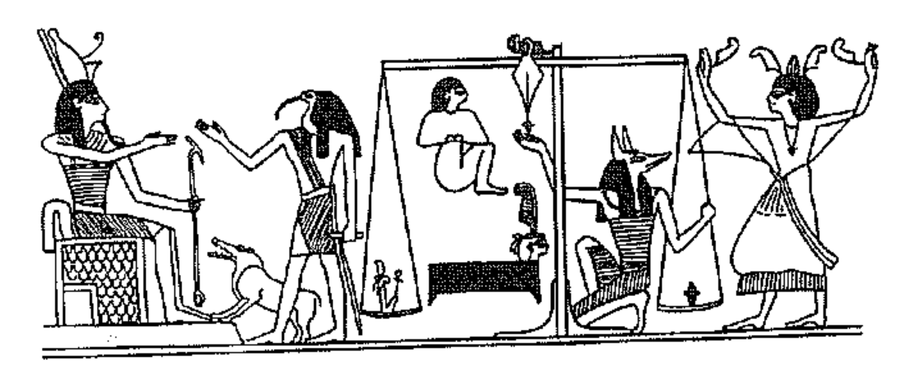
«ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً» (٤٩ - الكهف)

ويمضى تصوُّر المصريين ليوم الحساب هكذا: يجلس قضاة أوزيريس وعددهم ٤٢ قاضياً - بعدد أقاليم مصر فى ذلك الوقت - ويُنصب الميزان العظيم. يوزن فيه قلب الميت مقابل علامة الحق. ويتحقق حورس و «أنوبيس» إن كان أخف منها أو أثقل (شكل ٢١ ، ٢٢).

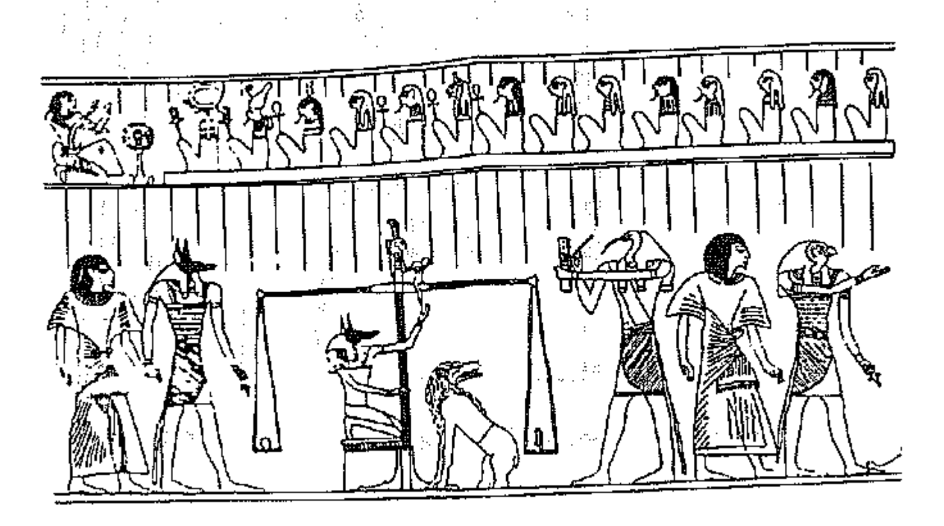
وهذا الأمر - الميزان - لم يأت فى ديانة أخرى غير ديانة قدماء المصريين فلابد أنهم أخذوه من تعاليم نبى مرسل - وهو إدريس عليه السلام. وما حدّث به يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم:



شكل ٢١ – الإله « أنوبيس » يزن قلب المتوفى وخلفه تقف « ماعتى »



شكل ٢٢ – وزن قلب المتوفي أمام الإله « أوزيريس »



شكل ٢٣ – محاكمة المتوفى أمام القضاة (فى أعلا الصورة) بعد وزن أعماله

«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» (٤٧ - الأنبياء)

«والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم» (٨ - ٩ الأعراف)

«فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشه راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ماهيه. نار حامية» (٦ - ١١ - القارعة)

كما أن الحديث الشريف يقول : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه. حديث صحيح.

وتقترب من هذا المعنى - الفلسفة الدينية عند قدماء المصريين إذ تطلب من الميت أن يقدم - ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا الحالي - كشف حساب عن أعماله أمام المحكمة (شكل ٢٣). وكمثال لما يقوله الميت. وكأنهم يلقنونه ما يقول حتى تبرأ ساحته:

لك الحمد أيها الإله العظيم، يارب الحقيقتين. هأنذا أجي إليك أجلب الحقيقة وأطرد الإثم. إنى لم أقترف إثماً ضد البشر. ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة. ولم أسْعَ بأحد عند رئيسه ولم أُجَوع أحداً. ولم أدَعْ أحداً يبكى. ولم أقتل ولم أدْعُ إلى القتل. ولم أُسبِّب لأحد ألماً. ولم أقلل فى المعابد الطعام. ولم أسلب طعام الممجدين. ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ولم أطفف مكيال الحب. ولم أنقص مقياس الذراع ولم أسرق الماشية من مرعاها. ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته ولم أسُدَّ على الماء الجارى.

ثم يلى هذا اعتراف أمام كل إله على حدة : يا صاحب الحظوة العديدة فى هليوبوليس. إنى لم أقترب ذنباً. يا حاضن اللهب فى خراحاو . إنى لم أنهب. يا إله هرموبوليس. إنى لم أغش. ويظل يذكر كل إله بمنطقته. ويبرئ نفسه من إثم. مثل: إنى لم أقتل البشر. إنى لم أطفف مكيال الحب. إنى لم أسترق السمع. إنى لم أزنِ وهكذا يبرئ نفسه مرتين. والميت المبرر له مقره أمام الإله العظيم.

وهذا يشبه قوله تعالى: **«فى مقعد صدق عند مليك مقتدر».** (٥٥ - القمر)

وهو يخرج إلى حقل يارو (مقابل الجنة) وهو يُعطَى الفطائر والخبز. وحقلاً طول الشعير والقمح فيه سبعة أذرع.

إن الأتقياء (الذى يعبدون أوزريس) لا يذهبون أمواتاً. بل يذهبون أحياء وهم لا يحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب. وإنما يبعثون لحياة حقيقية جديدة يحرزون فيها

أجسادهم وأرواحهم، فلهم قلوبهم، ولهم أزواجهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم، ولهم سائر أعضائهم.

كل هذه العقائد وردت في كتاب الموتى، وعلى ذلك فإنها ترجع إلى زمن قديم جداً. ولما كانت الاهرام قد بنيت في عصر الأسرة الثالثة فإن نشأة هذه العقائد، ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات وهو ما يدل على أنها مستقاة مما حَدَّث به إدريس عليه السلام. والمؤكد أنه كان في زمن ما في عصر ما قبل الأسرات أيضاً.

لعل هذه الصفحات القليلة تكون رداً على من قالوا إن هذه العقائد كانت من «ابتكار» قدماء المصريين. وهدفهم القول بأن الدين من «اختراع» العقل البشري وهو ما كانت تروِّج له الشيوعية العالمية الملحدة. وها قد رأينا أن ذلك كله كان مشتقا من تعاليم إدريس عليه السلام.

ويمضي الزمن، وتمر القرون، ويتكاثر الخلق في مكان آخر من الأرض. هذه المرة في أرض ما بين النهرين (العراق حالياً) ويضل الناس وتبرز الحاجة إلى نبي يهديهم سواء السبيل. وكان هذا النبي هو نوح عليه السلام.

نــوح عليـه السـلام

العراق قبل نوح:

لقد افترضنا فيما سبق أن قابيل بعد أن قتل أخاه ترك إخوته وأباه وهاجر شرقاً (فى الطريق رقم ١ شكل ٢٤) وكما تقول التوراة: سكن أرض نود. شرقى عدن.

وتكاثر أبناء قابيل وزاد عددهم فلم تعد أرض نود تكفيهم - فارتحلوا شرقاً أيضاً. بحذاء ساحل البحر. ثم تبعوا الشريط الساحلى شمالاً، حتى وصوا إلى مكان مضيق هرمز، وفى ذلك الوقت من أواخر العصر الجليدى الرابع، كان المضيق جافاً، فعبرته جماعات منهم اتجهوا إلى جنوب شرق آسيا، وواصل آخرون السير شمالاً حتى وصلوا أرض العراق الخصبة، أرض ما بين النهرين.

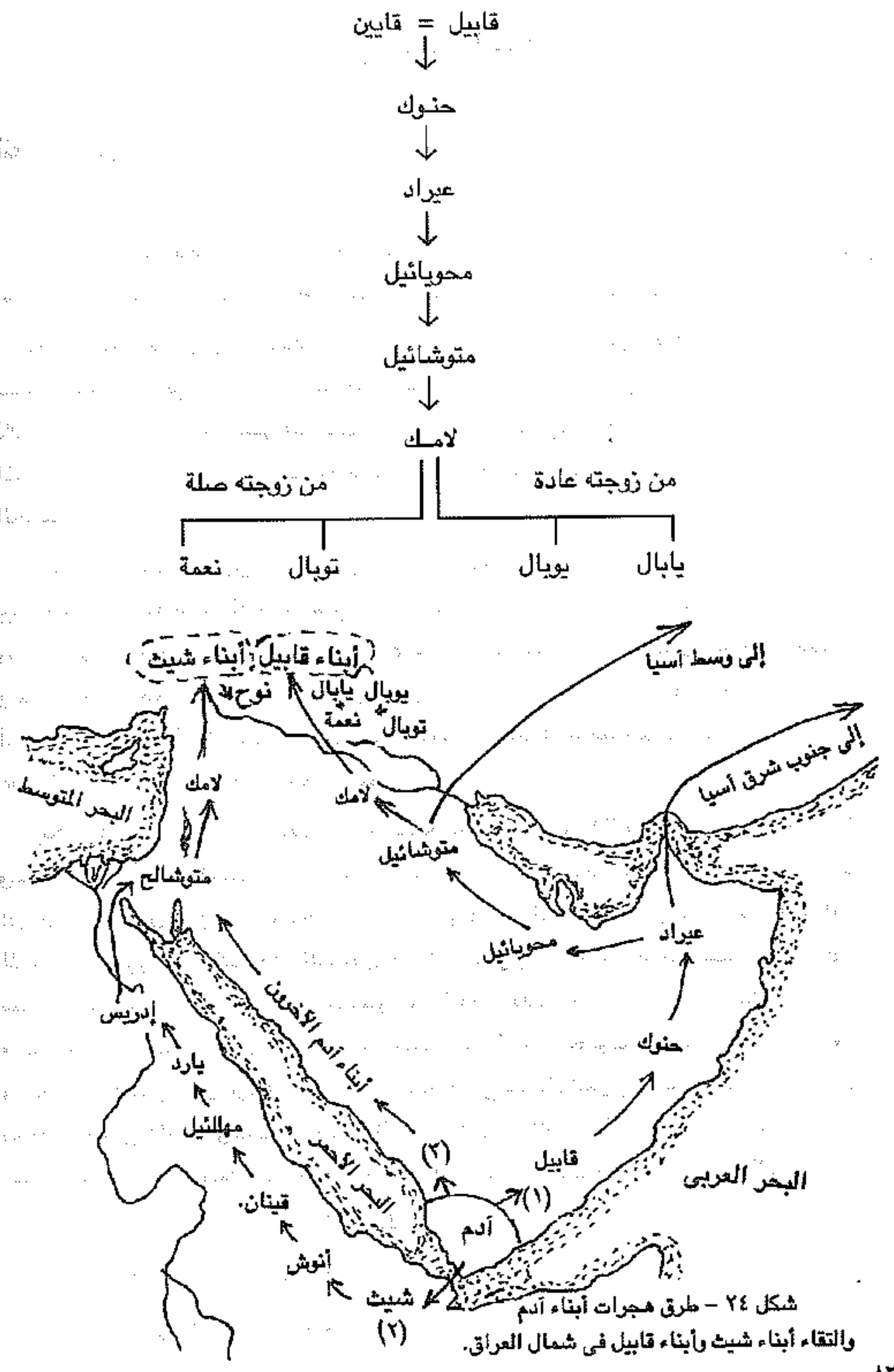
وجاء فى التوراة تكوين ٤ : ١٧. وعرف قايين (قابيل) امرأته، فحبلت وولدت حنوك. وكان يبنى مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. وولد لحنوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل. ومتوشائيل ولد لامك. واتخذ لامك لنفسه امرأتين، اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة فولدت عادة يابال الذى كان أبا لساكنى الخيام ورعاة المواشى. واسم أخيه يوبال الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. وصلة أيضاً ولدت توبال قايين. الضارب على كل آلة من نحاس وحديد وأخت تسمى نعمة.

وتكاثر أبناء قابيل. ولو رجعنا إلى المسألة الحسابية ص ٣٢ لوجدنا أن عدد أبناء قابيل وأحفاده، فى الجيل السادس قد يصل إلى حوالى المليون نسمة. وحين وصلت جماعات منهم إلى أرض ما بين النهرين وجدت الماء الوفير والأرض الصالحة للزراعة - فتوافر الغذاء للإنسان والحيوان، ومكّنت هذه العوامل على الاستقرار. وهذا أول طريق الحضارة. لذلك فقد شهدت أرض ما بين النهرين ثانى حضارة فى العالم. فقد سبقتها مصر إذ وصلها أبناء شيث واستقروا فى وادى النيل وكونوا أول الحضارات، ولما كان جنوب العراق تغطيه المستنقعات والأحراش. فقد واصل الزحف السكانى مسيرته إلى شمال العراق واستقر الناس فى الوديان وحول المجارى المائية. وبدأت فى الألف الخامس قبل الميلاد - أولى مظاهر الاستقرار وكشفت البحوث الأثرية عن حضارات الحقبة الحجرية الحديثة فى ثلاث مناطق: (شكل ٢٥).

فى جارمو : شرق منطقة كركوك الحالية.

فى حسونة : جنوب الموصل الحالية.

فى حلف : فى أعالى نهر الخابور.



شكل ٢٤ – طرق هجرات أبناء آدم
والتقاء أبناء شيث وأبناء قابيل فى شمال العراق.

وقد اعتبرت جارمو أقدم قرية زراعية فى العراق، ووجد بها تماثيل طينية بدائية متواضعة لحيوانات ورجال ومايشبه نساء جالسات.

ووجد فى مخلفات حسونة آثار أكثر تقدماً – إذ وُجد فخار خشن بدائى، وفخار ذو زخارف مرسومة، وفخار ذو رسوم محفورة حفراً بسيطاً.

أما حضارة خلف فكانت أرقى، فقد وجد بها فخار يدوى مصقول، مزخرف برسوم حيوانية ونباتية وتخطيطية.

وتتابُع التطور فى صناعة الأوانى فى اتجاه الشمال يؤيد ما ذُكِرَ من أن ارتحال القبائل كان من الجنوب إلى الشمال.

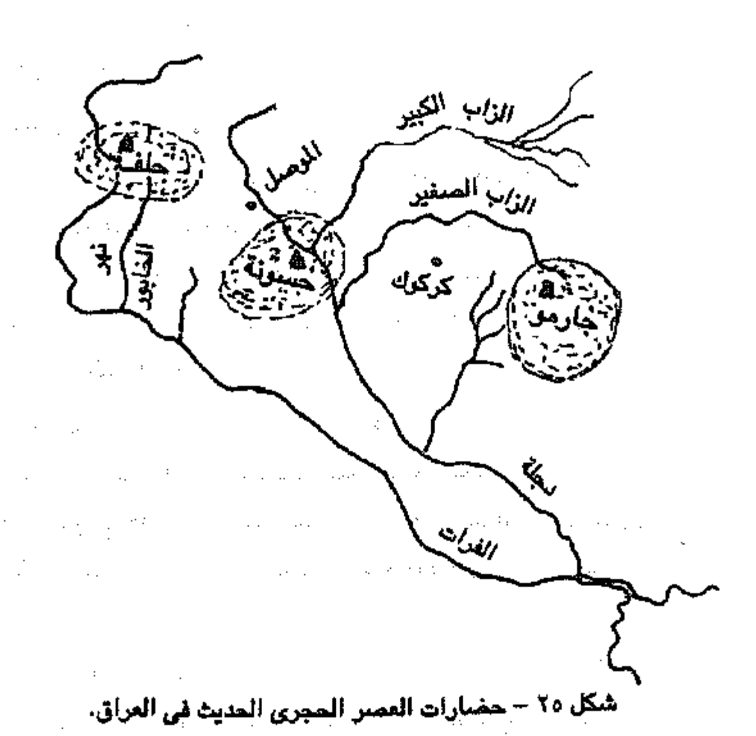
وتكاثَرَ أبناء قابيل. وكانوا – كما تقول الكتب – مثل جدهم قابيل، غلاظ القلوب قساة.

وفى المراحل الأولى من هجرتهم – شرقى عدن – لعلهم اشتاقوا لرؤية جدهم الأكبر آدم. ولم يكونوا ليستطيعوا العودة لرؤيته فى حياته، أو لزيارة قبره بعد مماته. ولعل الشيطان أغواهم ووسوس لبعضهم أن يصنع تمثالاً على هيئة رجل، ليرمز لأبيهم آدم – وكانوا يطوفون حوله ويذكرون الله. وعلى مر الأيام نسى الأحفاد وأبناء الأحفاد – ذكر الله، وعبدوا الصنم ذاته. وكانت هذه بداية الشرك بالله.

ولما ملأت الذرية شمال العراق. يقال إنه ظهر فيهم خمسة رجال صالحين هم: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وأحبهم الناس لعدلهم وصلاحهم. وتصادف أن ماتوا جميعاً فى شهر واحد. فجزع القوم عليهم. فقال رجل من نسل قابيل: هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم حتى تذكروهم؟ فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم. ومرت السنون وقدسوها وعبدوها.

كذلك سبق أن قلنا إن شيث عبر مضيق باب المندب وسار بنوه شمالاً وعمروا أرض وادى النيل وظهرت فيهم عبادة التماثيل والأصنام فأرسل الله إليهم إدريس عليه السلام – فآمنوا به – وترسخت فكرة البعث والحساب فى الآخرة فى الوجدان المصرى منذ القدم – إلاَّ أن القوم – بعد أن رُفِعَ إدريس عليه السلام – لم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتى عاودهم الضلال. وضاقت أرض مصر بسكانها. فارتحلت قبائل منهم فى اتجاه الشمال الشرقى، ووصلت أرض فلسطين، ثم الشام، ثم شمال العراق – حيث التقوا بأبناء عمومتهم أبناء قابيل.

وقال ابن عباس: كان آدم قد أوصى ألاَّ يناكح بنو شيث بنى قابيل. وكان بنو قابيل يعيشون فى السهول، بينما بنو شيث يعيشون فى الجبال، وظلوا يتجنبون الاختلاط بهم فترة من الزمن. ويستطرد ابن عباس قائلاً: وقال مائة من بنى شيث لو نظرنا ما فعل بنو عمنا – يعنون بنى قابيل – فهبطت مائة من الجبال إلى السهل. ورأوا النساء من بنى قابيل، وكُنَّ



شكل ٢٥ – حضارات العصر الحجرى الحديث فى العراق.

صباح الوجوه، واحتبس النساء الرجال فلم يعودوا. فنزل مائة أخرى احتبستهم النساء أيضاً. ثم هبط بنو شيث كلهم واختلطوا ببنى قابيل وظهرت المعاصى فيهم أيضاً.

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد تكون مجرد تعبير عن إرجاع الفساد والضلال إلى أبناء قابيل.

وتكاثر الناس، وظهرت حضارات ذكرها جورجي زيدان فى كتابه «العرب قبل الإسلام» ص ٥٧، أخذاً عن الترجمة اليونانية لكتاب الكاهن بروسوس. وقال إن عدة دول وجدت فى بلاد ما بين النهرين قبل الطوفان. وأن عدد ملوكها ١٠ وأن سنى حكمهم بلغت ٤٣٢٠٠٠ سنة. ومن المؤكد أن هناك خطأ فى عدد الأصفار والأقرب للعقل أن تكون سنو حكمهم ٤٣٢٠ سنة فيكون حكم كل ملك ٤٣٢ سنة. وهى فترة معقولة بالنسبة للأعمار فى ذلك الوقت.

وخلال هذه الحقب الطويلة نسيت الأجيال أى ذكر عن الله. ونشدوا تجسيد القوة الخالقة فى تماثيل صنعوها وعبدوها. وسبق أن ذكرنا أنهم عبدوا الأسلاف. ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً. وبنو المعابد لهذه الأصنام وقدموا القرابين وتسلط الكهنة والملوك على الرعية، وساد الظلم وفشت الفاحشة، وخاصة بين أبناء قابيل، والذى تقول التوراة عن أن يوبال – وهو من ذرية قابيل – كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. ونحن نعلم ما لتأثير الموسيقى على النفوس. ولعله وضع من الألحان والترانيم ما يضفى على الجو الرهبة. مما يزيد من تسلط الكهنة ونفوذهم. ولم يقتصر الضلال على أبناء قابيل وحدهم فقد ضلَّ أيضاً كثير من نسل شيث. إلاَّ بطناً واحداً من نسل إدريس عليه السلام.

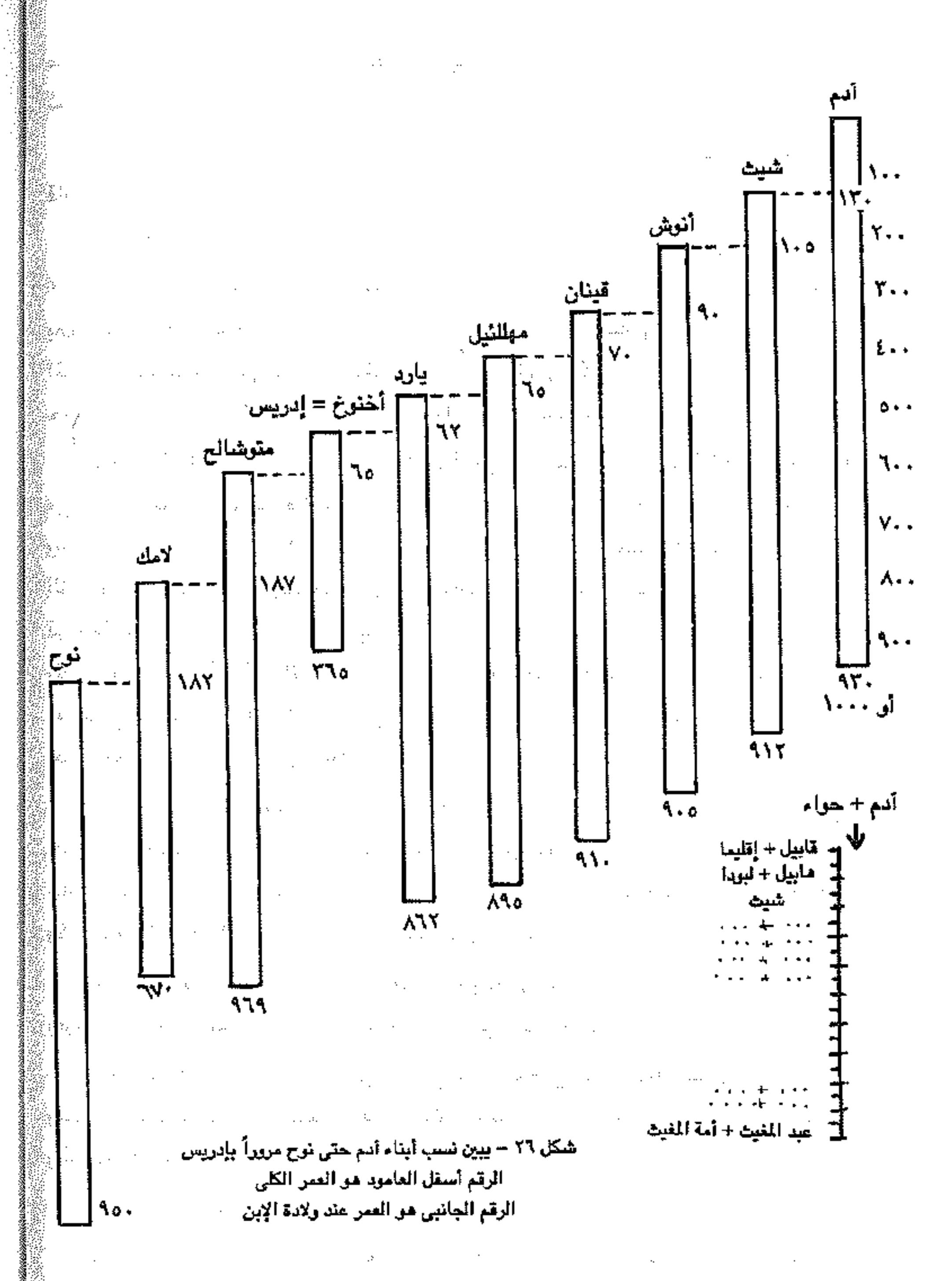
وكان إدريس عليه السلام فى مصر وقد وُلِدَ له عند عمر ٥٦ سنة ابنه متوشالح ثم وُلِد لمتوشالح عند عمر ١٨٧ سنة ولد سماه لامك. وعاش لامك ٧٧٧ سنة. ولابد أن متوشالح ولامك كانا ضمن من هاجروا من مصر إلى فلسطين ثم عبروا سوريا واستقروا فى شمال العراق وكان لامك ابن ١٨٢ سنة لما وُلِدَ له ولدٌ سماه نوحاً (شكل ٢٦).

تقول التوراة إصحاح ٥: وعاش لامك مائة واثنتين وثمانين سنة. ودعا اسمه نوحاً قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التى لعنها الرب.

ونفهم من هذا أن الاسم مشتق من ناح ينوح بمعنى العزاء والراحة والإسترواح والتنعم. ومنها جاء استخدام المسيحيين لفظ «المتنيح» بمعنى المرحوم. وصفاً ودعاءً للميت بالرحمة والراحة والتنعم فى الآخرة.

إلا أن بعض المفسرين يرونه مشتقاً من النواح.

كما أن الأستاذ رؤوف أبو سعدة يرى أنه مشتق من ناح ينوح العبرى، بمعنى البقيا والتلبث لطول مكثه فى قومه (ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً).



شكل ٢٦ – يبين نسب أبناء آدم حتى نوح مروراً بإدريس
الرقم أسفل العامود هو العمر الكلى
الرقم الجانبى هو العمر عند ولادة الإبن

وقد يكون هذا صحيحاً لو كان الذى اختار له الإسم هو الله سبحانه وتعالى، كما كان الحال مع إسماعيل وإسحاق، إذ أن الملائكة التى بشرت بهذين النبيين أعطتهما اسميهما عند البشرى بهما - أما نوح فليس هناك من دليل على أن الله هو الذى اختار له هذا الإسم. ولم يكن لامك يعرف أن ابنه نوحاً سيعيش هذا العمر ليسميه نوحاً من البقيا والتلبث.

كذلك لا نرى معنى للإشتقاق من النواح لأن كل الأطفال تبكى فى الصغر. وإن كانوا يقصدون النواح على قومه لعدم إيمانهم به. فما كان لامك يعرف أن ابنه سيكون نبياً وأن قومه سيكذبونه، وسيكون النواح عليهم.

ولذلك لابأس من الأخذ بما قيل من أن والده سمّاه نوحاً - بمعنى الراحة والاستروا ح والتنعم بعد تعبه فى فلاحة الأرض.

نـوح فى قومه

وشب نوح كما يشب غيره من الشباب ولا شك فى أنه رعى الغنم فى شبابه، للحديث الشريف «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم». كذلك فلعل والده كان نجاراً، فأخذ نوح عنه النجارة كصنعة أو أن صناعته للسفينة فيما بعد كانت إلهاماً من الله بدون سابق معرفة أو خبرة، وتكون هذه معجزة أخرى لقوله تعالى: **«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا»** (من ٣٧ - هود).

ومن المرجح أيضاً أن والده - لامك - لم يكن من المتدينين أو لم يكن من المتعصبين لديانة قومة. فلم يُجبر نوحاً على الركوع أو السجود للأصنام التى كان يعبدها قومه. لعصمة الأنبياء من ذلك حتى فى طفولتهم أو المراحل الأولى من شبابهم.

وشب نوح، ورأى الضلال الذى عليه القوم ولم يقتنع أن هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة حقة، أو أنها قادرة على نفع الناس أو ضرهم. فالناس هم الذين يصنعونها بأيديهم.

وراح يقلب بصره فى السماء يطلب الهداية. وانجابت عن قلبه الغشاوة، وغمره نور، وجاءته البينة، وحياً من الله، يصب فى قلبه العقيدة الحقة، وهى أن خالق هذا الكون هو إله واحد لا إله إلاّ هو. واحد أحد لا شريك له.

«إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين» (٣٣ - آل عمران).

واختلفوا فى سن نوح يوم بعثه. عن ابن جرير قال ابن خمسين سنة، وقيل أيضاً ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وعن ابن عباس قيل ابن أربعمائة وثمانين سنة.

ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده، وحذّرهم من مغبة العصيان.

«لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩ - الأعراف).

«ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم» (٢٥ ، ٢٦ – هود).

«ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون» (٢٣ – المؤمنون).

بهذه الآيات من ثلاث سور مختلفة كانت بداية ذكر قصة نوح ويمكن استخلاص الكيفية التى دعا بها قومه إلى دين الله كالآتى:

– دعوة إلي عبادة الله.

– ليس هناك إله إلاّ الله وحده .

– أنذرهم إن خالفوا وعصوا. وتوعدهم بعذاب. وصف مرة بأنه عذاب عظيم، ومرة أخرى بأنه عذاب أليم.

وآمن به نفر قليل – من الضعفاء والفقراء ورقيقى الحال. وكذّب به كبراء القوم ووجهاؤهم. بالطبع حرصاً على مكانتهم وثرائهم. ولكنهم راحوا يتلمسون أعذاراً يبدونها – يُغلفّون بها أهواءهم فقالوا:

«ما نراك إلا بشراً مثلنا» (٢٦ – هود).

أى أنهم رأوه واحداً منهم – لا يمتاز عليهم بشيء – لا بالغنى ولا بالثراء فاستبعدوا أن يكون الله قد اختاره لذلك الأمر. كما قالوا إنه إنما يريد بهذه الدعوة، أن يتخذ مجلس الصدارة فيهم. وأن يكون له الفضل عليهم أو يرأسهم بهذه الدعوة.

«فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين» (٢٤ – المؤمنون).

وكان الرد على هذا الاعتراض هو:

«أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون؟» (٦٣ – الأعراف).

ونفى أنه يريد بهذه الدعوة أجراً، من جاه أو مال أو سلطان عليهم:

«ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً. إن أجرىَ إلاّ على الله» (٢٩ – هود).

وقال: **«إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر. إن أجرىَ إلاّ على رب العالمين»** (١٠٧ – ١٠٩ الشعراء).

وأكد لهم أنه رجل منهم، وبشر مثلهم، ولكن الله منّ عليه وهداه.

«ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملَكٌ» (٣١ – هود).

ولعلهم طلبوا منه بعض الخوارق، مثل أن يرزقهم مالاً كثيراً وذهبا، أو يخبرهم بما يحدث في الغد أو كذا وكذا ... وهذا دأْبُ المكذبين في كل العصور. فقد قال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفجُر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتُفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزِّل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاَّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً» (٩٠ – ٩٤ الإسراء).

سبب آخر أبدوه لعدم اتباعهم لنوح عليه السلام، وهو أن الذين اتبعوه هم من الضعفاء، كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعه الأشراف ولا أثرياء القوم. ثم قالوا له إن هؤلاء الذين اتبعوه لم يتبعوه عن تروٍّ منهم أو تفكر، بل بمجرد أن دعاهم أجابوه ولبُّوا دعوته من أول الأمر ومن مبدئه وأن هؤلاء لا يفضلُونهم بمال أو جاه.

«وما نراك اتبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا باديَ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين» (٢٧ – هود).

«قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» (١١١ – الشعراء).

ثم قالوا، إن هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا به، منهم من كان خطَّاءً من قبل. فكان الرد عليهم أنه لا يلزمه شيء بما كانوا يعملون في الماضي وأن حسابهم في ذلك على ربهم.

وطلبوا منه إن كان يريدهم أن يؤمنوا به أن يطرد هؤلاء الضعفاء أنَفَةً منهم أن يجلسوا معهم واستكباراً عليهم. وكان الرد بالرفض.

«قال وما علمى بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلاَّ على ربى لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلاَّ نذير مبين» (١١٢ – ١١٥ الشعراء).

«وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربِّهم. ولكنى أراكم قوماً تجهلون» (٢٩ – هود).

وكان هذا نفس ما طلبه أشراف قريش من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – إذ طلبوا أن يجعل لهم مجلساً خاصاً لا يشاركهم فيه الفقراء ولا الضعفاء ولا العبيد. فنزل قوله تعالى:

«ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىِّ يريدون وجهه» (٥٢ – الأنعام).

ثم راح قوم نوح يلتمسون الأعذار لعدم إيمانهم به. وألهمه الله الرد على هذه الأعذار.

قالوا إنه افترى هذا الأمر:

«أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون» (٣٥ – هود).

وقالوا إنه حاد عما كانوا يعبدون، وضلَّ عن شريعتهم:

«قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين» (٦٠ – ٦١ الأعراف).

قالوا إنه مجنون:

«كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر» (٩ – القمر).

«إن هو إلاّ رجل به جِنَّةٌ فتربصوا به حتى حين» (٢٥ – المؤمنون).

كذلك كانت امرأة نوح تقول لقومها عنه إنه مجنون لأنها كانت كافرة مثلهم. وكانت هذه خيانة منها لزوجها – إذ المفروض أن الزوجة ألصق الناس بزوجها وأعلمهم بصدقه. وكانت تعلم جيداً أن ما يدعو إليه هو وحي من الله تعالى، ولكنها مجاراة لكفرها ولقومها كانت تشيع عنه أنه مجنون. وعبر عن ذلك القرآن الكريم بالخيانة فى قوله تعالى:

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين».(١٠ – التحريم).

وليس المراد فى قوله تعالى فخانتاهما، إتيان فاحشة، إذ أن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء. قال سفيان الثورى عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قوم. سمعت ابن عباس يقول فى هذه الآية: مازنتا – أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر عنه أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفى عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تُطلعُ على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فيعذبونه أو يصدونه عن دين الله.

وسيأتى ذكر هذه النقطة ثانية عند الكلام عن ابن نوح الذى كان من المغرقين.

ذكَّر نوح قومه بآيات الله فى الكون، واستحالة أن تكون أصنامهم التى يعبدونها هى التى خلقت السماوات والشمس والقمر. ويستحيل أن تكون هى التى خلقتهم، وكان فى اللفظ القرآنى إشارة إلى أن الإنسان يتغذى وينمو على ما تنبت الأرض من خيرات، سواء له أو لمواشيه فكأن الإنسان ينبت من الأرض – وإذ يموت يعود تراباً لأنه مخلوق من تراب الأرض، وهذا شيئ ملموس لهم. ومن الواجب أن يؤمنوا كذلك بأن الله سيخرجهم ثانية من الأرض ليحاسبهم على أفعالهم. كما أن الله هو الذى جعل لهم الأرض ذلولاً منبسطة يمشون فى مناكبها ومسالكها.

«ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطاً. لتسلكوا منها سبُلاً فِجاجاً» (١٥ - ٢٠ نوح).

ويجدر بنا أن نشير إلى إعجاز اللفظ القرآنى الذى احتوته هذه الآية فى قوله تعالى «وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً». إذ أن السراج يشتعل ويُشع ضوءاً وحرارة. وهذا ما يحدث داخل الشمس. إذ أثبت العلماء أن تفاعلات نووية تحدث بها وترفع حرارتها إلى ملايين الدرجات وتشع الضوء والحرارة. أما القمر فهو يعكس هذا الضوء فيبدو منيراً، ولكنه ليس بسراج يضيء بذاته وليس به احتراق.

كذلك اعتماد الإنسان فى معيشته وبناء جسده ونموه على ما تنبت الأرض فكأنه ينبت من الأرض. ثم إشارة سريعة إلى البعث فى الآخرة «ويخرجكم إخراجاً».

وهذا ما سبق أن أشرنا إليه فى مقدمة هذا الكتاب بأن الهدف من القصص القرآنى ليس فقط السرد التاريخى للأحداث. بل تمتزج به العبرة والعظة والترغيب والترهيب. فى إيجاز وإعجاز لا يتعارض مع أى تقدم علمى يظهر فى المستقبل.

ورغَّبهم فى الإيمان بأن لهم الثواب فى الدنيا: مطرٌ غزير تكثر به الغلة وتزداد المواشى فتزداد ثروتهم وأموالهم، ويكثر أبناؤهم وتخضر الأرض، وتصبح كأنها جنة تجرى من خلالها أنهار كثيرة. وكيف أنهم بعد كل ذلك لا يطمعون فى ثواب الله فيعظمونه ويوقرونه. وأن الله سيغفر لهم ما سبق من تكذيبهم ومن خطاياهم:

«فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. ما لكم لا ترجون لله وقاراً». (١٠ - ١٢ نوح).

ولكنهم أصروا على تكذيبه بل وهددوه بالرجم. **«قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونَنَّ من المرجومين»** (١١٦ - الشعراء).

وبدأوا فى إيذائه.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتى قومه فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرح، ويخنقونه حتى يغشى عليه، ثم يلقونه فى حصير ويرمون به فى الطريق، ويقولون إنه سيموت بعد هذا اليوم. فيعيده الله سبحانه وتعالى إلى قُوَّته، فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله، فيفعلون به مثل ذلك.

وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. وقال ابن عباس: جاء رجل يتوكأ على عصا ومعه ابنه إلى نوح. فدعاه نوح إلى عبادة الله. فقال الولد. يا أبت أمكنِّى من العصا. فأخذ العصا وضرب نوحاً فشجَّه

فى رأسه وسالت الدماء منه. فقال نوح: رب قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خير فاهدهم. وإن يك غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين. وقيل إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبى نوحاً قال لأبيه، أعطنى حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه.

وهكذا بقى النبى الكريم يؤذَى ويُعَذَّب، وهو مع ذلك صابر، لا يدعو على قومه بالعذاب، وإنما كان يؤمل فيهم أو فى أبنائهم الخير والصلاح ويقول، لعل الله يخرج من أبنائهم من يؤمن بالله. ومع هذه المدة الطويلة التى ظل نوح يدعوهم فيها – لم يؤمن به إلاَّ القليل منهم. وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن. فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به. وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بنى احذر هذا. لا يغرنَّك عن دينك وآلهتك (تفسير القرطبى).

وأقام فيهم ست مائة سنة داعياً ومذكِّرا وناصحاً، وسلك جميع الطرق لإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان. ومع ذلك لم تلن قلوبهم وقابلوا الإحسان بالشدة. ومالوا عليه بالضرب ونفذوا تهديدهم بأن يكون من المرجومين ورجموه.

قال لهم لقد لبثتُ فيكم مدة طويلة وطال مُقامى بينكم وكثر تذكيرى بآيات الله عليكم ودعوتى لكم لتعبدوه. وقد توكلت على الله فلا أبالى بشىء بعد ذلك. وطلب إليهم أن يجتمعوا هم وشركاؤهم الذين يدعونهم من دون الله وكذلك المشركون أمثالهم. وألا يكون الأمر ملتبساً عليهم. بل عليهم أن يدرسوا الأمر جيِّداً ويفصلوا فيه، ويتخذوا قراراً بصدده: وطلب منهم أن يخبروه بعد ذلك بما استقر عليه رأيهم، إن كانوا سيؤمنون به أم يظلون على كفرهم. وطلب منهم ألا يتأخروا فى إخباره بما استقر عليه رأيهم. وذكَّرهم ثانية بأنَّهم إن كذَّبوه ولم يطيعوه فإن ذلك لن يكون سببه أنه طلب منهم أجراً لا يطيقونه فهو لم يسألهم أجراً وإنما أجره على الله وأن كل ما يهدف إليه هو أن يؤمنوا به ويكونوا لله مسلمين:

«واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله. فعلى الله توكلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إلىَّ ولا تُنظِرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرىَ إلاَّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين».
(٧١ – ٧٢ يونس).

ثم بدأ ينذرهم بعذاب الله إن أصروا على كفرهم:

«إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيَهم عذاب أليم. قال يا قوم إنى لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مُسَمًّى. إن أجل الله إذا جاء لا يُؤَخر لو كنتم تعلمون». (١ – ٤ نوح).

وأصروا على الكفر وعبادة الأصنام. فبدأ نوح يضيق بهم ويكفرهم:

«قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاَّ خساراً، ومكروا مكراً كُباراً. وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلوا كثيراً. ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً». (٢١ – ٢٤ نوح).

وكرر عليهم الدعوة للإيمان أكثر من مرة بالليل والنهار. ولكنهم كانوا لا يستجيبون لدعوته – بل إنهم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما يدعوهم إليه وكانوا يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعوا قوله، واستكبروا أن يطيعوه، واستنكفوا عن اتباع الحق والإنقياد له، ودعاهم جهرة بصوت يسمعه كل الناس. ثم كرر عليهم الدعوة كل على حدة. فيما بينه وبينهم. وطلب منهم أن يرجعوا عما هم فيه من الضلالة. وأنهم لو استغفروا لذنوبهم وما سبق من تكذيبهم، فإن الله سيغفر لهم ذلك. بل وسيرسل عليهم المطر الغزير وتزدهر الأرض وتصبح كأنها جنات – وتكثر الأنهار. وسألهم سؤال توبيخ وتقريع: لماذا لا توقرون الله وتعظمونه حق عظمته وفي هذا استفهام ضمني: ألا تخافون بأسه وغضبه ونقمته؟!

«قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً. ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. ما لكم لا ترجون لله وقارا». (٥ – ١٢ نوح).

ولبث فيهم مئات السنين يدعوهم فلم يؤمن به إلاَّ نفر قليل. وضاقوا به وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي توعَّدهم به إن كان صادقاً في أمره:

«قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين». (٣٢ – هود).

وضاق هو بهم أيضاً كما ضاقوا به. واشتكى إلى الله وطلب منه أن يفصل في الأمر. وأن ينجِّيه هو ومن معه من المؤمنين:

«قال رب إن قومي كذَّبون. فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين». (١١٧ – ١١٨ الشعراء).

كانوا قد تحدوه أن ينزل بهم ما يتوعدهم به من العذاب إن كان صادقاً في دعواه. إذ قالوا **«فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين»**. وكان رده أن العذاب الذي توعدهم به ليس من عنده هو، بل من عند الله عز وجل، وراجع إلى مشيئته، وهو وحده الذي يحدد متى ينزل بهم

العذاب. وقال إن كل شىء مردُّه إلى الله. وحتى نُصحه لهم لن يكون ذا نفع لهم إن كان الله قد كتب عليهم الضلالة بما علم من فساد طويتهم وخبث سريرتهم. وأنهم فى الآخرة راجعون إلى الله. وفى هذا إشارة وتذكير لهم بأن هناك حسابا فى الآخرة على أفعالهم وتكذيبهم:

«قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون». (٣٣ - ٣٤ هود).

وأخبر الله نوحاً أنه لن يؤمن به من قومه إلاَّ النفر القليل الذين آمنوا به. وأمره ألا يحزن بسبب ذلك، وبما كانوا يجيبونه وما كانوا يفعلون به عندما كان يدعوهم إلى الله:

«وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون». (٣٦ - هود).

فلما كان الأمر كذلك، وعلم أن الغالبية الكافرة لن تؤمن مهما كرر عليهم الدعوة للإيمان فهم سادرون فى غيهم. ضلوا ويُضِلُّون غيرهم.

«وقد أضلوا كثيراً. ولا تزد الظالمين إلاَّ ضلالاً». (٢٤ - نوح).

وأيقن نوح أن لا فائدة من دعوتهم إلى الهدى. ولا فائدة حتى من بقائهم على الأرض أحياءً. لأنهم حتى إن بقوا فإن نسلهم سيكون كافراً مثلهم. بل إنهم سيعملون على نشر الكفر فى الأرض. فتوجه بالدعاء إلى الله أن يبيدهم.

«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً. إنك إن تذرهم يضلُّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفَّاراً». (٢٦ - ٢٧ نوح).

واستجاب الله لدعوة نوح:

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على نوح فى العالمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين». (٧٥ - ٨٢ الصافات).

وصدر أمر الله:

«ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغرقون». (٣٧ - هود).

ولكن كيف يكون غرقهم؟

«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغرقون».(٣٧ - هود).

بأعيننا كناية عن عناية الله به أثناء صنعه للسفينة، من تَعَدِّى الكفار عليه، وكذلك لتكون السفينة جيدة الصنع. وقيل المراد من «أعيننا» أى ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً لحفظك

ولمعونتك والمراد بـ «وحينا» أن نوحاً عليه السلام لم يكن يدرى كيف يصنع السفينة فأوحى الله إليه طريقة صنعها. وقيل إن الله بعث جبريل عليه السلام فعلّمه طريقة صنعها.

وأمره الله تعالى ألاّ يراجعه فى أمر الذين ظلموا وكذبوه، بأن يطلب لهم التأجيل أو دفع العذاب عنهم، لأنهم قد حُكِمَ عليهم بالإغراق، وجرى بذلك أمر الله وقضاؤه. ولا راد لقضائه فهم مغرقون.

وبدأ نوح عليه السلام فى صناعة الفلك.

ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم» (٣٨ – ٣٩ هود).

كانوا يسخرون لأنه لا توجد بحار فى هذه المنطقة. والسفن التى كانت تصلح للسير فى الأنهار وفروعها – لابد أن تكون أصغر من ذلك بكثير. من هنا كانت سخريتهم. وقيل: كانوا يتضاحكون ويقولون: يا نوح صرت نجّاراً بعد ما كنت نبياً. وكان رده عليهم أنهم بقولهم هذا يستوجبون السخرية منهم. وقيل لم يسخر منهم فعلاً لأن السخرية لا تليق بالأنبياء. فكأن السخرية مجازاً بسبب جهلهم، ومكافئة لسخريتهم به. وسيحلُّ عليهم العذاب الذى يخزيهم ويذلهم ويهلكهم. ولهم فى الآخرة عذاب مقيم ودائم فى النار.

صُنْعُ السفينة :

لم يتعرض القرآن الكريم لطريقة صنع السفينة ولا أبعادها لأنه – كما سبق أن قلنا – إن الهدف من القصص القرآنى هو العبرة والعظة وليس فى طريقة صنع السفينة أو كم ذراعاً طولها وعرضها، أو كيف طليت بالقار أو من أين جاء القار كل هذه تفاصيل قد تشتت ذهن القارىء عن العبرة المستهدفة. وهو أن تكذيبهم لنبيهم كان هو السبب فى عذابهم وإغراقهم.

وتجاوُز القرآن الكريم عن هذه التفاصيل. فتح مجالاً عند البعض للأخذ عن مرويات أهل الكتاب. نحن نعلم مقدار ما فيها من عدم دقة ومبالغات لا يصدقها العقل. ولئن ذُكِرَت هنا – نقلاً عن بعض كتب التفاسير – فلبيان أنها إضافات مسلمة أهل الكتاب. وحتى لو ادعى بعضهم أحاديث شريفة متعلقة بها. فهى من الأحاديث التى لا يُشكُّ فى أنها موضوعة.

قال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسّه. فكان ذلك فى مائة عام. ونَجَرها فى مائة أخرى وقيل فى ٤٠ سنة، وأنه كان خشب الساج.

واختلف المؤرخون فى أبعاد السفينة:

فذكر محمد بن إسحق أن طولها كان ٨٠ ذراعاً وعرضها ٥٠ ذراعاً.

وعن الحسن كان طولها ٦٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً.

وعن ابن عباس طولها ١٢٠٠ ذراعاً وعرضها ٦٠٠ ذراعاً وقيل طولها ٢٠٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً.

أما التوراة فتذكر طولها ٣٠٠ ذراعاً. وعرضها ٥٠ وارتفاعها ٣٠ ذراعاً.

ولا شك أن القول الأول وهو ٨٠ × ٥٠ ذراعاً أى ٣٦ × ٢٣ متراً مقياس معقول بالنسبة لسفينة من الخشب. وبسؤال مختصين فى بناء السفن أفادوا بأنه فى عصرنا الحالى لا تزيد المراكب الخشبية عن ٧٠ متراً طولاً أى حوالى ١٥٠ ذراعًا. وتصل حمولة سفينة كهذه إلى ٣٠٠ طن.

وعلى ذلك فإن طول ٦٠٠ ذراعاً (٢٧٠ متراً) أو ١٢٠٠ ذراعاً (٥٤٠ متراً) أو ٢٠٠٠ ذراعاً أى ٩٠٠ متراً أى ما يقرب من كليو متر) هى مقاييس فيها كثير من المبالغة. فإن وصْل أخشاب ليصل طولها إلى كيلو متر، أمر بالغ الصعوبة. كما أنه يُضعِفُها ويجعلها تتفسَّخ عند ارتطامها بالأمواج. وخاصة أن القرآن الكريم قال «وهى تجرى بهم فى موج كالجبال».

قد يقول البعض إن هذه السفينة كانت معجزة. والرد إنها تكون كذلك لو نزلت من السماء سفينة تامة الصنع. ولكن مادام نوح عليه السلام هو الذى صنعها – فإنه يصنعها وفقاً للقوانين الأرضية صحيح أنه يعملها بإرشاد من الله وتوجيهه ولكن طبقاً لسنن الله فى الأرض.

وقالوا كان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذرعاً أى ١٤ متراً، وأنها كانت مكونة من ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع. السفلى للدواب والوحوش. والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها. ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر أثراً غريباً من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبدالله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم. لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها، قال فانطلق بهم، حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ حفنة من ذلك التراب بكفِّه، وقال أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال هذا كعب حام بن نوح. قال فضرب الكثيب بعصاه وقال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. قال له عيسى عليه السلام. أهكذا هلكت؟ قال لا ولكنى مت وأنا شاب. ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ٦٠٠ ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلما كثر روث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن أغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث. فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها، أوحى الله إليه أن أضرب بين عينى الأسد فضرب، فخرج من منخره سنور وسنورة،

فأقبلا على الفأر. قال: فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا يجلس معنا ويحدثنا، قال كيف يتبعكم من لا رزق له. ثم قال له عد بإذن الله فعاد تراباً. والاختلاق واضح فى هذه القصة. ففيها أشياء لا يصدقها العقل، مثل خروج الخنزير والخنزيرة من ذنب الفيل، وخروج السنور والسنورة من منخر الأسد. كما أن تلاميذ المسيح لم يكونوا ينادونه يا رسول الله، بل كانوا يقولون: يا مُعَلِّم.

الطوفـــان :

كانت العلامة على بدء الطوفان، أن يفور التنور أى يخرج الماء من الفرن الكائن فى بيت نوح عليه السلام:

«حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كُلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل». (٤٠- هود).

«فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون». (٢٧ - المؤمنون).

وكلنا يعرف اندفاع الماء بقوة من قاع قدر على النار إلى السطح عند غليان الماء وفورانه ولذلك كان لفظ وفار التنور تعبيراً عن اندفاع الماء بقوة كأنه يغلى.

أعقب ذلك هطول الأمطار الغزيرة من السماء. واندفاع الماء بقوة من عيون تفجرَّت عنها الأرض:

«ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً. فالتقى الماء على أمر قد قُدِر».
(١١ - ١٢ اقمر).

وقد شُبِّهت السماء فى هذه الآية كأنها بحر عظيم. وقاعه له أبواب، ثم فتحت هذه الأبواب ولنا أن نتصور شدة اندفاع الماء النازل منها، ليس على شكل قطرات، بل كأنه السيل المنهمر المتواصل المندفع بعضه وراء بعض. كذلك تفجرت العيون فى الأرض فى كل مكان. ويكتمل المشهد الرهيب بأن يلتقى الماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض فيصبح الماء فى كل مكان. مغرقاً كلَّ شىء كما قدَّر الله سبحانه وتعالى.

«فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ».

من دخل السفينة ؟

أُمِرَ نوح عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أصناف:

١ - من كلٍّ زوجين اثنين.

٢ – وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول.

٣ – ومن آمن، وما آمن معه إلاَّ قليل.

الصنف الأول:

من كُلٍّ زوجين اثنين. أى ذكرٌ وأنثى من كل صنوف الحيوانات. وقيل هبط جبريل عليه السلام إلى الأرض وحمل إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين. وكان نوح قد صنع أقفاصاً للوحوش وهو يصنع السفينة.

بعضهم قال وأيضاً من النباتات. وهذا قول فيه نظر فالنباتات لا يخشى عليها من الغرق، ولو غرقت فإنها – بعد أن يجف الماء – لا تلبث أن تنبت من جديد ولذلك فلا داعى لحملها – إلاَّ أن تكون علفاً للحيوانات.

ويعمل الخيال عمله عند البعض، فيختلقون أقوالاً غريبة. فقد قيل إن آخر من أدخل من الحيوانات الحمار. فتعلق إبليس بذنبه، وجعل الحمار يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه. فجعل نوح عليه السلام يقول له ادخل وإن كان إبليس معك. فلما قالها نوح خلَّى الشيطان سبيل الحمار فدخل ودخل معه. فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله. فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك؟ قال اخرج يا عدو الله. قال ما أخرج وما كان بُد لك أن تحملنى معك. وكان – فيما يزعمون – على ظهر الفلك. وواضح غرابة هذا القول وعدم معقوليته. ولعلهم بهذه القصة يبررون كيف أن إبليس لم يغرق واستمر فى وسوسته لبنى آدم بعد الطوفان. ونسوا أن طبيعة إبليس مختلفة عن طبيعة بنى آدم. إذ يتمكن من الارتفاع فى الجو لأى مكان مثله مثل الجن الذين كانوا يرتفعون إلى السماء. «**وأنَّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع**(٩ – الجن). كما أن إبليس ليس له جسد يتنفس الهواء فيغرق كما يغرق بنو البشر.

كذلك يقال إنهم لهم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه حمى. وقال ابن حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد عن أسامة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه، وكيف تطمئن المواشى ومعها الأسد؟ فسلَّط الله عليه الحمى. فكانت أول حمى نزلت فى الأض، ثم شكوا الفأرة، فقالوا تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرّة منه فتخبَّأت الفأرة منها. وواضح أن هذا الحديث موضوع. إذ هو مشابه للحكاية المروية عن أصحاب عيسى عليه السلام. مع اختلاف بسيط هو خروج الهرة من منخر الأسد بدلاً من السنور والسنورة فى حكاية أصحاب عيسى.

وعن وهب بن منبه قال: لما أمر الله تعالى نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين. قال كيف أصنع بالأسد والبقر؟ قال الله تعالى له، من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يارب. قال فأنا أؤلف بينهم حتى لا يتضاروا. فحمل السباع والدواب فى الطبقة الأولى. فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر.

الصنف الثانى:

أمر الله نوحاً أن يحمل معه فى السفينة أهله، واستثنى بعضهم لقوله تعالى: **«وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول»** (٤٠ - هود).

«وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول منهم». (٢٧ - المؤمنون).

وهم أهل بيت نوح عليه السلام وأهل قرابته. إلاَّ من سبق عليه القول وسبق أن دعاه نوح إلى الإيمان ولم يؤمن، وكان ممن دعاهم نوح ولم يؤمنوا ابنه يام (وقيل اسمه كنعان) الذى انعزل وحده، ولجأ إلى قمة جبل مرتفع ظناً منه أن الماء لن يصل إليه. كذلك لم يركب معه امرأة نوح وكانت كافرة. لم تؤمن به وكانت تتهمه بالجنون.

وهنا خلاف. إذ قال قتادة: لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه: سام وحام ويافث ونساؤهم. فجميعهم ثمانية: وهذا لا يتعارض مع الرأى القائل بأن امرأة نوح كانت كافرة وكانت من المغرقين، فلابد أن كانت له زوجتان إحداهما كافرة غرقت، والأخرى مؤمنة ركبت معه السفينة.

وقال الأعمش: كانوا سبعة، نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن له.

الصنف الثالث:

آخر مَن أُمِرَ نوح بحملهم فى السفينة **«مَن آمن وما آمن معه إلاَّ قليل»** حسب نص القرآن الكريم.

قال إسحق كانوا عشرة. وقال مقاتل كانوا سبعين، بالإضافة إلى نوح وامرأته وبنيه الثلاثة ونسائهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفساً. وقال ابن عباس كانوا ثمانين إنساناً.

وقال على بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: فلما ركب نوح فى الفلك وأدخل معه كل من آمن، تفجرت ينابيع الأرض، وأمطرت السماء كأفواه القِرب أربعين يوماً وليلة. ثم احتمل الماء الفلك.

«وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال». (٤١ - ٤٢ هود).

وكما سبق أن ذكرنا كان لنوح ابن لم يؤمن لجأ إلى جبل، ظناً منه أن الماء لن يصل إليه، ولكن الماء ارتفع، ووصل إلى مكانه، فارتقى إلى قمة الجبل. ولكن الماء ارتفع حتى طاله فكان من المغرقين:

«ونادى نوح ابنه وكان فى معزلٍ. يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» (٤٢ - ٤٣ هود).

وغرق كل من كان فى أرض العراق وكان ممن وصلتهم دعوة نوح عليه السلام ولم يؤمن وبالتالى لم يكن ممن ركبوا فى السفينة.

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبى. وذلك أنها خشيت عليه من الماء فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبى. فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بها الماء فلو رحم أحداً لرحم هذه.

بعض المفسرين والعلماء يقولون إن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة. فلم يولد لهم فى تلك الفترة مولود. وبذلك كان جميع قومه بالغى التكليف وحق على المكذّبين العذاب وحاق بهم الهلاك.

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة هطول المطر. فهذه ليست بذات أهمية، المهم أن يستمر الماء فى الزيادة والارتفاع حتى يبلغ قمم الجبال وهى التى يأمل الكافرون أن يلجأوا إليها إنقاذاً لأنفسهم من الغرق. وبالطبع لجأوا إليها ولكن الماء ارتفع فوقها فكانوا من المغرقين. وظلت السفينة طافية على الماء وبها نوح والقلة المؤمنة التى معه.

«فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجّانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين». (٢٨ - ٢٩ المؤمنون).

«فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين» (١٥ - العنكبوت).

«وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية» (٣٧ - الفرقان).

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على نوح فى العالمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين». (٧٥ - ٨٢ الصافات).

«وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقُضىَ الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين». (٤٤ - هود).

أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها، وأمر السماء أن تكف عن المطر، وشرع الماء فى النقصان، وتمَّ أمر الله وقضاؤه من إغراق القوم الكافرين، وقضى الأمر كما توعدَّهم نوح بقوله:

«فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحل عليه عذاب مقيم». (٣٩ - هود).

وتم تحقيق دعوة نوح عليهم **«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً. إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً»** (٢٦ - ٢٧ - نوح).

وكان جزاء كفرهم وصدهم عن سبيل الله أنهم أغرقوا فى الدنيا ولهم فى الآخرة النار، ولم ولن ينصرهم أحد من عذاب الله:

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً». (٢٥ - نوح).

واستقرت السفينة على جبل الجودى، وهو أحد قمم سلسلة جبال أراراط في شمال العراق أو جنوب شرق تركيا. فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه. فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ملطَّخة رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب، فهبط ومن معه من السفينة، وكان خروجهم من السفينة فى عاشوراء من المحرم.

وقال الإمام أحمد، حدثنا ابن جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى، عن ابن حبيب بن عبدالله، عن شبل، عن أبى هريرة قال: مَرَّ النبى صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم، فصام، وقال لأصحابه: من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه. يقول ابن كثير وهذا حيث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد فى الصحيح.

وتذكر التوراة قصة سيدنا نوح فى الإصحاح ٦ إلى ٩ تكوين، وهى تتفق فى كثير مما سبق ذكره هنا - إلاَّ أنها تختلف فى بعض الأمور:

١ - تذكر التوراة أن **سبب الطوفان** هو كثـرة شرور الإنسان، وهنا تتجلى نظرتهم فى تجسيد الإله، ونسبة مشاعر الإنسان إليه فتقول التوراة: (تكوين ٦ : ٥) «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، فحزن الرب لأنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسَّف قلبه، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم.

مع أن السبب الحقيقى للطوفان هو إهلاك الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح وكذبوه.

«ونصرناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا. إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين». (٧٧ – الأنبياء).

«ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون». (من ٢٧ – المؤمنون).

«قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاَّ خساراً. ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تَذرنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً. مما خطيئاتهم أغرقوا». (٢١ – ٢٥ نوح).

فهذه هى الأسباب فى إهلاكهم بالطوفان: تكذيبهم نوح عليه السلام وعصيانهم له. وإصرارهم على عبادة الأوثان والأصنام. وإضلالهم لكثير من الناس ونهيهم عن الإيمان بنوح. هذه هى الخطايا التى استحقُّوا بسببها الهلاك.

٢ – حكاية الميثاق :

تقول التوراة: وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته.

وتقول (تكوين ٩ : ٨): وكلَّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم. من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان. ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض، فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب. أني أذكر ميثاقى الذى بينى وبين كل نفس حية فى كل جسد. فلا تكون أيضا المياه طوفاناً لتهلك كل دى جسد فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض.

وهنا أيضاً تتضح نظرتهم التجسيدية للإله. فإذا كانت إرادة الله هى عدم إهلاك البشر فذلك منه فضلٌ ومِنَّة. وليس تقيداً بميثاق مع البشر والبهائم ووحوش الأرض! ويبلغ فساد الرأى مداه. إذ جعلوا من قوس قزح ما يُذكِّر الله سبحانه وتعالى بهذا الميثاق المزعوم.

«وما كان ربك نسيًّا». (٦٤ – مريم).

٣ – من كلٍّ زوجين اثنين :

تذكر التوراة فى نص منها (تكوين ٧ : ٢): من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكراً وأنثى، ومن البهائم التى ليست بطاهرة، اثنين ذكرا وأنثى، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى، لاستيفاء نسل على وجه كل الأرض. لأنى بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.

وفى نص آخر للتوراة (تكوين ٧ : ٩) ذُكِر أن ما أُخِذَ من الحيوانات هو اثنان اثنان. وواضح أن النص الأول الذى يفرق بين حيوانات طاهرة وأخرى نجسة قد أضيف إلى التوراة عند كتابتها فى السبى. لأن هذه التفرقة بين الحيوانات لم تكن على أيام سيدنا نوح بل أتت فى تعاليم موسى عليه السلام.

والقول الصحيح هو ما جاء فى القرآن الكريم: من كلٍّ زوجين اثنين ذكر وأنثى. وهذا يكفى لتكاثر النوع بعد الطوفان. ولا داعى لزيادة حمولة السفينة بأخذ ستة أزواج إضافية من بعض الأنواع.

٤ – مدة الطوفان :

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة الطوفان. مع أنه فى قصة عاد قوم هود حدد المدة التى هبت فيها الريح فقال:

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام». (٥ – الحاقة).

ولعل ذكر مدة الريح بالدقة كان لبيان أثرها المدمر إذ عهدنا بالريح أن تشتد عدة ساعات ثم تهدأ، وقد تثور ثانية وهكذا. ولكن أن تستمر الريح عاتية سبع ليال وثمانية أيام فهى ريح غير معتادة ومهلكة. فالمعجزة تتضمن أيضاً استمراريتها طوال هذه المدة. ومن هنا كان ذكر مدتها. ولعل القرآن الكريم لم يذكر مدة الفيضان لأن المدة نفسها ليست بمؤثرة فى القضية الإيمانية – ويكفى بقاء المياه عدة ساعات أو عدة دقائق لتموت الفئة الكافرة – إلاّ أنه بعد توقف سقوط المطر وتفجر العيون – يختلف الوقت الذى تجف فيه الأرض من بقعة لأخرى. فقمم الجبال تجف أولاً. ثم سفوحها وبعد عدة أسابيع تجف السهول وبعد عدة أسابيع أخرى تجف الوديان. وبهذا تختلف مدة الطوفان من مكان لآخر حسب ارتفاعه وحسب كمية المياه الموجودة به ولهذا لم يتعرض القرآن الكريم لهذه المدة – وإن قيل إن مدة الطوفان تقدر بمدة سقوط الأمطار – قلنا إن القرآن الكريم أشار إلى أن المياه ظلت تتساقط وتتفجر من الأرض حتى بلغت قمم الجبال التى لجأ إليها الكافرون.

وتختلف الكتابات اليهودية للتوراة فيما بينها على مدة الطوفان. ففى إحدى الكتابات تقول إن الأمطار ظلت تهطل أربعين يومــاً وأربعين ليلة ثم ظل نوح في فلكه بعـد ذلك مـدة ثلاث أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من رسو السفينة وبهذا يكون الطوفان قد دام ٦١ يوماً. ورواية أخرى تقول إن الطوفان استغرق اثنى عشر شهراً وعشرة أيام. ولما كانت الشهور العبرية شهوراً قمرية. فالمدة تساوى سنة شمسية كاملة.

وفي رواية ثالثة قيل إن المياه نقصت بعد مائة وخمسين يوماً.

٥ – تطيل التوراة فى كيفية تأكُّد نوح عليه السلام من انتهاء الطوفان وتذكر كيف أرسل الحمامة ثم الغراب ثم الحمامة مرة ثانية. وهى تفاصيل (استغرقت صفحة تقريباً – وسنذكرها فيما بعد) لا تخدم القضية الإيمانية، ولذلك أوجز القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى:

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك». (٤٨ – هود).

٦ – لا يفوت اليهود فى قصة مثل هذه أن يدسوا شيئاً يمجدهم، فيقولون إن مدينة أورشليم وجبل صهيون بالذات هما اللذان أفلتا من الغمر العظيم. أو القول بأن أرض فلسطين كلها مرتفعة فلم تغمرها مياه الطوفان. وهذا مثل ادعائهم بأن – العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون – وأن آدم إنما سُوِّى فى أورشليم!!

٧ – كذلك لم تذكر التوراة شيئاً البتة عن **ابن نوح الذى غرق.**

ونستكمل هنا ما جاء فى القرآن الكريم بهذا الصدد.

«ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم منْ أمر الله إلاَّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين». (٤٢ – ٤٣ هود).

وبعد أن توقف الطوفان. وجفت الأرض. تحركت عاطفة الأبوة لدى نوح عليه السلام، وتذكر ابنه الذى غرق – وتذكر وعد الله له بنجاة أهله. وابنه من أهله:

«ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، وإلاَّ تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين». (٤٥ – ٤٧ هود).

كان سؤال نوح عليه السلام، سؤال استفهام عن ولده الذى غرق، وهو من أهله. وكان الجواب أن النجاة وُعِدَتْ لمِن آمن من أهله. أما من سبق عليه القول ولم يؤمن، فقد استُثْنى من الوعد بالنجاة.

فسرَّ البعض قول الله عزَّ وجل – إنه ليس من أهلك – على أن هذا الابن كان ربيباً عنده. ولو كان الأمر كذلك لكان نوح عالماً به، ولما قال في سؤاله، إن ابني من أهلي.وقال البعض أيضاً: إنه كان ثمرة خطيئة لزوجته. ودلُّوا على ذلك بقول الله عزَّ وجل عن امرأة نوح وامرأة لوط «فخانتاهما» وقد سبق شرح هذه الخيانة بأن امرأة نوح كانت تشيع عنه أنه مجنون، وهذه خيانة من الزوجة لزوجها. وقالوا كذلك: إن ابن نوح هذا كان منافقاً يُظْهِرُ الإيمان مع أنه كان كافراً، وإن نداء نوح لربه كان حسب ما هو ظاهر له. أن ابنه من أهله. وظاهر الأمر أنه مؤمن، ولكن الله بقوله «إنه ليس من أهلك» أوضح أنه كان كافراً.

«قيل: يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك، وعلى أمم ممن معك..» (من الآية ٤٨ – هود).

ونزل نوح وبنوه ومن آمن من السفينة وكذلك نزلت الحيوانات والبهائم والطيور، وانتشروا في الأرض ليعمروها، بعد أن كانت مظاهر الحياة فيها قد بادت بفعل الطوفان، وكان أول ما فعله نوح أن صام ذلك اليوم – وقد سبق ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وانتشر الأبناء وزوجاتهم وتكاثروا.

هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً؟

بمعنى هل عم الطوفان الكرة الأرضية كلها، أم عم المنطقة التي كان بها قوم نوح، ولم يغمر غيرها من المناطق؟

بعض العلماء يميل إلى أن الطوفان كان عاماً وأنه أهلك كلَّ من وما على وجه الأرض، ولم يبق على وجه الأرض إلاَّ نوح ومن كانوا معه، ويحتجون على ذلك بالآية الكريمة:

«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً». (٢٦ – نوح).

أي لا تترك على وجه الأرض منهم دياراً، أي ولا ديَّاراً. والديَّار هو الذي يسكن الدار، وقال السدي: فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين. واستدلوا على ذلك بالحديث الشريف (السابق ذكره في ص ١٠٤ والمرويّ عن عائشة رضي الله عنها) عن ابن عباس حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلام: لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها... الخ الحديث. وقال ابن كثير، هذا حديث غريب، ورجاله ثقاة. وقالوا إن معنى هذا الحديث أنه لم ينج من الغرق ممن كانوا على وجه الأرض إلاَّ من ركبوا السفينة مع نوح.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: **«فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون، ثم أغرقنا بعدُ الباقين»** (١١٩ – ١٢٠ الشعراء).

وقوله تعالى: **«وجعلنا ذريته هم الباقين»**. (٧٧ – الصافات).

ولكن هاتين الآيتين لا تدلاَّن على أن جميع البشر على سطح الكرة الأرضية كلها قد بادوا إلاَّ من حمله نوح معه في السفينة – بل تدل على أن الله أنجاه ومن معه في السفينة. وغرق الآخرون. وأن من غرقوا، هو الذين لم يؤمنوا به، ولم يركبوا معه في السفينة من قومه. وبذلك كانت ذريته هم الباقون بعد هلاك المكذبين.

كما أن آية – رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً – لا تعنى بالضرورة عموم الكرة الأرضية كلها وإنما تستعمل لتدل على جزء من سطح الأرض ففى سورة يوسف: **«قال اجعلنى على خزائن الأرض»**، و **«كذلك مكنا ليوسف فى الأرض»**، والمراد هما أرض مصر. لا كل الأرض. ولا كل الكرة الأرضية وكذلك قوله تعالى: **«وإن فرعون لعالٍ فى الأرض»**. وكذلك قول فرعون لموسى وهارون: **«وتكون لكما الكبرياء فى الأرض»**، والمراد هنا أيضاً أرض مصر. وقوله تعالى: **«وإن كادوا ليستفزونك من الأرض، ليخرجوك منها»**، (٧٦ – الإسراء). والمراد بالأرض هنا أرض مكة.

وكذلك يكون معنى رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً – أى على أرض القوم الذين أُرسِلْتُ إليهم وكفروا – وهى أرض العراق. قال الإمام محمد عبده إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ويقول السيد محمد رشيد رضا إن ظاهر القرآن أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم ولكنه لا يقتضى أن يكون عاماً للأرض إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض.

والقول بأن قوم نوح لم يكن فى الأرض غيرهم ليس عليه دليل. فقد كانت مصر عامرة بالسكان من أبناء شيث. كذلك وسط وجنوب شرق آسيا.

ويتبنى آخرون الرأى القائل بأن الطوفان عمَّ المنطقة التى كان يعيش فيها نوح وقومه. وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها الطوفان وهذا الرأى هو الصحيح وأورد الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية – جـ ٤ فى العراق. ص ٩٥ – ١٠٠) أدلة كثيرة على صحة هذا الرأى. أولها أن كل آيات القرآن الكريم تنص دائماً ودون لبس أو غموض – على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة. ومن ذلك قوله تعالى:

«لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين». (٥٩ – ٦١ الأعراف).

وقوله تعالى: **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون»**. (١٤ – العنكبوت).

وقوله تعالى: **«إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه. أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال يا قوم إنى لكم نذير مبين»**. (١ – ٢ نوح).

وغير ذلك من الآيات، التي تؤكد كل التأكيد، أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة – شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء والرسل – إلاّ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الوحيد الذي أرسل إلى الناس كافة:

«وأرسلناك للناس كافة، وكفى بالله شهيداً»، (٧٩ – النساء).

«وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً»، (٢٨ – سبأ).

«قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»، (١٥٨ – الأعراف).

وهناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم، يذكر فيها الله سبحانه وتعالى عالمية الرسالة المحمدية.

ولما كان الأمر كذلك وكانت القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، هي ألاّ يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل، تصديقاً لقوله تعالى:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً»، (١٥ – الإسراء).

ولما كان نوح عليه السلام في العراق فكيف يعذب الله ويغرق أهل مصر، أو سكان الجزيرة العربية، بسبب كفر العراقيين بنوح؟

كذلك يقول القرآن الكريم: **«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً»**، (٢٥ – نوح).

وهذا يعني أن الذين غرقوا، إنما بسبب خطيئاتهم في حق نوح وكفرهم بدعوته.

وقال نوح عنهم: **«قال رب إنهم عصوني»**.

وكذلك الآية: **«وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن»**، (٣٦ – هود).

كل هذا يدل على أن الكافرين الذين أغرقوا كانوا من قوم نوح.

«فكذبوه، فنجيناه ومن معه في الفلك، وجعلناهم خلائف، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا»، (٧٣ – يونس). أما باقي سكان الكرة الأرضية في مصر وآسيا مثلاً، فلم تشملهم دعوته، وبالتالي لم يكونوا ضمن المكذبين، وبالتالي لم يكونوا ضمن المغرقين.

أما قول البعض بأن الطوفان كان عاماً، ويستدلون بوجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلاّ في الماء فوق الجبال وهذا يستدعي وجود طوفان غمر هذه الجبال، وهي في أماكن متفرقة من العالم، فإن هذا في الحقيقة دليل ضد عمومية الطوفان، فإن طوفان نوح عليه السلام – بفرض أنه عمَّ الأرض كلها – فقد دام مدة قصيرة قيل أربعين يوماً، وقيل ١٥٠ يوماً، وأكثر ما قيل سنة شمسية كاملة، وإن صعود الماء إلى الجبال هذه الفترة المحدودة، لا تكفي لتكوين أحياء مائية، إذ أن ذلك يستغرق آلاف وملايين السنين.

كما أن الماء الذى كوَّن الفيضان كان ماء عذباً. من مطر السماء وعيون الأرض. والأحياء التى وجدت بقاياها على قمم الجبال كانت بقايا لحياة بحرية لا تعيش إلاَّ فى المياه المالحة. ويؤكد الچيولوچيون أن تلك الرواسب إنما حدثت فى عصور قديمة ارتفع فيها سطح الماء فى البحار والمحيطات فغطى أجزاء كبيرة من اليابسة. ثم انخفض سطح البحر فى العصور الجليدية، فتكشفت الأرض وما بها من رواسب. وعلماء الچيولوچيا يقولون بتكرار ذلك عدة مرات. وهذا يفسر وجود تلك الرواسب فى عدة طبقات تمثل فترات ما بين العصور الجليدية.

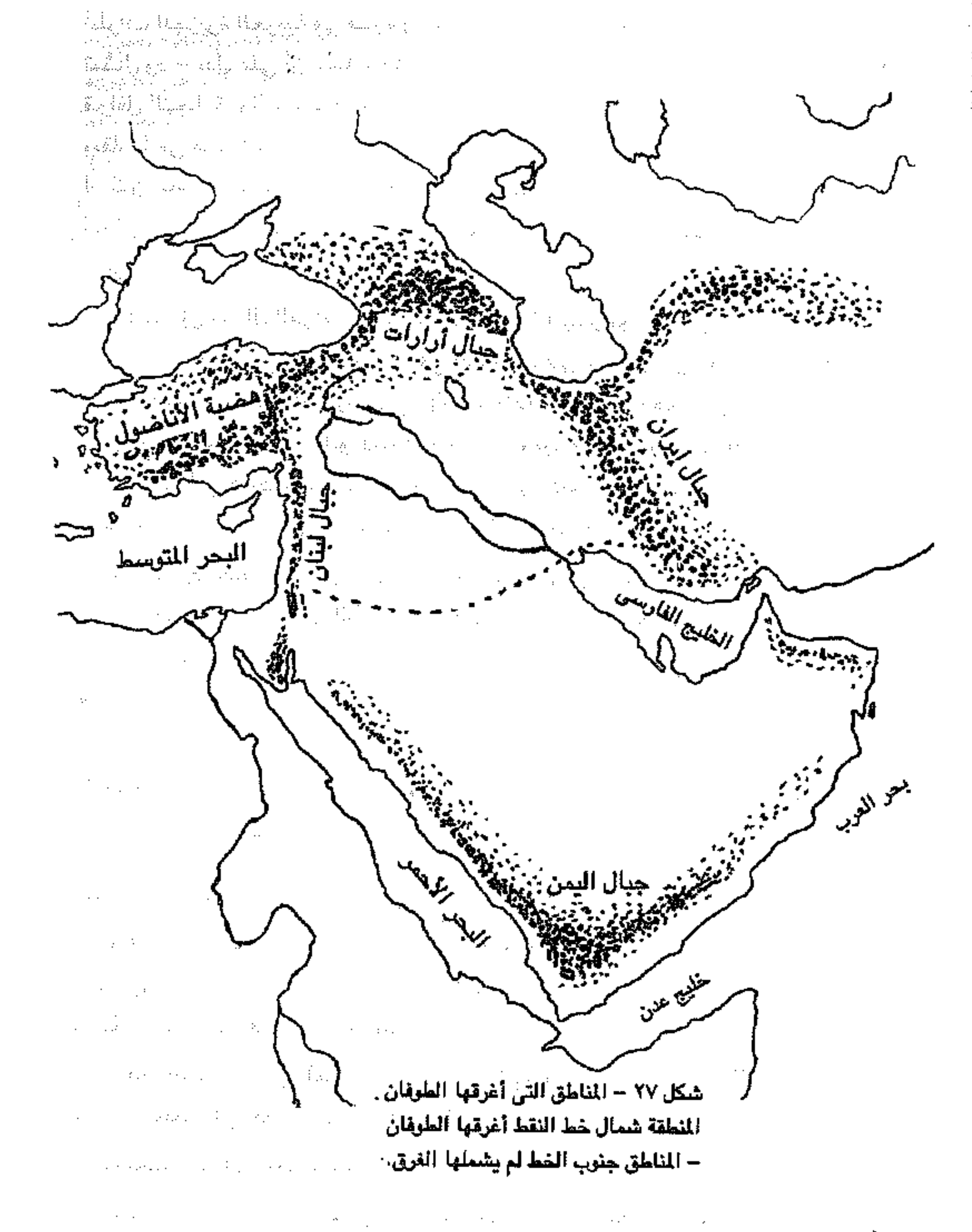
ولو قيل إن الطوفان كان عاماً، شمل اليابسة والبحار، فاختلطت مياه المحيطات بالمياه العذبة وانتقلت إليها الأحياء البحرية. ولو حدث ذلك لأصبحت الأراضى الزراعية مالحة لا تصلح للزراعة بعد الطوفان وهذا ما لم يحدث إذ تم إعمار الأرض وزراعتها بطريقة عادية بعد الطوفان.

لعل القائلين بعمومية الطوفان يظنون أن عموميته معجزة أكبر من كونه خاصاً.

ونقول إن الصيحة التى أُهلك بها قوم صالح كان من الممكن أن تبلغ كل أنحاء الأرض وتهلك الناس جميعاً. إلاَّ أن الله جعلها قاصرة على المكذبين من قوم صالح. أما المؤمنون، ولم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً فقد نجوا من الأثر المهلك لهذه الصيحة. وهذا فى حد ذاته معجزة أخرى.

كذلك فإن خصوصية الطوفان لا تقل إعجازاً عن عموميته. فإن الطوفان - وقد ارتفع فوق قمم الجبال بخمسة عشر ذراعاً وفى قول آخر بثمانين ذراعاً - فى المنطقة التى كان بها قوم نوح - وهى شمال العراق - وهى أصلاً مرتفعة كثيراً عن جنوبه بدليل جريان ماء دجلة والفرات من الشمال إلى الجنوب باندفاع شديد - ولو نظرنا إلى الخريطة شكل ٢٧ لتبين لنا أن الماء كان حرياً أن يغطى صحراء الجزيرة العربية كلها، ولو أخذنا بخصوصية الطوفان فلابد أن حافة المياه ناحية صحراء الشام وصحراء الجزيرة العربية كانت كالطود العظيم. بحيث أنها لم تغرق هذه الأمكنة - بدلاً من ذهاب المفسرين إلى أن البيت المعمور بمكة رفع على جبل أبى قبيس - كما جاء فى الطبرى - أو كما فى قول آخر - أن الله أمر جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة، وخبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس. ويرى آخرون أن البيت لم يكن مبنياً قبل أيام إبراهيم عليه السلام. وأن الروايات التى قالت بأن آدم قد نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا لآدم قد طفنا قبلك بهذا البيت. أو أن السفينة قد طافت به ودارت بالحرم أسبوعاً أو أربعين يوماً. فهى كلها مبالغات وخيالات، ولعلها مأخوذة عن بنى إسرائيل. ومع هذا فَيُحتمل أن يكون الطوفان قد شمل الجزيرة العربية، مع كل المناطق المحصورة بين الجبال الموضحة على الخريطة السابق الإشارة إليها.

وأضيف أيضاً، أن وجود عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً، فى بعض القبائل فى



شكل ٢٧ - المناطق التى أغرقها الطوفان.
المنطقة شمال خط النقط أغرقها الطوفان
- المناطق جنوب الخط لم يشملها الغرق.

أطراف الجزيرة العربية في فترة وجيزة بعد الطوفان - فقد وجد في دولة معين في اليمن تمثال ود - يدل على أن عبادة هذه الأصنام قد انتقلت من قوم نوح إلى البلدان عن طريق قوافل التجارة. ولما حدث الطوفان في العراق اندثرت عبادة هذه الأصنام (ود وسواع...). وبقاؤها في هذه القبائل العربية بعد الطوفان بفترة وجيزة تدل على أن الطوفان لم يشملها. إذ لو كان عاماً شمل كل الكرة الأرضية لزالت عبادة هذه الأصنام أيضا من اليمن، ومن غير المعقول أن تنشأ عبادة أصنام بنفس الأسماء القديمة من جديد بهذه الأماكن في فترة زمنية وجيزة.

كذلك فإن شمال العراق لم يكن به الأفيال ولا الجمل ذو السنامين ولا الزرافة ولا الكنغر. وبالطبع لم يحمل نوح معه أيًا منها في السفينة. فلو أن الطوفان قد عم جميع أنحاء الكرة الأرضية وبادت جميع الحيوانات إلاَّ التي حملها نوح معه - فمن أين وجد الفيل الحالي أو غيره من الحيوانات السابق ذكرها وغيرها. ومن غير المعقول أن العراق كان به جميع الحيوانات التي كانت موجودة على سطح الأرض. فنحن نعلم أنها أنواع تقدر بمئات الآلاف وحتى لو فرض جدلاً وأنها وجدت في العراق لما اتسعت السفينة لها جميعاً.

كذلك يرى جماعة من أهل فارس والهند. أن تاريخ المُلْك عندهم يمتد في الماضي إلى تواريخ بعيدة - إلى ما قبل التاريخ المحدد لطوفان نوح. وأن عُمرانهم متصل من أعمق أجيال إلى اليوم. كذلك فإن الأدب المصري القديم وهو دون شك من أدق الآداب في تدوينه - لم يذكر شيئا عن طوفان غمر أرض مصر ولا وُجدت حفريات تدل عليه.

لهذا كله. فمن المؤكد أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها. بل كان قاصرا على المنطقة التي عاش فيها قوم نوح، وبعض المناطق المجاورة، أما باقي بقاع الأرض فلم يشملها الطوفان. وهذا لا يقلّل من قدر المعجزة، بل لعله يزيد من إعجازها.

طوفان أم فيضان؟

هناك اتجاه عند بعض المثقفين لإرجاع المعجزات لأسباب طبيعية تماماً. فمثلاً يقولون إن إنشقاق البحر لموسى عليه السلام كان بسبب موجة جزر شديدة كشفت قاع البحر. أعقبها موجة مد كبيرة أغرقت فرعون وجيشه.

وقالوا أيضاً إن ثمود أهلكوا بصاعقة كهربائية مثل مانسمع عنه في الإذاعات من صواعق حارقة وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ١٥٧).

وسأذكر هنا الرد فيما يتعلق بالطوفان.

صحيح أن العراق كان يتعرض لفيضانات عالية، من نهري دجلة والفرات، تُغرق ضفتي النهر وتبيد مظاهر الحياة فيها. وليس ذلك «ضد» المعجزة كما قد يتوهم البعض، بل بالعكس

هو ما يؤيد الطوفان كمعجزة. فالمعروف أن المعجزات تكون مما برع فيه القوم وعرفوا أسراره. فإن معجزة موسى عليه السلام لم تكن نوعاً من السحر، لأن القوم عرفوا السحر وخبروه، وبرعوا فيه، حتى إنهم ليلقون حبالهم وعصيهم فيخيل للمشاهد أنها ثعابين تتلوى وتسعى، وما هى فى الحقيقة بذلك. لذلك لما ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هى تلقف وتبتلع حبالهم أدركوا أن هذه هى المعجزة الحقيقية - وآمنوا برب موسى. ولو أجرى أحد هؤلاء السحرة لعبته هذه أمام أناس ليس عندهم خبرة بالسحر، لظنوا أنه يأتى بمعجزة مؤيدة من الله عزَّ وجلَّ، ولآمنوا بما يدعو إليه من تأليه فرعون. وعلى ذلك فإن حدوث المعجزة من صنف ما خبره الناس دليل على خرق النواميس المعهودة وذلك لا يتم إلا بقدرة الله تعالى. ولن أطيل فى شرح أن معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم - وهى القرآن الكريم - كانت لقوم برعوا فى اللغة واتقنوا شعرها ونثرها. فلما جاءهم القرآن الكريم قالوا عنه ما هو بالشعر وما هو بالنثر. وأيقنوا أنه معجزة من الله رب العالمين.

ولو جئنا لأهل مصر - وقد تعودوا على نهر النيل الذى يجرى فى أرضهم هادئاً - إلاَّ من بعض فيضانات عالية بعض الشيء - أقول لو جئنا لأهل مصر بفيضان كبير مثل فيضانات نهرى دجلة والفرات أو المسيسيبى لاعتقدوا أنها معجزة. أما أهل العراق فهم قد خبروا الفيضانات العالية المدمرة لنهرى دجلة والفرات. وما كان ليفوت عليهم الاختلاف الواضح بين هذه الفيضانات ومعجزة الطوفان.

والفيضانات العالية تحدث عند هطول أمطار غزيرة على جبال منبع النهر، أو عند ذوبان الثلوج على قمم هذه الجبال، فيضيق مجرى النهر عن كمية المياه المتدفقة، فتندفع المياه بشدة. وتفيض على الجانبين وتمضى هادرة تكتسح فى طريقها كل ما تصادفه. ففى فيضان نهر يانجتسى فى الصين عام ١٩١١، دمر مدناً وقرى، وغطت مياهه آلاف الكيلو مترات المربعة من الأراضى الزراعية وفقد خمسة عشر ألفاً من الناس أرواحهم.

وفى عام ١٩٢٧ حدث أكبر فيضان فى وادى نهر المسيسيبى واكتسحت المياه الهادرة القرى والمدن، واقتلعت الخطوط الحديدية، وأطاحت بالكبارى المشيدة من الصلب. وها نحن نرى فى التليفزيون الفيضانات تدفع أمامها السيارات وتقلبها وترطمها بالصخور والأشجار.

فالفيضانات كلها عبارة عن مياة ضاقت عنها جوانب النهر، فطغت على جوانبه وتمضى مندفعة متسارعة تكتسح أمامها كل مظاهر الحياة. وقد لا ترتفع مياه الفيضان إلاَّ أمتاراً قليلة. إذ أن الصور التى أخذت لفيضان المسيسيبى - وهو من أشد الفيضانات - تُرينا قمم الأشجار ومداخن المنازل التى لم تتهدم. إذ أن أثر الفيضانات المدمرة ينتج عن شدة اندفاع المياه.

أما الطوفان فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً. أمطار غزيرة سقطت فى كل مكان كأنها أفواه

القرب. ولم يقتصر سقوطها على جبال منبع النهر، بل على كل أرض العراق شماله ووسطه وجنوبه وكذلك المناطق المجاورة. وتفجرت الأرض عن ينابيع وعيون يندفع منها الماء بقوة. وترتفع المياه أمتاراً كثيرة حتى لتغمر الأماكن المرتفعة ثم تزيد المياه فتغطى سفوح الجبال. ثم قممها وتعلو فوق قممها عدة أمتار. وليس هناك اندفاع المياه من الشمال إلى الجنوب كما فى مياه الفيضان شديدة الجريان – بل الماء فى كل مكان. صحيح أن الرياح قد تحدث أمواجاً عالية – وكما أخبر عنها القرآن الكريم «فى موج كالجبال» كما يحدث فى البحر أحياناً من أمواج عالية – ولكن ليس لها اندفاع مياه الفيضان. وما كانت سفينة نوح عليه السلام – أو أى سفينة أخرى – لتصمد أمام اندفاع المياه لو كان ما حدث فيضاناً. فقد رأينا فى فيضان المسيسيبى وغيره من الأنهار، كيف كانت المياه المندفعة تجرف السيارات وتقتلع الكبارى وتقذفها بعيداً محطمة. وكان حرياً أن تدفع المياه السفينة أمامها لترتطم بأى عائق وتتكسر أو تطيح بها فى الخليج أسفل النهر. ولكن مياه الطوفان، كانت ترتفع تدريجاً، فاحتملت السفينة وكلما ارتفعت المياه ارتفعت معها السفينة.

وتكتمل المعجزة بأن ترسو السفينة على الجودى، وهو أحد جبال أراراط فى أقصى شمال العراق. ويستحيل على فيضان أن يدفع سفينة فى عكس اتجاه مياهه، وكأن مكان رُسُوٌ السفينة فى أقصى الشمال كان مقدراً ليدحض أى تفكير فى أن ما حدث هو فيضان من فيضانات نهرى دجلة والفرات. وأنه فقط فاقها فى الشدة.

وقد تبنى بعض المستشرقين ما ترويه الأسطورة السومرية عن الطوفان، من أن السفينة قد رست فى أرض دلمون. وقالوا إن أرض دلمون هذه تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس – أى الجزء الشرقى من ساحل الخليج، ومنهم من قال إنها فى منطقة وادى السند، ومنهم من رأى أنها تقع فى جنوب غرب بابل – ومنهم من قال إنها تقع فى القسم الشرقى من جزيرة العرب، أو قرب جزيرة البحرين الحالية. ولعلهم تبنوا هذه المواقع لاعتناقهم فكرة فيضان دفع السفينة جنوباً، فى حين أنهم لو قالوا برسو السفينة على جبال أراراط لوجب إيمانهم بطوفان معجزة وهو مالا يريدون الاعتراف به.

أما عن الخلاف فى الاسم فى مرسى السفينة – حيث جاء فى القرآن الكريم **«واستوت على الجودى»**. (٤٤ – هود)

وجاء فى التوراة (تكوين ٨ : ٤): واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرارط.

وحاول البعض إظهار تعارض بين النصين السابقين. وأراراط هى سلسلة جبال فى أرمينيا أو هى أرمينيا ذاتها كما جاءت فى المعجم العبرى. ومن هذا يفهم أن التوراة لم تسم مكاناً بعينه لرسو السفينة. بل حددت أنها رست فى أرمينية. وسلسلة الجبال تحتوى على عدد من

القمم، وقيل إن إحدى هذه القمم اسمه الجودى وهو الذى ورد بالقرآن الكريم فلا تعارض إذن بين النصَّين..

ويقول الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٢٤) إن الجودى مشتق من الجُدُّ – وهو يعنى شاطىء النهر أو ساحل البحر ومنه الميناء المشهور جُدَّة بالمملكة السعودية أى أن الجودى يعنى المرسى وليس اسم مكان بعينه وقوله تعالى: «**باسم الله مجراها ومرساها**». أى باسم الله حملها على الماء وباسم الله رسوها على الأرض أى على الشاطىء أى رسوها على الجودى.

وبالرجوع إلى القاموس المحيط نجد أن الجُدُّ مشتقه من «جَدُّ وجُدُدُ» – أما الجودى فهى مشتقه من «جُودُ» وهو العطاء. وعلى ذلك فالأرجح هو أن الجودى هو اسم قمة جبل فى سلسلة جبال أراراط فى أرمينيا شرق تركيا وشمال العراق.

الحفريات الأثرية والطوفان :

لسنا فى حاجة – بعد ما ورد فى القرآن الكريم عن الطوفان – لأدلة أثرية تثبت حدوثه والحفريات التى قامت بها – ولا تزال تقوم بها – بعثات الآثار فى جنوب العراق ووسطه، كشفت عن شواهد تدل على حدوث طوفان عظيم شمل هذه المناطق، كذلك عُثِرَ على ألواح بها كتابات تحكى قصة الطوفان – العظيم – فى أكثر من مكان أثرى. وتختلف الروايات عن بعضها . فقد أدخلت عليها الخرافات. ونسبها كل شعب إلى نفسه وزعم أن بطلها كان فرداً من أبنائه.

وكان الاعتقاد السائد أواخر القرن الماضى أن التوراة هى أقدم مصدر لقصة الطوفان. ولكن اكتشاف هذه الألواح والكتابات غيَّر هذه الفكرة. فقد عثر فى عام ١٨٥٣ ميلادية على نسخة من رواية الطوفان البابلية، وفى الفترة ما بين عامى ١٨٨٩ و ١٩٠٠م اكتشفت بعثة أمريكية اللوح الذى يحتوى على القصة السومرية للطوفان، والتى يعتقد أنها كتبت فى عهد الملك الشهير حمورابى عام ١٨٠٠ ق.م. ومن المؤكد أن القصة نفسها ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير، وبهذا اتضح أن هذه القصص أقدم من العصور التى دُوِّنت فيها التوراة. وأن كُتَّاب التوراة فى ذلك الوقت قد تأثروا بما جاء فى قصص الطوفان القديمة. فأضافوا – كثيراً من التفاصيل والمبالغات التى تصل إلى حدود خيالية – أضافوها إلى القصة الحقيقية كما أنزلت على موسى عليه السلام، فخلطوا بينها وبين ما جاء فى التوراة – وخاصة أن التوراة كما يقول هـ . ج ويلز، قد جُمعت لأول مرة فى بابل، أثناء السبى، ويُقَدِّم، كثير من العلماء أدلة على تأثير الأدب البابلى فى التوراة. كما أن آخرين يرون أن التأثر بالأدب البابلى قد حدث قبل ذلك بكثير أثناء فترات اتصال الإسرائيليين بالأشوريين.

ثم جاء القرآن الكريم – ليقول قولة الحق فى هذا الصدد – وليرد القصة إلى أصلها الإيمانى ويتجاوز عن التفاصيل التى لا تخدم القضية الإيمانية ويركز الضوء على تكرار دعوة نوح عليه السلام لقومه ورفضهم دعوته وإيذائه ثم تحديه. فكان لابد من طوفان يبيد هذه الطغمة الكافرة.

وسأحاول فى الصفحات القليلة التالية ذكر ما وجد من آثار على حدوث الطوفان العظيم وتلخيص ما كتب عنه من قصص وما بينها من اختلافات.

١ – سبق أن ذكرنا أن قابيل وبعضاً من أبناء آدم هاجروا شرقاً، حتى وصلوا جنوب العراق. حيث وجدوا الأرض الخصبة والصالحة للزراعة لوفرة المياه، فاستقروا بها. وكان ذلك **فى بلدة عبيد** أو تل العبيد وسميت الحضارة التى أنشأوها حضارة العبيد. وقد وُجدت من آثارهم أوانى فخارية، وكانوا من المهارة بحيث صنعوا بعضها رقيقاً للغاية، وزُوِّد بعضها بمقابض. وزينوا سطحها الخارجي بنقوش ملونة بألوان حمراء وسمراء تمثل طيوراً وحيوانات وأسماكاً.

وفى بلدة مجاورة – هى **بلدة إريدو** أنشئ معبد للمعبود «إنكى» وكانوا يبنون المعابد فوق مسطحات مرتفعة تسمى «زقورات». وكانت هذه المنطقة من أرض العراق تتعرض لفيضان نهرى دجلة والفرات ولعل ذلك هو السبب فى أنهم تخيلوا رباً للمياه العذبة هو المعبود إنكى كان يُعبد فى إريدو وأور.

وقد عثر أحد الأثريين – سير ليونارد وولى – فى حفائره فى أور عام ١٩٢٩. على طبقة سميكة من الغرين السميك الذى يقدر بحوالى ثمانية أقدام – وستة عشر قدماً فى بعض المناطق – واعتبر ذلك دليلاً على حدوث الطوفان العظيم نظراً لكثافة تلك الطبقة. وتقع فوق آثار تنتمى إلى عصر حضارة العبيد.

٢ – كذلك سبق أن قلنا إن الهجرات واصلت سيرها شمالاً، إلى **بلدة أورك** وهى بلدة الوركاء الحالية وأنشأت حضارة الوركاء. وكان الأهالى أيضاً وثنيين، وكانوا يقدسون «إنانا» أو «إن إن» ربة الزهرة إبنة المعبود «آنو» وزوجته. وكانت الأراضى الزراعية من الوفرة بحيث نشأت عدة قرى أخرى، واتسع العمران اتساعاً نسبياً. وبنوا المعابد. وصوَّر النحاتون والرسامون كهنة معابدهم قصار الشعور وحليقى الشوارب واللحى.

وفى الشمال نشأت بلدة **كيش وشوروباك**. وفى هاتين البلدتين وجدت طبقة غرينية سميكة تدل على طوفان كبير.

٣ – كذلك وجدت **وثيقة** تقول بأن الملكية نزلت من السماء فى بلدة **إريدو** وتذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا، ثم جاء من بعدهم الطوفان الذى أغرق الأرض، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى كيش ثم فى أوروك.

٤ – قصة الطوفان السومرية:

بعد الطوفان انتشر أبناء نوح عليه السلام فى أرض العراق. ومن ولد كنعان بن حام ابن يسمى الصمارى Summrai ومن المحتمل أن السومريين Sumerians ينتسبون إليه ومن ذريته – وارتحلوا جنوباً حتى وصلوا إلى الجزء الأسفل من أراضى ما بين النهرين وكانت بالطبع خالية من السكان بفعل الطوفان فسكنوها، وبمرور الزمن نسوا التوحيد الذى أتى به نوح عليه السلام. وتخيل السومريون أرباباً وصوروهم على هيئات بشرية بلحى كثة وشعور طويلة معقوفة من الخلف، وشيَّدوا لها المعابد وكانت بداية الأسرات السومرية حوالى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد. وتقدمت حضارتهم. وفى أول الأمر استخدموا الصور فى كتاباتهم (شأنهم فى ذلك شأن الكتابة المصرية القديمة فى بداية ظهورها) فكان رسم الذراع يعبر عن القوة ورسم القدم يعبر عن المشى. وتطورت الكتابة وتم تبسيطها وكانوا يكتبونها فى أنهر رأسية يفصل كل نهر منها وآخر خط رأسى. وكانت الحروف على هيئة خطوط طولية لها رأس أعلاها يختلف باختلاف الحرف وكانت فى شكلها العام تشبه المسمار لذلك سميت بالكتابة المسمارية كما أنها كانت تكتب على ألواح من الطين بقلم مثل المسمار. وكانت اللوحات الهامة منها تحرق فى الأفران، لزيادة صلابتها وحفظها. ثم بدأت تظهر الكتابة على الحجر فى بعض الجهات.

وقد وجد لوح به كتابة تشير إلى حدوث طوفان عظيم، ولكنها ممزوجة بأسطورة عن الآلهة التى كانت تعبد آنذاك. وحتى هذا اللوح قد فقدت منه المقدمة ولم يبق منه إلاَّ ثلثه الأخير مكتوباً فى مائة سطر تتخللها أجزاء كثيرة ممسوحة – إلاَّ أن ما تبقى يقدم لنا الخطوط الرئيسية للقصة السومرية عن الطوفان كما يلى:

تبدأ أسطورة الطوفان السومرية بقرار الآلهة إهلاك البشر فتقول على لسان كبير الآلهة: إن البشر عبادى، وعن الهلاك المحيق بهم سأعمل، سأعيد مخلوقاتى، أما المدن فحقاً سوف يبنون فيها لأنفسهم أماكن للشرائع الإلهية. وسأجعل ظلالها فى سلام، وأما عن بيوتنا (أى دور العبادة) فسوف يضعون آجرها فى أماكن طاهرة. ثم تذكر القصة بدء الخليقة، بأن الآلهة «أنو» و«إنليل» و«نينورساج» قد خلقوا البشر. ثم ازدهر الزرع فى الأرض وأخرجت الآلهة الحيوانات ومخلوقات السهول ذوات الأربع إلى الوجود. ثم أنزلت الملكية من السماء وأنزل الإله تيارا المعظم عرش الملك من السماء وأكمل الشعائر والشرائع الإلهية. وأسس المدن الخمس

وهى إريدو – بادتيبيرا – سيبار – لاراك – شورو ياك. وهذه المدن الخمس تقع فى النصف الجنوبى من أراضى ما بين النهرين (شكل ٢٨).

ثم كان قرار الآلهة بإغراق البشر بالطوفان. فبكت «نينتو» وناحت «إنانا» الطاهرة من أجل أناسها ثم قام الملك زيوسودرا وبنى معبداً ضخماً للآلهة – وظل واقفاً فيه متواضعاً فى احترام حاضراً كل يوم ناطقاً اسم الإله الأكبر، فسمع من يقول له: قف عند الحائط، إلى جانبى الأيسر وعند الحائط سوف ألقى إليك كلمتى. اسمع إلى تعليماتى بقضائنا. طوفاناً سوف يكتسح المدن ويقضى على بذرة الشر. ذلك قرار. إنها كلمة مجلس الآلهة بناء على الكلمة التى أمر بها «آنو» و«إنليل». ثم عدة أسطر مهشمة لابد كان فيها أمر الآلهة لـ زيوسودرا ببناء سفينة هائلة ليأخذ فيها البشر الذين قررت الآلهة نجاتهم. وكذلك الحيوانات وطريقة بناء السفينة وأبعادها. فقد كان عدد السطور المهشمة يبلغ ٤٠ سطراً. ثم تقول بعد ذلك: وهبت جميع الزوابع بعنف وضراوة كقوة واحدة. بعد ذلك لمدة سبعة أيام وسبع ليال واكتسح الطوفان الأرض وتقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه المتلاطمة. واكتسح الطوفان كل شىء حتى مراكز العبادة.

وعن انتهاء الطوفان تقول: وظهر «أوتو» الذى يضيئ السماء والأرض. وفتح زيوسودرا نافذة الفلك العظيم فأنفذ أوتو أشعته فى الفلك العظيم. ونادى «آنو» و«إنليل» نسمة السماء ونسمة الأرض فبسطت نفسها. ورست السفينة فى أرض دلمون وضحى الملك بفحل وشاة وسجد زيوسودرا أمام «آنو» و«إنليل» ورضى «آنو» و«إنليل» عن زيوسودرا الملك الذى حافظ على الزرع وبذرة البشر، وبنى معبداً ضخماً للرب. ثم تذكر الأسطورة كيف نفثت الآلهة روح الخلود فى زيوسودرا.

٥ – كذلك كان من أبناء كنعان بن حام بن نوح ولد اسمه الأمورى. ومن المرجح أن الأموريين ينتسبون إليه ومن ذريته. وقد استوطنوا الجزء الأوسط من أرض العراق واتخذوا عاصمتهم فى بابل. ثم انتقلت العاصمة فى العصر الأشورى إلى نينوى. وقد عثر فى مكتبة آشوربانيبال الشهيرة فى نينوى على نسخة من ملحمة **جلجاميش**.

وكذلك وجد أحد العلماء (سيدنى سميث) على الملحمة مكتوبة على ١٢ لوحاً، ويحتوى اللوح الحادى عشر على قصة الطوفان.

وجلجاميش هو خامس ملوك مدينة الوركاء فى العصر السومرى، وكان يحكم فى تاريخ يقرب من ٢٧٠٠ ق . م. وقد اشتهر جلجاميش فى آداب العراق القديم وصار موضوعاً لعدة ملاحم سومرية وبابلية أشهرها قصة الطوفان. وإن كان الطوفان لم يحدث لجلجاميش نفسه. بل إن جده أوتنابيشتم أخبره عنه. والقصة هكذا :

نينوى
(ملحمة جلجاميش)
أشور
(لوح مهشم)
سيبار
(طبقة غرين) كيش
نيبور
بابل (قصة الطوفان البابلية)
سومر (قصة الطوفان السومرية)
أورك (شورورباك)
عبيد
أور
طبقات غرينية سميكة
إريدو
(وثيقة الملكية)

شكل ٢٨ - بعض المدن التى وجدت بها حفريات أو قصص عن الطوفان.

كان جلجاميش ملكاً حكيماً واسع المعرفة شجاعاً جريئا ولكنه كان ظالماً مستبداً. ومن ثم فإن الآلهة خلقت له «إنكيدو» ليدافع عن الناس ضد ظلمه. وظل الصراع محتدماً ثم تم الصلح بينهما. ثم مات إنكيدو فجأة فحزن جلجاميش لفقده. وظل خائفاً يترقب الموت أيضاً. ثم بدأ يفكر في وسيلة يتقي بها غائلة الموت وبدأ يبحث عن جده أوتنابيشتم – الذى كانت الآلهة قد رفعته إلى مصافها وجعلته يسكن بعيداً – متمتعاً بنعمة الخلود. ويتحمل جلجاميش الصعاب والمخاطر والأهوال. ثم يعبر بحراً مترامي الأطراف، حتى يصل إلى جده أوتنابيشتم الذى أطلعه على السر الذى استحق من أجله الخلود فقال :

انتوت الآلهة إحداث الطوفان – وكان من بينهم «آنو» و «إنليل» و «نينورتا» و «إيتوجى» و «نينجيكو – أيا» ثم نادت الآلهة على أوتنابيشتم وامرأته: اهدم هذا البيت (بيته) وابن فلكاً. دع الأملاك وانقذ حياتك. اهجر المتاع، ودع الروح حية. واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيىء حى. والفلك التى ستبنيها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس عرضها مثل طولها. واجعل لها سقفاً. ففهمت. وقلت: نعم يا مولاى. إن ما تأمر به يشرفنى أن أنفذه.

وفى اليوم الخامس أقمت السفينة. وكانت أرضيتها فداناً كاملاً. وكان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعاً وطول كل ضلع من السطح ١٢٠ ذراعاً وبنيت هيكل جوانبها وربطتها إلى بعضها، وجعلت فيها ستة أسطح، قسمتها إلى سبعة طوابق، وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء، ودققت سدادات المياه بها. وجهزتها بما تحتاج إليه من مؤن، وصببت فى الفرن ٦ سار (السار ٨٠٠ جالون) من القار و ٣ سار من الأسفلت و٣ سار من الزيت. وذبحت ثيراناً للناس ونحرت ماشية كل يوم، وأعطيت العمال عصير فواكه ونبيذاً أحمر وآخر أبيض.

واكتمل الفلك فى اليوم السابع، وكان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة، وحمَّلته بكل ما عندى من فضة وذهب، وكل ما أملك من الكائنات الحية، وكل عائلتى وذوى قرباى أركبتهم الفلك، وكذلك حيوان الحقل ووحوش الحقل، وقد حدد لى الإله وقتاً معيناً.

وجاء اليوم الموعود وأنزل الموكل بالزوابع ليلاً مطراً مهلكاً وأخذت أرقب وجه السماء. وكان منظر العاصفة مخيفاً يثير الرعب، فصعدت إلى الفلك، وأوصدت بابه، ومع انبثاق الفجر ظهرت فى السماء غمامة سوداء، وأرعد «أداد» فى داخلها، ونزع «إيرجال» (إله العالم السفلى) الأعمدة الخاصة بسد العالم، وجاءت «نينورتا» (إلهة مياه الأعماق) وجعلت السدود تفيض. وهبت عاصفة الجنوب. وأحال «إداد» النور ظلمة، فلا يرى الأخ أخاه. وخشى الآلهة من الطوفان أجفلوا، وصعدوا إلى سماء «آنو» (وهى أعلى سماء) حيث ربضوا على الأسوار الخارجية. وصرخت «عشتار» وكأنها امرأة جاءها المخاض، وناحت سيدة الآلهة بصوت عال: واحسرتاه لأنى لعنت الناس فى مجمع الآلهة، ولكن كيف ألعن الناس فى مجلس الآلهة وأعلن حرباً لفناء الناس بينما أنا التى وهبتهم الحياة! وبكى «أنوناكى» معها. وجلس الآلهة جميعاً يبكون فى ذلة وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض.

واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليالى. وفى اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التى شنتها. وهدأ البحر. وسكنت العاصفة، وتوقف الطوفان. وتطلعتُ إلى الجو، فإذا السكون شامل. ففتحت كوة وسقط الضوء على وجهى. واستوت الفلك على جبل نيصير. وأمسك جبل نيصير بالفلك ولم يدعها تتحرك ستة أيام. وفى اليوم السابع أطلقتُ حمامة فذهبت وعادت، وعز عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه، ثم أطلقت غراباً فذهب ورأى الماء، يتناقص فأكل وعبَّ ودار ولم يعد، فأطلقت الجميع.

وضحيت، ونصبت أربعة قدور، وعليها كوِّمت القصب وخشب الأرز والأس. فشمت الآلهة الرائحة الزكية وتكأكأت حول الأضاحى. وعندما وصلت سيدة الآلهة «عشتار» قالت: أيتها الآلهة. سوف أذكر هذه الأيام ولن أنساها. ليتقدم الآلهة إلى القربان إلاَّ «إنليل» فإنه لا يتقدم لأنه أحدث الطوفان دون روية، وقاد شعبى إلى التهلكة. وقال نينورتا لإنليل أنت يا أحكم الآلهة. كيف تُحدِث الطوفان دون رويَّة. ليت أسداً هب وقلل من بنى الإنسان بدلاً من إحداث الطوفان. ليت مجاعة هبت وقللت من بنى الإنسان بدلاً من إحداث الطوفان. ليت طاعوناً هبَّ وقلل من بنى الإنسان، بدلاً من إحداث الطوفان!

وعندئذ صعد «إنليل» إلى ظهر السفين وأمسك بيدى، وأخذ زوجتى وجعلها تركع بجانبى ووقف بيننا ليباركنا وقال: لم يعد أوتنابيشتم بشراً. سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب. وعلى ذلك أخذونى بعيداً وأسكنونى بعيداً عند مصب الأنهار.

٥ - قصة الطوفان البابلية :

كتب بيروسوس، أحد كهنة الإله مردوخ، تاريخ بلاده (العراق)، باللغة اليونانية فى ثلاثة أجزاء منذ بدء الخليقة حتى أيامه - وكان ذلك فى عهد الملك البابلى أنتوخوس الأول (٢٨٠ - ٢٦١ ق . م) وقد ضاع ذلك الكتاب، وإنما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه كُتَّاب عاشوا فى القرن الأول قبل الميلاد.

وقد قَسَّم تاريخ العراق إلى: دول قبل الطوفان وعدد ملوكها ١٠ وكانت سنو حكمهم ٤٣٢٠٠٠ سنة. ودول بعد الطوفان وعدد ملوكها ٨٦ حكمت لمدة ٣٤٠٨٠٠ سنة. ثم ذكر دولة مادى ودولة الكلدان. ثم حمورابى. ثم دولة الأشوريين.

وقد انتقد المؤرخون القسم الأول من هذا الجدول لما فيه من مبالغات خرافية فى طول سنى الحكم وفى رأينا أن تصحيحه يكون على النحو التالى :

دول قبل الطوفان عدد الملوك ١٦ وسنو الحكم ٤٣٢٠ المتوسط ٢٧٠.

دول بعد الطوفان عدد الملوك ١٦ وسنو الحكم ٣٤٠٨ المتوسط ٢١٣.

فيكون متوسط سنى الحكم فى حدود المعقول بالنسبة لما قيل عن أعمار الناس فى ذلك

الوقت. وما يهمنا هنا هو إقراره بوجود طوفان. ولابد أنه كان طوفاناً عظيماً بحيث قسم تاريخ بلاده إلى دول قبله ودول بعده.

وتقول قصة الطوفان البابلية إن الملك إكسيسوثروس رأى أن الإله «كروتوس» يحذره من طوفان سوف يغمر الأرض ويهلك الحرث والنسل. ومن ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها وأن يدفن ما يكتبه في مدينة سيبار بلد الشمس حتى لا يضيع في الطوفان الذي سيدمر كل شئ.

كما أمره أن يبنى فُلكا. ويصدع الملك بأمر إلهه ويبنى فلكاً طوله ١٢٠٠ ياردة وعرضه ٤٤٠ ياردة، يجمع فيه كل أقربائه وأصحابه. ويختزن فيه زاداً من اللحم والشراب. فضلاً عن الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع.

ويغُرق الطوفان الأرض. ثم تبدأ المياه في الانحسار ويطلق الملك سراح بعض الطيور التي تعود إليه ثانية. ثم يُطلقها بعد أيام، فإذا بها تعود وأرجلها ملطخة بالطين. وحين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك. ويعلم أن الماء قد انحسر عن الأرض. وتستقر السفينة عند جبل تخبره الآلهة أنها أرض أرمينيا. وينزل الملك وزوجته، ويسجد للآلهة ويقدم لها القرابين. وتختاره الآلهة لكي يسكن إلى جوارها.

٦ – اكتُشفِ في مدينة نيبور أثناء عمليات حفر – رواية مكتوبة على كسرة من الفخار يرجع تاريخها إلى عام ٢١٠٠ ق . م. وجاء فيها، أن الإله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى. وطلب من شخص بعينه أن يبنى فلكاً ذا سقف قوى لينجو بحياته وأن يأخذ معه صنوف الحيوانات الأليفة وطيور السماء.

٧ – وجدت قصة الطوفان أيضاً مكتوبة على لوح مهشم في مدينة سيبار. ويرجع تاريخ الكتابة إلى العام ١٩٦٦ ق . م . تقريباً. وفيها إشارة إلى المطر الغزير وإلى السفينة التى أُمر الملك في شورباك ببنائها وإلى الأفراد الذين أُنقذوا من الطوفان بواسطة الفلك.

واضح مما سبق أن جميع هذه القصص مستقاة مما حدث لنوح عليه السلام: طوفان عظيم أغرق الكافرين والمكذبين. وسفينة عظيمة نجا بها نوح والمؤمنون، وأخذ فيها الحيوانات والطيور التى كانت في هذه المنطقة.

وعندما انتشر أبناء نوح في الأرض بعد الطوفان أسسوا قبائل ومدناً وممالك. وراحت كل دولة تنسج قصة طوفان خاص بها، وتنسب الأحداث إلى آلهتها وإلى بطل من أبنائها. وهكذا ظهرت هذه الروايات المختلفة عن الطوفان وملأت أدب هذه المنطقة في ذلك الوقت.

وجاء موسى عليه السلام فيما بعد – وأنزلت عليه التوارة، ولابد أن نزل بها ما يُنقِّي قصة

الطوفان مما شابها من خرافات وزيادات، وحينما دُمِّر الهيكل، ضاعت التوراة الأصلية، وأعاد اليهود كتابتها فى أثناء السبى البابلى متأثرين بما قرأوه فى الأدب السومرى والبابلى عن الطوفان، فجاءت قصة الطوفان فى التوراة مزيجاً من الحقيقة والأساطير التى تضمنتها الرواية السومرية والبابلية عن الطوفان.

٨ – قصة الطوفان كما جاءت فى التوراة:

سنذكر هنا قصة الطوفان كما وردت فى العهد القديم وهو التوراة – الإصحاح ٦، ٧، ٨ – تكوين:

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب. فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامى. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه، وتصنع كوا (نافذة) للفلك، وتكمله إلى حد ذراع من فوق، وتضع باب الفلك فى جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما فى الأرض يموت. ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كلٍّ تُدخِل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كلٍّ تُدخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك، فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل.

الإصحاح السابع (مع بعض الإختصار): وقال الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك. لأنى إياك رأيت باراً لدى. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء أيضاً سبعة ذكرا وأنثى. ومن كل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة أيام الأولى أن مياه الطوفان صارت على الأرض. وانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم. وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى

الفلك، هم وكل الوحوش كأجناسها، وكل البهائم كأجناسها. وكل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها، كل عصفور كل ذى جناح. ودخلت إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من ذى جسد. كما امره الله. وأغلق الرب عليه.

نلاحظ هنا الاستطراد والتكرار فى بيان أصناف الحيوانات فى حين أن القرآن الكريم أجمل ذلك كله فى قوله تعالى: «وقلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين».

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك. فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض. فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء. خمسة عشر ذراعاً فى الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض، من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما فى أنفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض: الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقَّى نوح والذين معه فى الفلك فقط وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً.

الإصحاح الثامن: ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك. وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفى العاشر فى أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.

وتطيل التوراة فى كيفية التأكد من انتهاء الطوفان وأن اليابسة قد جفت وأصبح من الممكن النزول من السفينة فتقول: وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التى كان عملها. وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلَّت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها. فرجعت إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً. وكان فى السنة الواحدة والست مائة فى الشهر الأول فى أول الشهر أن المياه نشفت من الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر

جفت الأرض. وكلم الله نوحاً قائلاً. اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بيتك معك. وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد، الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الأرض أخرجها معك. ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بيته معه. وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.

وسبق أن أشرنا إلى أنَّ القرآن الكريم قد اختصر ذلك كله فى قوله تعالى:

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك». (٤٨ - هود).

وتستمر التوراة فتقول :

وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حى كما فعلت. مدة كل أيام الأرض، زرع وحصاد، وبرد وحر، وصيف وشتاء، ونهار وليل لا تزال.

ويارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء. مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم. كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه... فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا فى الأرض وتكاثروا فيها.

وتختتم التوراة قصة الطوفان بحكاية الميثاق الذى أخذه الرب على نفسه بعدم تكرار الطوفان. وهو ما سبق ذكره فى ص ١٠٢.

ونلاحظ فى سرد التوراة لقصة الطوفان تفاصيل كثيرة تتشابه مع ماورد بقصة الطوفان فى ملحمة جلجاميش. نذكر منها:

- سبب الطوفان رغبة الآلهة وليس تكذيب قوم لنبيهم.
- أبعاد السفينة وتحديدها بالأذرع.
- طلى السفينة بالقار.
- إرسال الحمامة والغراب عدة مرات للتأكد من صلاح اليابسة للنزول.
- إقامة مذبح للرب.
- ارتياح الآلهة ورضا الرب عند تنسُّم رائحة القرابين والدخان المتصاعد من المحرقات ونحن نُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن ذلك. ويرد القرآن الكريم زعمهم هذا: **«لن ينال الله لحومها ولا دماؤها»**. (من الآية ٣٧ - الحج).

أخبار عن نوح عليه السلام :

ونختم قصة الطوفان ونوح عليه السلام بأخبار عن نوح نفسه.

قال الله عنه: **«إنه كان عبداً شكوراً»**. (من الآية ٣ - الإسراء).

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله. والشكر شيمة عباد الله الصالحين. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الآكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

وقال ابن ماجة عن صيام نوح عليه السلام: حدثنا بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن أبي لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس، أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صام نوح الدهر إلاً يوم عيد الفطر ويوم الأضحى.

وقال الطبراني عن آخرين أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى. وصام داوود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع، وحدثنا أبي عن زمعة وهو ابن أبي صالح عن مسلمة بن دهران، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتى وادي عسفان قال: يا أبا بكر، أي واد هذا؟ قال هذا وادي عسفان. قال لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران (النوق الفتية) لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء، وأرديتهم النمار (برود من صوف) يحجون البيت العتيق. قال ابن كثير فيه غرابة.

ولعل غرابته هي في أن البيت الحرام بمكة لم يكن قد بني بعد في عهد نوح عليه السلام.

وقال الإمام أحمد عن آخرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك وصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلاً الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلاّ الله في كفه رجحت بهن لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، ضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شئ وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر. يقول ابن كثير، وإسناده صحيح ورواه أبو القاسم الطبراني عن طريق آخر. وكذلك رواه أبو بكر البزار عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

ويقول أهل الكتاب إن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ٦٠٠ سنة وعاش نوح بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فكانت كل أيام نوح ٩٥٠ سنة.

بعضهم يرى أن قول القرآن الكريم **«فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً»**. (١٤ - العنكبوت). تعنى أن هذه المدة كلها كانت قبل الطوفان

وبعضهم قال عن ابن عباس أن نوحاً بُعث وعمره ٤٨٠ سنة ولبث يدعو قومه ٩٥٠ سنة وعاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فيكون كل عمره ١٧٨٠ سنة.

ولعل فى هذا مبالغة والأرجح أن قوله تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. تشمل الفترة قبل البعثة وبعدها وقبل الطوفان وبعده أى كل عمره هو ٩٥٠ سنة.

وأما قبره عليه السلام فبعضهم قال ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك. وادعى ابن جرير عن عبد الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. ويضعف هذا القول أن المسجد الحرام لم يكن قد بنى فى أيام نوح عليه السلام.

أبنـاء نـوح عليه السلام

بنهاية قصة نوح عليه السلام، تقفز كل كتب قصص الأنبياء إلى قصة هود عليه السلام، كقصة منفصلة، ولا تذكر شيئاً عن الرابطة بينهما. لا جغرافيا ولا تاريخيا ولا كيف وصل الناس من مكان إقامتهم بعد الطوفان إلى المكان الذى وُجد به قوم هود. مع أن تاريخ البشرية حلقات متصلة، تتبع بعضها بعضاً. لهذا كان من الواجب إضافة هذا الباب عن أبناء نوح، يربط بين نوح وهود وصالح عليهم السلام، كما سبق أن أدرجنا بابا عن أبناء آدم، ربط بين آدم وإدريس عليهما السلام.

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم، ثم يمسهم منًا عذاب أليم». (٤٨ – هود)

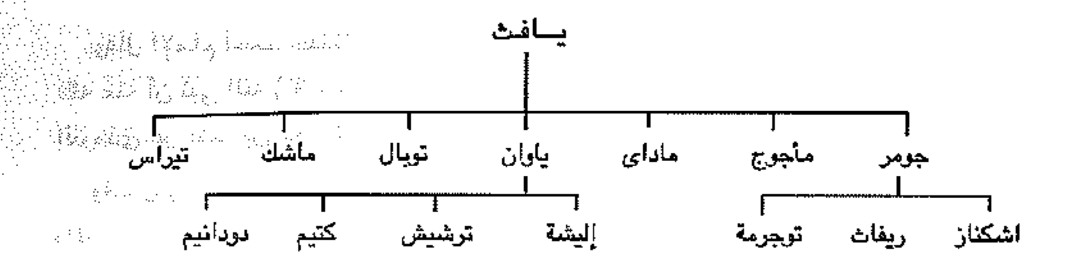
«وجعلنا ذريته هم الباقين». (٧٧ – الصافات)

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وأن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم، فإنهم بقوا متناسلين حتى ملأوا الأرض. ويوافقه فى ذلك كثيرون ويرون أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل عنه «آدم الثانى».

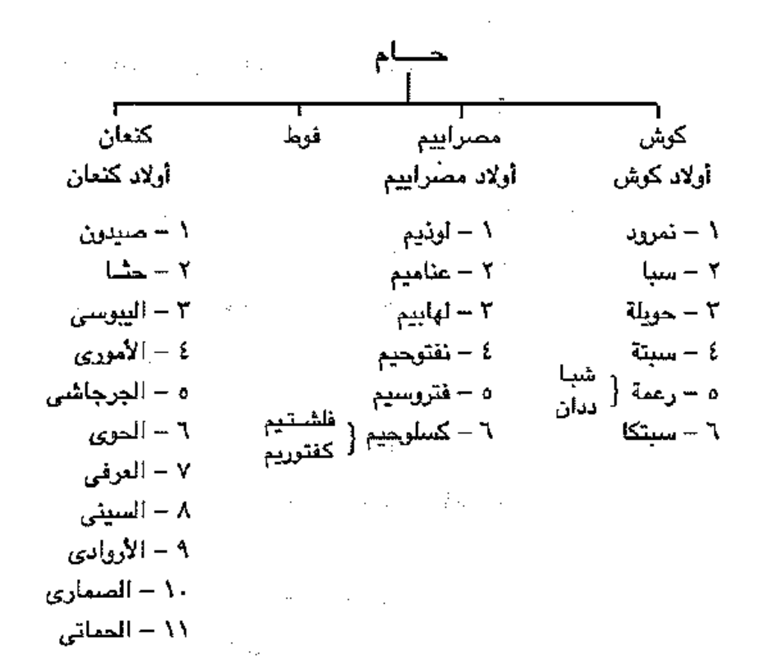
والرأى عندى أنه – وقد قَبِلنَا أن الطوفان كان خاصا، وقد عَّم العراق والشام وساحل البحر المتوسط أى مكان فلسطين ولبنان حاليا، وشمل أيضاً جزءاً من الجزيرة العربية – فإن باقى بقاع الأرض لم يغمرها الطوفان وظلت عامرة بسكانها. ومن هذه الأماكن المؤكَّدة مصر وفارس والهند وقد سبق الإشارة إلى أن تسجيل هاتين الدولتين لتاريخهما لم يتبين منه طوفان غمرهما. وكذلك فإن وسط وجنوب شرق آسيا ظل بها سكانها الأصليون المنحدرون أصلاً من نسل قابيل.

إلا أنه بعد الطوفان انتشر أبناء سام وحام ويافث فى كل جهات الأرض، وحتى الأماكن التى وجدوا أقواما فإنهم امتزجوا بهم وأصبح الكل ينسب إلى أسماء أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

وتقول التوراة (إصحاح تاسع – تكوين) وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض... وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك هم سام وحام ويافث. ومن هؤلاء تشعبت قبائل فى أنحاء الأرض. (وتُبيِّن أشكال ٢٩، ٣٠ أسماء أبنائهم حسب ما جاء فى التوراة).



شكل ٢٩ – أبناء يافث (حسب ما جاء فى التوراة).



شكل ٣٠ – أبناء حام (حسب ما جاء فى التوراة).

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة رضى الله عنه أن نبى الله (ﷺ) قال: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم. ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن عربة، عن قتادة.

وقد روى عن عمران ابن حصين رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) مثله. ويقول ابن كثير، والمراد بالروم هنا الروم الأول اليونان المنتسبون إلى رومى ابن ليطى ابن يونان ابن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام يافث، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة: فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر.

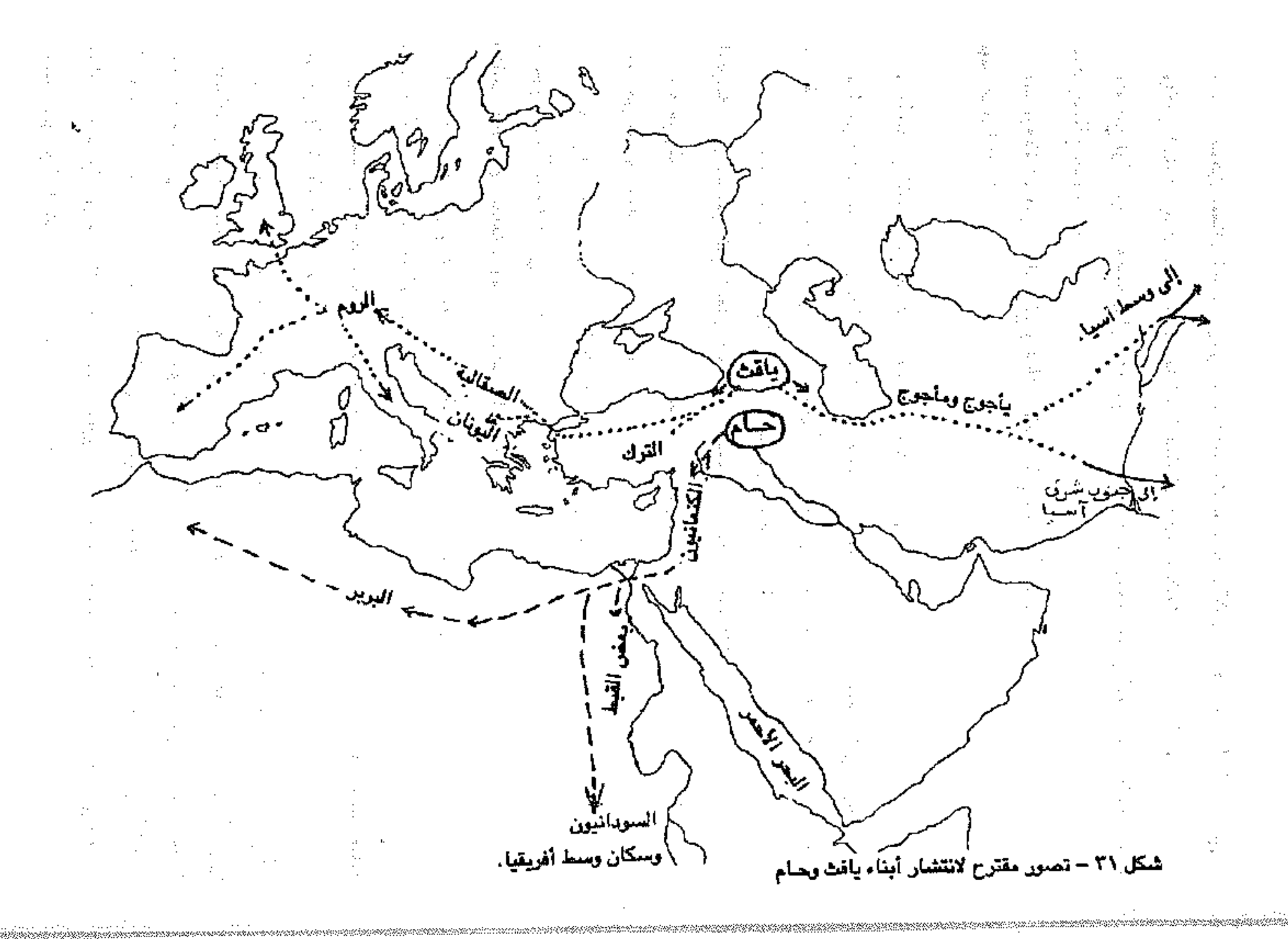
وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. وأخرج البزار وابن أبى حاتم والخطيب قال. قال رسول الله (ﷺ): ولد نوح ثلاثة، سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ولاخير فيهم. وولد حام القبط والسودان.

والاختلاف الوحيد فى هذه الأحاديث الثلاثة هو فى وضع الروم. هل هم من نسل سام أم من نسل يافث. والأرجح هو الحديث المروى عن سمرة فى أن الروم من نسل يافث. ويزيده ابن كثير توضيحاً بأنهم من نسل رومى ابن ليطى ابن يونان ابن يافث - إلاَّ أن التوراة - ولا أى مرجع آخر - لم يرد فيها أن أحد أبناء يافث كان اسمه يونان. ولكن يزيد رجحان الاحتمال المفترض وجود بلدة فى وسط هضبة الأناضول اسمها تابال. وهو اسم قريب الشبه جدا من اسم توبال وهو أحد أبناء يافث. ومن المعروف أن المناطق أو المدن تسمى أحيانا باسم القبيلة أو اسم كبيرها. وشكل ٣١ يبين تصوُّر لانتشار أبناء يافث وأبناء حام.

أما نسل حام، فإنه من المتفق عليه أن وسط أفريقيا (السودان والحبش)، وشمال أفريقيا (البربر) وجزءا من قبط مصر، هم حاميون. وكذلك فإن الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى للبحر المتوسط (فلسطين) من ميناء صيدا حتى غزة سكنه الكنعانيون. وكنعان هو ابن حام. وميناء صيدا أو صيدون سميت على اسم أحد أولاد كنعان وهو صيدون.

أما **أبناء سام**، حسب ما جاء فى التوراة فيوضحهم شكل ٣٢. وشكل ٣٣ يُوَضِّح كيفية انتشارهم. ومن نسل سام العرب والفرس.

فالمنطقة شرقى نهر دجلة وهى الجزء الغربى من بلاد فارس سكنها قوم سُموَّا العيلاميون نسبة إلى عيلام بن سام.



شكل ٣١ – تصور مقترح لانتشار أبناء يافث وحام وسكان وسط أفريقيا.

وأشور سكن شمال العراق، وبنى المدينة المسمّاة باسمه، وتكاثر أبناؤه وكونوا الأشوريين.

والابن الثالث لود أو لواد، يقال إنه أبو العماليق، الذى سكنوا وسط جزيرة العرب.

والرابع آرام. ومن المحتمل أن الآراميين ينسبون إليه. ومنهم ظهر اثنان من الأنبياء هما هود وصالح عليهما السلام.

أما أرفكشاد فمن نسله فالج ويقطان، ومن فالج سلسلة نسب تنتهى إلى إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام.

ويمكننا أن نتصوّر ما حدث فى هذه الأزمنة كما يلى:

نزل نوح عليه السلام وأبناؤه، سام وحام ويافث، بعد أن رست السفينة على الجودى فى سلسلة جبال أراراط فى شرق تركيا بين البحر الأسود وبحر قزوين. وبالطبع فإنه - بعد الطوفان - كانت كل أرض العراق قد أُفرغت من سكانها - كذلك الجزء الشمالى من الجزيرة العربية. فكل المناطق التى شملها الطوفان أصبحت خالية من السكان.

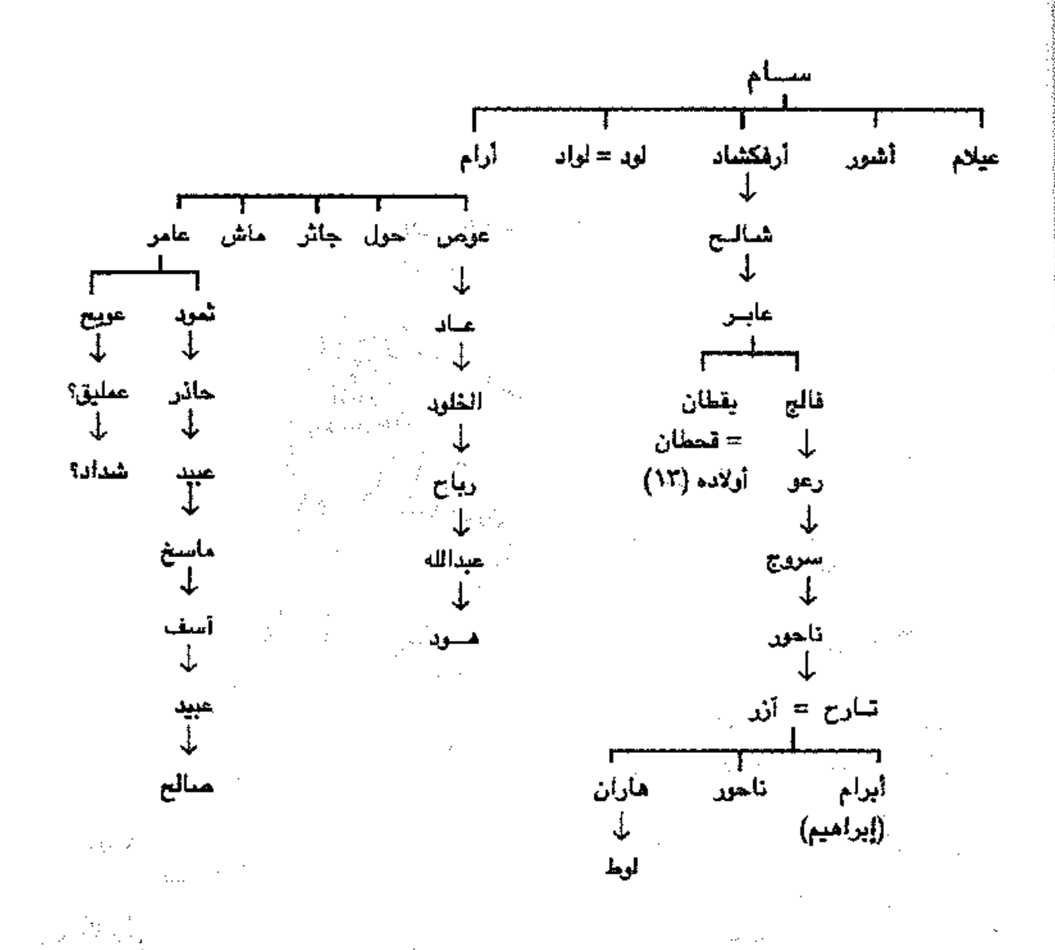
وبالطبع تكاثر أبناء نوح. وكلما زاد عددهم اضطُرت جموع منهم أن ترتحل طلبا لمكان فيه سعة من الرزق. وولد لسام خمسة أبناء.

أولهم عيلام. وكما نرى من شكل ٢٣ فقد ارتحل جنوبا فى المنطقة شرقى أراضى ما بين النهرين أى الجزء الغربى من بلاد فارس. وأسس أبناء عيلام وأحفادهم وذريتهم مملكة عيلام وكانت عاصمتها مدينة سوسة. وعرفوا بالعيلاميين.

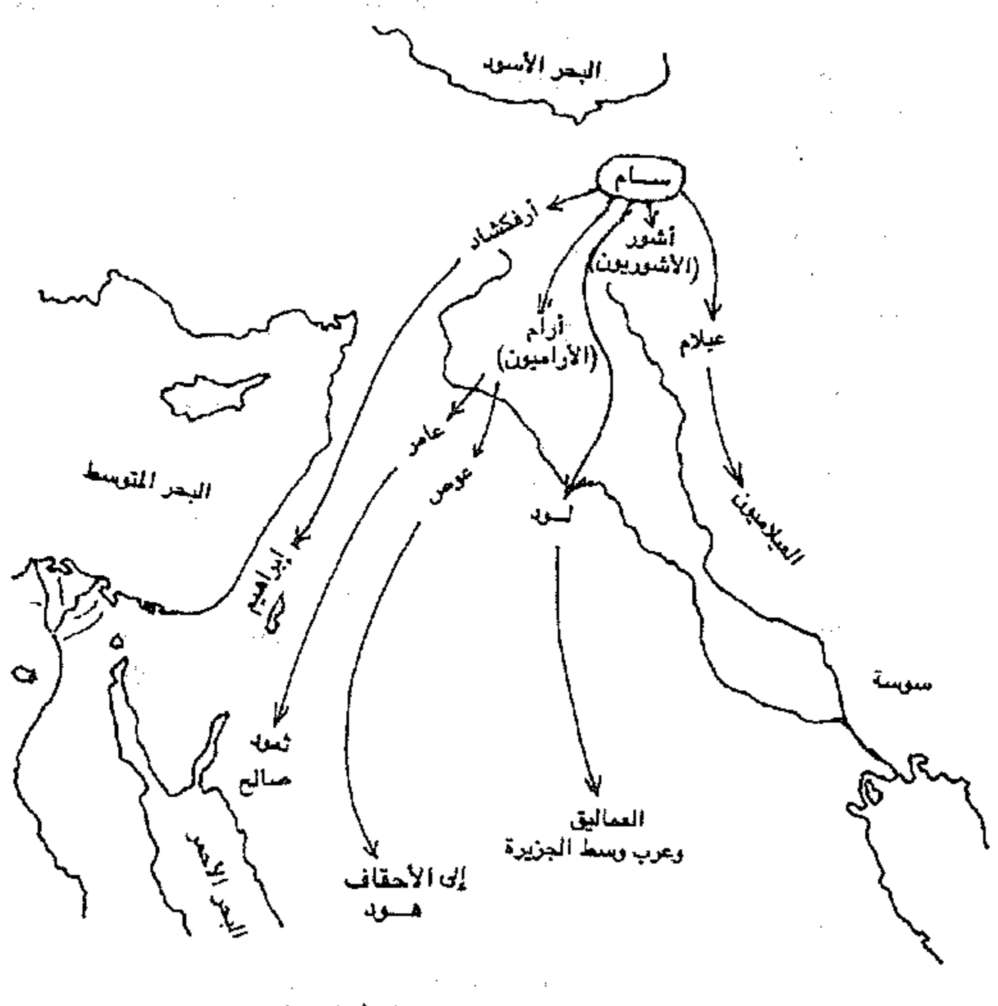
أما أشور فقد بقى فى الجزء الشمالى من المنطقة المحيطة بنهر دجلة وبنى مدينة سميت باسمه، أشور. ومن ذريته الأشوريون.

وأرفكشاد أو أرفخشد ولَدَ شالح. وشالح ولد عابر، وعابر ولد فالج. ومن نسل فالج إبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولود أو لواد من ولد سام. ويقال إن عمليق - أبو العمالقة - من نسله. وعلى كل فالعمالقة سكنوا شمال الجزيرة العربية. وهم العرب القدماء. وكانوا يقطنون شمال الجزيرة العربية فيما يلى شبه جزيرة سيناء ويقال أيضا إن الاسم مشتق من اسم قبيلة كانت تسكن شمال خليج العقبة وكان اسمها ماليق أو مالوق. وأضاف إليها اليهود لفظ «عم» أى الشعب، فقالوا عم ماليق أو عم مالوق ثُمّ قيلت عماليق وعمالقة. كذلك فإن العمالقة زحفوا على العراق واستوطنوا جزءاً كبيراً منه. وأسسوا دولة الكلدان.



شكل ٣٢ – شجرة النسب لأبناء سام.



شكل ٣٢ - تصور مقترح لانتشار أبناء سام

وابن سام الخامس هو آرام أو أرم. وهود وصالح عليهما السلام من نسله. وهناك من يرى أن العمالقة من نسله أيضا.

وبالطبع فإن سام وأبناءه كانوا على دين أبيهم نوح، موحدين ويعبدون الله. ولكن الأحفاد سرعان ما تناسوا عبادة الله وداخلهم الشرك واتخذوا أصناما وعبدوها.

ومن نسل آرام كانت قبيلة عاد التى ارتحلت حتى وصلت إلى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية حيث تقع حضرموت، واستقرت هناك.

وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم هوداً ليهديهم سواء السبيل.

هود عليه السلام

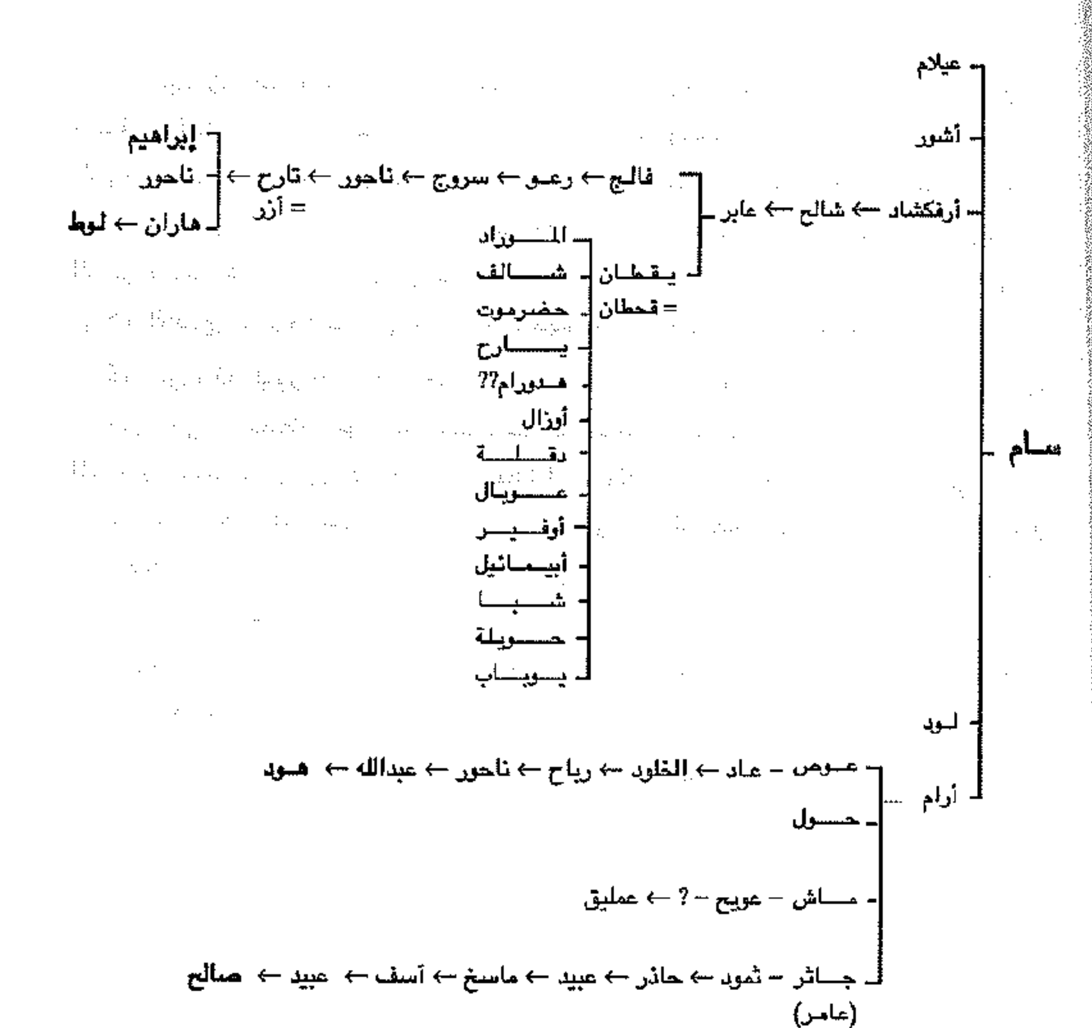
ذُكِرَ هود عليه السلام، في القرآن الكريم سبع مرات: في سورة الأعراف في الآية ٦٥ – وفي سورة هود في الآيات ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ وفي سورة الشعراء الآية ١٢٤. ولم تذكر عاد ولا ثمود في التوراة وليس هناك من مصدر لاستيفاد معلومات عنهم سوى القرآن الكريم، الذي ذكر رغد معيشتهم وقوة أجسامهم – أما ما عدا ذلك فهي أقوال أُخذَت عن بعض أهل العلم ورواة التاريخ. ولا تزال البعثات تنقب لتحصل على آثار هذه الحقبة القديمة.

وقيل أن هود تسمية عربية مشتقة من الجذر العربي هاد. فهو هائد أي تائب وراجع إلى الله. أو من هدى فهو المهدي والهادي.

ولو نظرنا إلى شجرة النسب (شكل ٣٤)، وقد ذكر فيها نسب الأنبياء الثلاثة: هود وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وهم من نسل سام بن نوح يمكننا أن نقول إنها أقرب إلى الصحة لأنها تتفق مع سياق الحوادث التاريخية. فبين سام وهود على شجرة النسب سبعة أجيال. ولو افترضنا أن الجيل في ذلك الوقت كان حوالي ١٠٠ سنة. كان بين سام وهود ٧٠٠ سنة. وهي مدة تكفي لارتحال القبائل من شمال العراق إلى المكان الذي عاش به قوم هود. كذلك هي مدة تكفي لأن يضل الناس وتتسرب إليهم عبادة الأصنام.

أما القول بأن هوداً هو ابن عوص بن آرام بن سام أي ابن حفيد سام. فهذه مدة لا تكفي لتكاثر الأحفاد وأبنائهم للدرجة التي تجعلهم يرتحلون بعيداً هكذا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية.

كذلك فإن هناك قولا ثالثا يجعل هوداً هو نفسه عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام، أي يجعله ابن حفيد سام أيضاً. (وحسب الأعمار التي وردت في التوراة عند ولادة الأبناء، سنذكر ذلك تفصيلا عند ذكر قصة ابراهيم عليه السلام)، كان عمر سام ١٦٥ سنة عند ولادة عابر، وكان الطوفان قد حدث وعمر سام مائة سنة، أي أن عابر يكون ولُد بعد الطوفان بخمس وستين سنة ولو فرض أنه بعث إلى قومه وعمره ١٠٠ سنة فذلك يؤدي بنا إلى ١٦٥ سنة بعد الطوفان، وهي مدة قصيرة، لا تكفي لأن تتم هجرة القبائل بالإزاحة إلى تلك الأماكن البعيدة. وقد لا تكفي تسبيا إلى نسيان تعاليم الله، ولا لنشوء عبادة الأصنام، إذا كانت ستنشأ إبتداء من تقديس الأسلاف، فقد كان نوح نفسه وسام أيضا لا زالا على قيد الحياة.إذ أن نوحاً عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة وسام عاش بعد الطوفان ٥٠٠ سنة.



شكل ٢٤ – شجرة النسب لأبناء سام وبها الأنبياء
الأربعة: هود وصالح وإبراهيم ولوط عليهم السلام.

ولو قيل إن الضلال جاء إليهم «مستورداً» من قبائل مجاورة تعبد الأصنام ولم يغرقهم الطوفان، قلنا أيضا إن قصر المدة لا تبيح إنشاء روابط وثيقة عن طريق التجارة. بحيث تحل الآلهة المستوردة – محل شريعة الله التى تناقلوها عن الأب والجد وأبى الجد سام، وهو الذى عاصر الطوفان ولمس رحمة الله به وبإخوته ووالده نوح عليه السلام، وما يعبد الآباء يتأصل فى النفس تأصلاً شديداً، فليس من السهل إزاحته بأصنام جاءت عن طريق التجارة ولم يكن لهؤلاء القادمين سطوة الملك التى تمكن أصنامهم من السيادة وإزاحة ديانة التوحيد.

كما أن هذا القول – أن هود هو نفسه عابر بن شالح يراه البعض أنه من وضع اليهود لرغبتهم فى أى يجعلوا هوداً من أجداد سيدنا إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويوافقهم بعض المؤرخين الإسلاميين فى هذا القول إستناداً إلى قوله تعالى فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم: **«وإلى عاد أخاهم هوداً»**. وقوله تعالى **«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى»**. (١١١ – البقرة) فتطابق لفظ «هودا» فى الآيتين – يجعلهم يوافقون على الرأى القائل بأن هوداً عليه السلام هو عابر بن شالح ليكون أيضا هو من أجداد إبراهيم وإسحق ويعقوب – الذى هو إسرائيل – الذى ينتسب إليه اليهود. ولكن ينقض هذا القول أنه لو كان الأمر كذلك لما كان يجوز للتوراة أن تهمل كلية أى ذكر عن عاد أو هود فى سياقها، فإن قصة هود وصالح لم تذكرا إطلاقاً فى التوراة، ولعل بعض كتاب اليهود، فى وقت متأخر، هو الذى قال بهذا الرأى رغبة منهم فى الاستئثار بكل الأنبياء وجعلهم فى شجرة نسبهم.

وزاد بعضهم فقال إن «يهود» جاءت من «هود»، فهم إذن بنو هود – النبى العربى وربما شجعت الجالية اليهودية فى شبه الجزيرة هذه المقولة رغبة فى إيجاد نسب موغل فى القدم بينهم وبين مُضيفيهم تأليفا لقلوب العرب عليهم. ولكن من المعروف أن اسم اليهود هو نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

لذلك فإن أرجح الأقوال أن هوداً هو ابن عبدالله ابن ناحور بن رباح بن الخلود بن عاد (الذى سمى القوم باسمه) بن عوص بن آرام بن سام بن نوح. ويزيد من ضعف الأقوال الأخرى أن عاداً قد بادوا بعد بناء البيت الحرام بمكة المكرمة، ولو كان هود على سلسلة نسب قصيرة جداً من سام (ابن الحفيد) لكان ذلك مستحيلاً. أمَّا على شجرة النسب المذكورة فى شكل ٣٤ فإن ذلك يصبح ممكنا، ولو أن بين هود وسام على شجرة النسب سبعة أشخاص، وبين إبراهيم وسام ثمانية أشخاص. فلو تساوت أعمار الأجيال لكان هود يسبق إبراهيم، ولما كان ممكنا أن يحدث – كما هو المشهور – أن قوم عاد لما امتنع عنهم المطر قصدوا مكة لإستسقاء السماء بجوار المسجد الحرام، ولكن يمكن تفسير ذلك بأن قوم عاد وقد كانوا أضخم أجساماً لقوله تعالى: **«وزادكم فى الخلق بسطة»** (٦٩ – الأعراف) أنهم كانوا أيضا أطول أعماراً، لذلك فإن السبعة أجيال على عمود نسب هود يمكن أن تكون أطول وقتا من الثمانية

أجيال على عمود نسب إبراهيم، وبهذا تكون إبادة قوم هود فى وقت لاحق لبناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام.

أحد الأقوال الضعيفة أيضا هو ما ذكره البعض من أن هود هو هدورام أحد أبناء يقطان (ابن عابر شالح بن أرفكشاد بن سام) يعتمدون فى ذلك على تشابه النطق بين عاد إرم وهدورام.

إن عدم ورود ذكر هود وصالح عليهما السلام – فى التوراة – جعل بعض المستشرقين ينكرون وجودهما أو وجود أقوامهما أصلاً!! وينقض هذه الفرية اكتشاف أن عاد Oditae وثمود Thamudida مذكورتان فى تاريخ بطليموس، وكذلك فإن اسم عاد مقرون باسم إرم فى كتب اليونان فهم يكتبونها Adramitae – أدراميت ولو حذفنا التاء الملصق فى الآخر لكان لفظ Adram هو أدارام أو عاد إرم، وهو يتفق مع تسمية القرآن الكريم لهم **«ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد»** (٦ – ٧ الفجر) والبعض يقرأها **«بعاد إرم. ذات العماد»** بإعتبار أن عاد اسم الحى وإرم اسم القبيلة، إلا أنه من الممكن أيضا إبقاء القراءة كما وردت فى ترقيم آيات المصحف الكريم بوقوف بعد عاد. **«ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد»** وتكون إرم اسم القبيلة مرادفا لاسم عاد.

«وإرم ذات العماد» ذات العماد صفة لإرم، والمراد ذات القدود الطوال على تشبيه قامتهم بالأعمدة وسنأتى إلى الأقوال التى قيلت فى هذا المجال حينما نأتى إلى قوله تعالى: «وزادكم فى الخلق بسطة».

وبعضهم قال إرم اسم مدينة وذات العماد صفة أى ذات الأعمدة وسنأتى إلى ذلك أيضا فيما بعد. وبعضهم قال إرم من يأرم أى يهلك فيكون المعنى ألم تر كيف أهلك ربك عاداً كما أهلك أرم ذات العماد. وبعضهم قرأ أَرَمّ، فعلاً ماضيا أى جعل الله ذات العماد رميماً أى أهلكها وكذلك أهلك عاداً.

أين كانت عاد؟

استناداً إلى الآية الكريمة: **«واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف»**. (٢١ – الأحقاف) تكون المنطقة التى عاشت فيها قبيلة عاد هى الأحقاف. وتوجد منطقة تسمى الأحقاف إلى الشمال الشرقى من حضرموت، شرقى عدن، جنوب الربع الخالى من الجزيرة العربية (مكان رقم ١ شكل ٣٥) وهناك خلاف حول ما إذا كانت الأحقاف تطل على البحر أم أن حضرموت تفصلها عن البحر.

والحقف فى اللغة هو المعوج من الرمل، وليس بالضرورة أن يقتصر إطلاق الاسم على المنطقة السابق ذكرها، بل ممكن أن يطلق اسم الأحقاف على أى مكان به رمل عظيم.

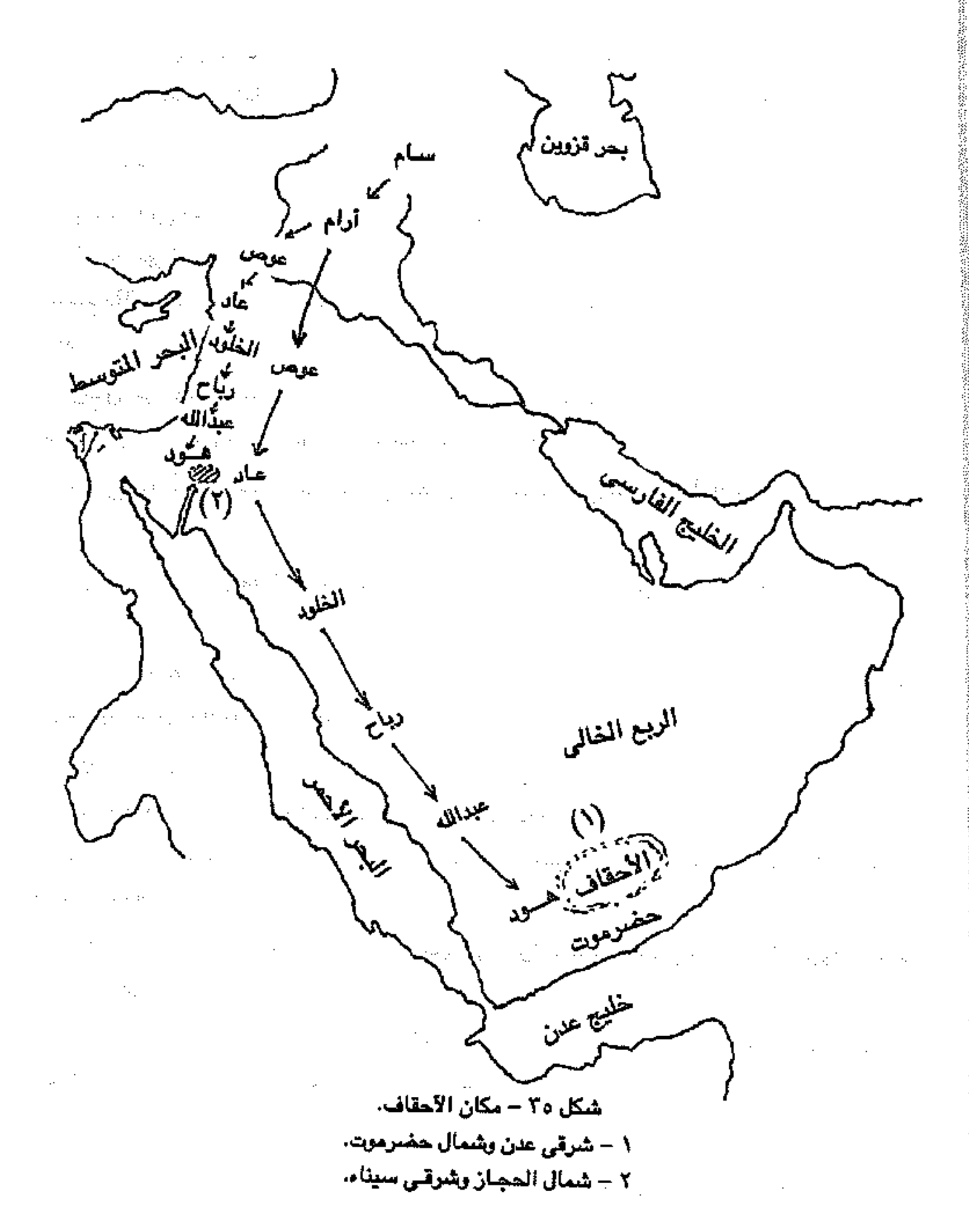
ويرى البعض أن عاداً كانت تسكن في شمال غرب شبه الجزيرة العربية في الجزء المجاور شرقي سيناء (الاحتمال ٢ شكل ٣٥). ويوجد هناك بئر تسمى إرم. وأحد وديان شمال الحجاز يسمى وادى إرم، كما يوجد في جنوب الأردن منطقة تسمى إرم. كما يوجد جبل يسمى إرم في هذه المنطقة على بعد ٢٥ ميلاً شرقي العقبة (د. محمد بيومي مهران. دراسات تاريخية – جـ ١ ص ٢٤٧).

ولكن التسمية في حد ذاتها لا تعتبر دليلاً مؤكداً على أن عاداً سكنوا هذه المنطقة، فكلمة إرم في حد ذاتها تفيد الإنتساب إلى أرام بن سام، ولو نظرنا إلى شكل ٣٥ بتمعن أكثر، والمسافة بين شمال العراق حيث عاش سام وأرام وبين شرقي سيناء تبلغ حوالى ١٠٠٠ كيلو متر ولو افترضنا هجرة متواصلة من الأبناء والأحفاد في الطريق (٢) ليكون مبعث هود عليه السلام لقوم في الشرق من سيناء لكان ارتحال القبائل بطيئا نسبياً، ولكانت عاد نفسها قد عاشت في شمال سوريا، ولَمَّا كان الهدف من التسمية هو تخليد اسم الجد الأكبر للقبيلة وهو عاد إرم أى عاد بن عوص بن أرام، لكان الأولى إطلاق أسماء وديان وجبال وآبار في شمال سوريا وليس في الأردن أو قربها. أما إذا أخذنا المكان (١) في شكل ٣٥. والمسافة من شمال العراق إلى حضرموت تصل إلى ٣٥٠٠ كيلو متر لوجدنا أن ارتحال القبائل يجعل عادا تعيش في شمال الحجاز شرقي خليج العقبة وتطلق اسم جدها أرام بن سام على هذه الأماكن. ومرت أربعة أجيال أخرى ولد فيها الخلود ثم رباح ثم ناحور ثم عبدالله ثم هود، وبالطبع لم تكن الجموع المتكاثرة لتبقى في مكانها الأول، بل الطبيعى أنها ارتحلت إلى الجنوب بحذاء الساحل حتى وصلت إلى اليمن السعيد، ومن المؤكد أن عدن كانت مكتظة بأهلها لخصبها، فآثر هؤلاء الجدد، السكنى شرقي عدن في الأحقاف شمال حضرموت وإن ظلوا يسمون أنفسهم «عاد» على اسم جدهم الأول.

وفي شمال حضرموت عُثر على آثار عليها كتابة بالخط المسمارى، مما يدل على قوم قدموا من الشمال، من العراق، التى كانت موطن هذا النوع من الخط. كما أن البعض يقول بوجود قبر هود عليه السلام بحضرموت، وبجواره نبع يدُعَى «برا هوت» اشتهِر منذ القدم بأدخنته الكبريتية.

قال محمد بن اسحق، عن حمد بن عبدالله، عن أبى سعد الخزاعى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، سمعت عليا – رضى الله عنه – يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء، ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وإنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال لا ولكنى حُدِّثت عنه، فقال الحضرمى، وما شأنه يا أمير المؤمنين، قال: فيه قبر هود عليه السلام، رواه ابن جرير.

وعلى ذلك فأرجح الأقوال هو أن عاداً سكنوا الأحقاف شمالى حضرموت أما تفسير القول



شكل ٣٥ – مكان الأحقاف.

١ – شرقى عدن وشمال حضرموت.

٢ – شمال الحجاز وشرقى سيناء.

الآخر فيحتمل أن من سكنوا هذه المنطقة أرادوا أن يكون لهم الشرف إذ يظهر فيهم نبى الله هود – كما ظهر فى المنطقة المجاورة، والتى تبعد قليلاً إلى الجنوب، نبى الله صالح فى الحجر.

عاد، قوم هود :

ينُسب قوم هود إلى الجد الأكبر عاد. وتكاثر القوم على مدى ثلاثة أجيال أخرى بعد عاد، وضلوا طريق العبادة واتخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله تعالى. منها صنم يقال له صدى، وصنم يقال له هرد وصنم اسمه هبا، وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنما يقال له الهتار.

وكان هود من أوسطهم نسبا، فهو من نسل عاد، شيخ القبيلة وجدها الأكبر. فهو ابن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد. واصطفاه الله وبعثه لهداية عاد:

«وإلى عاد أخاهم هوداً. قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون».

(٦٥ – الأعراف)

«وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون».

(٥٠ – هود)

وكان قوم عاد ذوى أجسام قوية، وطوالا، كانوا عمالقة أقوياء، واغتروا بقوتهم، وعز عليهم أن يراجعهم فى رأيهم وفى عبادتهم أحد.

«وقالوا. من أشد منا قوة». (من الآية ١٥ – فصلت)

وقد ذكَّرهم هود أن هذه القوة هى مِنَّة من الله ونعمة، وعليهم أن يشكروا الله عليها بعبادته وعدم الإشراك به، كما أن من نعم الله عليهم أنه أسكنهم الأرض بعد أن هلك الخلق بفعل الطوفان، فقال لهم:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح. وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون». (٦٩ – الأعراف).

ويقول بعضهم إن الواحد منهم قد بلغ اثنى عشر ذراعا (٤٠ر٥ مترا) وهنا يلعب الخيال عند البعض، فيقول كانوا فى هيئة النخل.

وقال أبو حمزة اليمانى كان طول الرجل منهم سبعين ذراعا (٥ر٣١ مترا).

وقال ابن عباس ثمانين ذراعا وقال الكلبى كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً.

وقال آخرون كان طول الواحد منهم أربعمائة ذراع (١٨٠ مترا).

وقالوا : كان الواحد منهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحى فيهلكهم، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يغلبوه.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران - إن ذلك كله يتعارض مع حديث رسول الله ﷺ «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً فى الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن». ويقول، وهذه المبالغات تشبه ما كانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول مما كذبه الواقع بعد كشف مومياتهم، ويقول، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بيننا من بسطة فى الجسم.

والحقيقة أيضا أن الحديث الشريف وضع قاعدة عامة وهى أن الناس ظلت بالتدريج تقصر فى الطول من عهد آدم. ولكن هذا لا ينفى إستثناء البعض وخاصة أن القرآن الكريم هو الذى ذكر هذا الإستثناء فى قوله «**وزادكم فى الخلق بسطة**» وقال: «**التى لم يخلق مثلها فى البلاد**» هذا إذا كان القول ينصبُّ على القوم أنفسهم، لا على مدينتهم. وعليه فيمكننا القول إنهم كانوا فعلا طوالاً ضخاماً، ولنقل مثلا ستة أو عشرة أذرع وليس أكثر من ذلك (أى ٢٫٧٠ أو ٤٫٥ مترا).

وكانوا يبنون فى كل مكان بناء كبيرا أو قصرا فخما، ليكون آية وشاهدا على قوتهم، ولم يكن ذلك لاحتياجهم، بل لإظهار ما لديهم من ثراء وقوة، وهذا عبث ومضيعة للمال والجهد ولهذا قال الله عنهم «تعبثون». وقال مجاهد كذلك اتخذوا مصانع وهى البروج المشيدة. وقال قتادة هى مآخذ الماء، وكانوا يزيدون فى ضخامة كل ما يعملون من مبانى كأنهم مخلدون.

«**أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون**». (١٢٨ ، ١٢٩ - الشعراء)

ومن كثرة ما بنوا من مبان ضخمة وفخمة كانت مدينتهم أفخم مدينة لقوله تعالى:

«**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد**». (٦ - ٨ الفجر)

وقالوا إن إرم ذات العماد مدينة بناها شداد بن عاد - أحد زعمائهم وشطح خيال البعض، وزعموا أنه بناها فى صحارى عدن، فى ثلاثمائة عام، وفى رواية أخرى فى خمسمائة عام، وأن عمره كان تسعمائة عام، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا له ما فى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران، وأنه أمر بالذهب والفضة فضربا أمثال اللبن وبنى بها المدينة، ثم زين حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أجرى تحت المدينة نهرا طليت حافته بالذهب وأما مصير المدينة فقد زعم بعضهم أنها طارت بعد بنائها إلى السماء وأن بعض الناس لمحوها وهى طائرة، ومنهم من يدعى أنه لا يراها إلا من كتب الله له ذلك، ويروى بعضهم أن رجلا رآها على أيام معاوية بن أبى سفيان وأنه حمل إلى الخليفة منها بعض الأحجار الكريمة فضلاً عن المسك والكافور، غير أن هذه الأشياء سرعان ما تحولت إلى تراب عندما تعرضت إلى الهواء (ألم تكن وهى فى المدينة قبل أن يأخذها معرضه إلى الهواء أيضا!)، ومن ثم فقد استدعى معاوية كعب الأحبار، وسأله عن خبر هذه المدينة، فأجاب كعب إنها إرم ذات العماد. ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية. جـ ١ ص ٢٥١ -

٢٥٢) ولعل هؤلاء الرواة قد رأوا ضَخَامة آثار الفراعنة فى مصر ومبانى الاشوريين والبابليين، ومن ثم رَغبُوا أن تكون مدينة عاد أكثر فخامة من هذه الآثار، فكان الخيال الذى ينزل بكتاباتهم إلى مبالغات الأساطير.

وكان فى قوم هود غلظة وقسوة وجبروت قال الله عنها:

«وإذا بطشتم بطشتم جبارين». (١٣٠ - الشعراء)

وذكَّرهم هود عليه السلام بأنه لا يطلب منهم أجراً من مال أو جاه أو سلطان عليهم بهذه الدعوة، إنما أجره على الله:

«يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون». (٥١ - هود)

«وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين». (١٢٧ - الشعراء)

ولكنهم - مثل الكفار فى كل مكان وزمان - كذبوه واتهموه بالسفه:

«قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين. قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلِّغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين».
(٦٦ - ٦٨ الأعراف)

وطلب منهم أن يستغفروا الله لما أقدموا عليه من الشرك به وعبادة الأصنام، وأن يتوبوا إلى الله، ويرجعوا عما هم عليه من الضلال. والتوبة تَجُبُّ ما قبلها. وبالتالى سيغفر الله لهم ذنوبهم وسيثيبهم الله خيرا كثيرا بزيادة المطر فتخضَرُّ الأرض ويكثر الزرع والنسل ويزدادوا قوة وعزا. ونهاهم عن الإعراض عن دعوته وطلب منهم أن يرجعوا عمَّا هم عليه من الشرك والإجرام.

«ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين». (٥٢ - هود)

ثم ذكَّرهم ثانية بنعم الله عليهم وطلب منهم أن يطيعوه ويؤمنوا بما جاء به:

«فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». (١٣١ - ١٣٥ الشعراء)

وقال لهم: وإن خالفتم، ولم تتقوا ولم تؤمنوا ولم تقوموا بشكر الله على هذه النعم التى تعرفونها، وعدَّد عليهم بعض هذه النعم، أنعام وإبل وغنم وكثرة فى الولد، وجنات مزروعة تنبت من كل الخيرات، ولا يجف ماؤها لما فيها من عيون ماء كثيرة، وإن خالفتم فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة، وهذا لا يمنع أيضا من وجود عذاب فى الدنيا.

وقالوا له إنك يا هود لم تأتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أو لم تأتنا بمعجزة تؤيدك، وقالوا ذلك لفرط عنادهم، وفى الخبر «ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن

عليه البشر». ولعله أتاهم ببينة وإن لم يعين لنا القرآن الكريم نوعها، ولعله أيضا لفت نظرهم إلى آيات الله فى الكون، وإلى آية خلقهم وخلق غيرهم من الأحياء. ولكنهم استمروا فى كفرهم وعبادتهم للأصنام، وأعربوا عن أنهم لن يؤمنوا بما يدعوهم إليه. بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قالوا له إن ما يقوله ما هو إلا هذيان بسبب أنه حقر آلهتهم فأصابته بسوء، وكان رده عليهم أنه أشهد الله عليهم وأشهدهم أيضا بأنه برئ مما يعبدون من دون الله، وهذا الرد فيه استخفاف بآلهتهم، وبأنها لا تستطيع فعل أى شئ، وتحداهم أنه لو صح أن آلهتهم قادرة على إيقاع الضرر به فلتفعل ويساندونها هم أيضا، وليدبِّروا له جميعا هم وآلهتهم ما يقدرون عليه من كيد وضرر، بل وطلب منهم أن يفعلوا ذلك فى سرعة فلا ينتظرون وقتا كبيرا أو قصيرا وهذا زيادة فى التحدى،، وأعلن لهم أنه مؤمن بأنهم لن يستطيعوا ضره بشئ لأنه توكل على الله، فهو ربه وربهم، فكل شيء فى هذا الكون بمشيئته وكل حركة لأى شيء حى إنما هى بأمره وقدره. وعبر عن ذلك بالأخذ بالناصية كناية عن القدرة والسلطان. وكانت العرب قديما إذا أمسكوا بأسير ومنُّوا عليه بالحياة جَزُّوا ناصيته، وهو الشعر فى مقدمة الرأس، دلالة على أنه قد قُدِرَ عليه وقُبِضَ على ناصيته، وأن عليهم التسليم لله وحده لأن هذا هو الصراط القويم المستقيم الذى يرتَضيه الله لعباده.

وعبر القرآن الكريم - بإيجاز - عن ذلك بقوله تعالى :

«قالوا يا هود ما جئتنا ببيِّنه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتُنْظرون. إنى توكلت على الله ربى وربِّكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم». (٥٣ - ٥٦ هود)

كان قوم هود يعبدون الأصنام، وقد ذكر محمد بن اسحق أنهم كانوا يعبدون صنما يقال له صداء وآخر يقال له صمودا، وآخر يقال له الهنا: واستنكروا أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويتركوا عبادة الأصنام وقالوا إن هذه الأصنام كان يعبدها آباؤهم. فاستنكروا أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبده آباؤهم، وكان غاية تكذيبهم أنهم طلبوا منه أن ينزل بهم العذاب الذى توعَّدَهم به، أى أنهم تحدوه. فإن كان صادقا فى إخباره عن الله عز وجل، فلينزل بهم العذاب الذى هدَّدهم به:

«قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين». (٧٠ - الأعراف)

واستنكروا أن يحاول أن يثنيهم عن عبادة الأصنام، وقالوا له أن كنت صادقا فأنزل بنا العذاب الذى تقول به، ظانين أن العذاب من عنده هو، ومادام هو بشر مثلهم فلن يستطع إنزال

عذاب بهم. فقال لهم إن علم ذلك عند الله هو الذى يحدد نوع العذاب ووقته وقال لهم: كل مهمتى أن أبلغكم رسالة ربى وأنصحكم. ولكنكم قوم لا تعقلون ولا تفهمون.

قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون ». (٢٢ - ٢٣ الأحقاف)

وقال لهم، فإن أعرضتم عما جئتكم به، فقد قامت عليكم الحجة، لأنى بلغتكم ما أرسلنى الله به إليكم، وسينزل بكم العذاب، وسيأتى الله بقوم آخرين بعدكم يؤمنون به، وأنتم لا تضرون الله بشىء بكفركم هذا، بل تضرون أنفسكم، والله حافظ لأقوالكم وأفعالكم وتكذيبكم وإصراركم على الشرك به:

«فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيئ حفيظ». (٥٧ - هود)

ويقول الله تعالى: مُخبراً عن جواب قوم هود له، بعد ما حذَّرهم وأنذرهم، ورغّبهم ورهّبهم، وبين لهم الحق ووضّحه، أنهم قالوا: سيَّانٌ عندنا وعظتنا أم لم تعظنا فلن نؤمن لك، ونحن متمسكون بعبادة أصنامنا، هذه أيضا كانت أخلاق آبائنا وأجدادنا الذين تمسكوا بهذه الآلهة وكان هذا دينهم، ونحن نتبعهم، وعندما نموت ليس هناك بعث ولا حياة أخرى ولن يكن هناك عذاب كما تدّعى:

قالوا سواء علينا أوَعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خُلُق الأولين. وما نحن بمعذبين». (١٢٦ - ١٣٨ الشعراء)

وبعضهم قال فى تفسير إن هذا إلا خُلُق الأولين أى أن هذا الذى تدعو به ما هو إلا إعادة لما قاله آخرون غيرك من قبل وادعوا أنهم مرسلون، وقرأ قلابة والأصمعى عن نافع: إن هذا إلا خَلْقُ الأولين كأنهم قالوا إن هذا إلا أساطير الأولين. وروى علقمة عن عبدالله أنه قرأ «إلا إختلاق الأولين».

وكان رده عليهم أنهم بمقالتهم هذه قد استحقوا غضب الله وسخطه. واستنكر عليهم مجادلتهم فى هذه الأصنام وادعاءهم أنها آلهة، مع أنهم هم الذين صنعوها ونحتوها بأيديهم، ثم إنهم وأباؤهم هم الذين أعطوا الأصنام أسماء ها، وهذه الأصنام لا حول لها ولا قوة، وليس لها من سلطان لتضرَّ أو تنفع، وإذا كانوا قد طلبوا منه أن يأتيهم العذاب الذى توعدهم به فقد قال لهم إن العذاب سينزل بهم - وما عليهم إلا أن ينتظروا وقوعه بين حين وآخر، وسينتظر هو أيضا ليرى ما يحيق بهم من عذاب:

«قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين». (٧١ - الأعراف)

ثم كان الإنذار الأخير، لعله يردعهم فيؤمنوا:

وكما قال الله فى آل فرعون: «وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون». (٤٨ - الزخرف)

والإنسان الواعى إذا أصابه مكروه عليه أن يفكر، فيم كان خطؤه، وأى ذنب ارتكبه حتى استحق أن يصاب بهذا المكروه؟ أما الشخص الغافل فهو يعمى عن هذه الدلالات ويستمر فى غيه، بل ولا يمر على خاطره أن ما أصابه قد يكون بسبب سوء فعله.

وكانت نذر العذاب لقوم هود أن الله أمسك عنهم المطر، قيل ثلاث سنين حتى جف الزرع وهلكت الأنعام. وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد، ذهبوا إلى بيت الله الحرام بمكة يطلبون من الله تعالى الفرج، سواء كانوا مسلمين أو كفارا، فقد كان الكل يعظم مكة والبيت الحرام ويعرفون مكانتهما عند الله وأن الدعاء فى مكة عند البيت العتيق أدعى لأن يستجاب. كذلك سبق أن أوضحنا فى ص ١٣٦ الرد على من نفوا ذهاب وفد من عاد للدعاء عند البيت الحرام بمكة بحجة أن البيت الحرام لم يكن قد بنى بعد، وافترضنا أن السبعة أجيال على شجرة نسب هود يمكن أن تكون أطول زمانا من الثمانية أجيال على شجرة نسب إبراهيم، ويكون البيت الحرام بمكة قد بنى فعلا.

كان سيد العماليق إذ ذاك بمكة هو معاوية ابن بكر. ويَمُتُّ بصلة قرابة لقبيلة عاد، إذ أن أمة كانت متزوجة من رجل من قبيلة عاد. فلما قحط المطر عن عاد، جهزوا وفدا منهم ليذهب إلى مكة ليستسقوا لقومهم، وقيل بلغ الوفد سبعين رجلا. ولما قَدِمُوا مكة نزلوا على معاوية ابن بكر، وهو بظاهر مكة خارج الحرم، فأكرم وفادتهم ومكثوا طويلا، فلما ذكَّرهم بالمهمة التى جاءوا من أجلها ساروا ودخلوا الحرم واستسقوا، وكان بينهم واحد قد آمن بهود سرا (ويقال إسمه مرثد بن سعد). فقال لهم: والله إنكم لا تستقون بدعائكم. ولكنكم إن أطعتم نبيكم وأنبتهم إلى ربكم سقيتم. وعرفوا أنه قد أسلم مع هود، ولكنهم أصروا على كفرهم، واستسقوا. وتكونت فى السماء سحب سوداء. ورأوها تتجه ناحية الجنوب حيث قومهم، فظنوا أن الآلهة قد استجابت لهم.

ذلك ما كان من أمر الوفد فى مكة.

أما بقية عاد - فى الأحقاف - فقد ظلوا على كفرهم وتكذيبهم لهود عليه السلام الذى طلب من الله أن ينصره عليهم:

«قال رب إنصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعدا للقوم الظالمين». (٣٩ - ٤١ - المؤمنون)

وجاء أمر الله.

«ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك

عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عادا كفروا ربهم، ألا بُعداً لعاد قوم هود». (٥٨ – ٦٠ – هود)

أما تفاصيل إهلاكهم فكانت أن الله ساق السحب الداكنة السواد إلى حيث قوم هود فظنوا أنه الغيث قادم، لأن السحب الداكنة فيها المطر الغزير.

«فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمِّر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين». (٢٤ – ٢٥ الاحقاف)

«وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم».

(٤١ – ٤٢ – الذاريات)

والريح العقيم هي الريح الآتية من الجنوب وتسمى الدَّبُور، وقد ثبت فى الصحيح، من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «نُصرت بالصَّباَ وأهلكت عاد بالدبور».

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية». (٦ – ٨ الحاقة)

«كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر». (١٨ – ٢١ القمر)

أرسل الله عليهم ريحا سبع ليال وثمانية أيام. كانت الريح فيها متصلة الهبوب. كأنها يوم واحد أى كأنها يوم مستمر، قالوا وكانت الريح تأتى أحدهم فترفعه حتى تُغَيِّبه ثم تُنَكِّسه على أم رأسه. فيسقط على الأرض. فتكسر رأسه فيبقى جثة بلا رأس، كأنه أعجاز نخل منقعر، كأنهم جثث قد بليت وأصبحت رمة أو كالرميم.

وقال محمد بن اسحق والسدى: بعث الله على عاد الريح، فلما دنت منهم، نظروا إلى الإبل تطير بها الريح بين السماء والأرض فتبادروا البيوت، فلما دخلوها، دخلت عليهم الريح فاقتلعتها وأهلكتهم. قيل فأرسل الله عليهم طيورا سوداء لتلقى بهم فى البحر فألقتهم فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم بين السماء والأرض فألقتهم على أهل الحاضرة حتى هلكوا».

وروى مسلم فى صحيحه قال: حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج، حدثنا عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت

الريح قال: «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرْسِلَتْ به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا غُيِّبت السماء تغير لونه وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا».

أما هود ومن معه فقد اعتزلوا فى حظيرة ما يُصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم. كذلك نجا من قبيلة عاد بنو اللويذة المهدا. وهم رهط كانوا سكانا بمكة مع أخوالهم - لم يكونوا بأرضهم - وهم عادُ الآخرة، أما عاد الذين أهلكوا فهم «عاداً الأولى».

«وأنه أهلك عادا الأولى، وثمودا فما أبقى». (٥١ - النجم)

«ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ».
(٥٨ - هود)

«فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين».
(٧٢ - الأعراف)

«فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم».
(١٣٩ - ١٤٠ - الشعراء)

وكان وفد عاد الذين أرسلوا إلى مكة للإستسقاء قد أنهوا مهمتهم وغادروا مكة، ومروا فى طريق عودتهم ببنى خؤلتهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة من أمصار عاد فأخبرهم بهلاك عاد، فقال الكافرون منهم: لا حاجة لنا فى البقاء بعد هلاك قومنا، فهلكوا كما هلك قومهم، أما مرثد بن سعد، وقد كان مؤمنا فقد قال: اللهم أعطنى براً وصدقا، فأعطى ذلك.

وبقى هود ما شاء الله له. ثم مات وعمره مائة وخمسون عاما، ودفن فى حضرموت وقد سبق (ص ١٣٨) ذكر قول على رضى الله عنه للحضرمى، يصف كثيبا أحمر هو قبر هود عليه السلام. ويقول آخرون: إن النبى من الأنبياء كان إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى إلى مكة هو ومن معه، يعبدون الله تعالى حتى يموتوا. وعن الفضل ابن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد، أنبأنا يزيد بن أبى حكيم، عن سفيان الثورى، عن عطاء عن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال: بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا - وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام فى تلك البقعة.

ولكن الرواية القائلة بدفن هود عليه السلام فى حضرموت هى الأقرب إلى الصواب. ويقول الثعلبى بذلك أيضاً.

صالح عليه السلام
نبى ثمــود

ثمود – قبيلة مشهورة – سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك فى الشمال الغربى للجزيرة العربية شرق خليج العقبة عند اتصاله بالبحر الأحمر.

وشكل ٣٦ يبين شجرة النسب وتسلسل الأبناء وبإفتراض أن كل جيل كان يرتحل إلى أرض مجاورة حتى وصل فى النهاية إلى الحجر حيث توجد مدائن صالح.

ومن ولد ثمود حاذر ثم عبيد ثم ماشخ ثم آسف ثم عبيد وهو أبو صالح عليه السلام.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن هذه المنطقة كانت كما هى الآن صحراء، فإن بادية الشام ومنطقة شرق الأردن كانت ممطرة وفيها من المراعى ما يجعلها منطقة جذب للقبائل النازحة، ولذلك فإن القبائل المتفرعة من ثمود واصلت سيرها جنوبا حتى وصلت إلى المكان المسى حاليا مدائن صالح.

وهناك خلاف فى شجرة النسب فإن البعض يضع اسم جابر بدلا من حاذر وبعضهم يجعل صالحا ابن عبيد الأول فى سلسلة النسب بدلا من عبيد الثانى الذى هو ولد آسف ابن ماشخ ولو كان كذلك لكانت سلسلة النسب قصيرة جدا بالنسبة لسلسلة نسب هود، ولوجب أن يسبق صالح هودا فى الزمن مع أن القرآن الكريم ينص على أن ثمود لاحقة لعاد قوم هود لقوله تعالى مخاطبا قوم صالح:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض». (٧٤ – الأعراف)

كما أن البعض يفسر كلمة خلفاء أى خَلَفا له أى بُنُوَّة وبذلك يجعلون ثمود أبناء لعاد. مع أن كلمة خلفاء لا تعنى بالضرورة البنوة. فإن عاد وثمود أولاد عم ولكن قبيلة ثمود عاشت إلى ما بعد هلاك عاد فهم من ناحية الزمان خلفوهم وخلفاء لهم.

كما أن بعضهم يتخذ من هذه الآية مبررا للقول بأن الأحقاف – مكان عاد – تقع فى الشمال الغربى للجزيرة العربية وبعد هلاك عاد كانت ثمود خلفا لهم فى المكان أيضا أو فى مكان مجاور. ويمكننا القول أيضا إن خلفاء لاتعنى بالضرورة شغل نفس المكان، فالتأخر فى الزمان تكفى لأن توصف ثمود بأنهم خلفاء من بعد عاد.

ويقول بعض المستشرقين إن أصل ثمود قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين. وهذا غير صحيح لأن ثمود هلكت قبل خروج موسى من مصر بزمن طويل. وبدليل أن

نـوح
سام
أرام
عامر
ثمود
حاذر
عبيد
ماشخ
آسف
عبيد
صالح
تبوك
مدائن صالح
العلاء
البحر المتوسط
البحر الأحمر

شكل ٣٦ – شجرة النسب وتسلسل أماكن الأبناء من سام إلى صالح عليه السلام.

رجلا مؤمنا من آل فرعون قام - حين كذبوا موسى - يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

ويدَّعي أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من ضواحي عاد. وبذلك تكون ثمود خلفا لعاد في المكان أيضا. وتوجد في أرض حضرموت مدينة تسمى ثمود، ولكن سبق أن قلنا إن خلفاء لا تستدعي بالضرورة أن يخلفوهم في المكان أيضا بل يكفي تأخر زمانهم ليكونوا خلفاء لهم، ولو كانت خلافة مكانية أيضا لاستلزم أن يقال وبوأكم أرضهم. ولكن لأنها كانت خلافة زمانية فقد قيل خلفاء. كما أن المدة الزمانية بعد هلاك عاد ما كانت تكفي لقيام قوم آخرين في نفس الأرض ويتكاثروا حتى ليملؤوها. ولابد أن كارثة عاد ستظل في ذكراهم، فكان يستلزم أن ينقضي زمن طويل حتى ينحرفوا إلى الكفر ويستدعي الأمر إرسال نبي آخر. كل هذا ينفي أن ثمود كانت بحضرموت. والرأى المرجح هو أن عاد كانت بحضرموت، وثمود كانت في المنطقة المعروفة حاليا في الخرائط بمدائن صالح.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرة، عن نافع بن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس وهو ذاهب إلى تبوك (في سنة تسعة من الهجرة) نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب بها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور. وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم. حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة. ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق. حدثنا معمر، عن عبدالله بن عثمان بن خيثم، عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا ألفج فَعَتَوْا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم.

فهذه الأحاديث تؤكد أن الرسول ﷺ مر بها في طريقه إلى غزوة تبوك فهي في المكان الموضح بمدائن صالح بالخرائط الجغرافية.

وكانت أراضي ثمود خصبة. ولذلك كانت ثمود في رفاهة حال. وكانت لهم ماشية كثيرة، وجنات وعيون وافرة، يستقون منها هم وماشيتهم وزرعهم. ولعلهم ظلوا على ديانة التوحيد - التي كان عليها سام وأبناؤه. ولكنهم بعد فترة ضلوا الطريق، وعبدوا الأصنام، ومن الأصنام التي يقال إنهم عبدوها: ذو الشرى - عمند - منوت - قيس - هبل.

وكانوا يبنون بيوتهم من الحجر والمدر فتنهدم بعد فترة فاتخذوا من الجبال بيوتا، فنحتوا فيها وحذقوا صنعها وأتقنوها.

واصطفى الله منهم صالحا ليكون نبيًا ومبلِّغًا لرسالة ربه إليهم، وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عامر بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام.

وكانت دعوته، مثل دعوة كل الأنبياء، هي عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام:

«وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره».

(٧٣ – الأعراف، ٦١ – هود)

«ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله». (٤٥ – النمل)

وذكَّرهم صالح بنعم الله عليهم قائلا:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين». (٧٤ – الأعراف)

وقال لهم إنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم إلى الله، لأن أجره على الله:

«وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على رب العالمين، أتُتركون في ماهاهنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين، فاتقوا الله وأطيعون، ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون».

(١٤٥ – ١٥٢ – الشعراء)

ومثل الكافرين في كل زمان اتهموه بالسحر:

«قالوا إنما أنت من المسحَّرين، ما أنت إلا بشر مثلنا». (١٥٣ – الشعراء)

واتهموه بالكذب، واستنكروا أن يُختار هو لهذا الأمر من دونهم، مع أنهم هم أشراف القوم ورؤساؤهم:

«كذبت ثمود بالنذر، فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسُعُر، أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر». (٢٣ – ٢٦ القمر)

كالعادة كان أول من آمن به الضعفاء ورقيقي الحال، وكذبه علية القوم ووجهاؤهم واستنكروا أن يؤمن هؤلاء الضعفاء بأن صالحاً رسول مرسل من رب العالمين، ولعلهم استنكفوا أن يكونوا سواء مع هؤلاء الضعفاء ورقيقي الحال في الإيمان برسالة صالح فأعلنوا أنهم لا يؤمنون بصالح ولا برسالته:

«قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفُوا لمنْ آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون». (٧٥ – ٧٦ الأعراف)

وألح في دعوتهم فكانت إجابتهم:

«قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ...». (٦٢ – هـود)

وكان صالح من أوسطهم نسبا وحسبا، فقالوا إنه كان هناك أمل أن يُصبح من الكبراء والرؤساء لولا أنه أتى بهذا الذى يدعو إليه:

«... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير». (٦٢ – ٦٣ هـود)

وأكثر ما يجعل الإنسان متكبرا جبارا فى الأرض هو أن يعتقد أنه ليس هناك حساب فى حياة أخرى، وأن الحياة هى الحياة الدنيا ولا شيئ غيرها، فذلك يجعله يريد أن يستزيد من نعيمها وترفها، فيروح يجمع الأموال من هنا وهناك، من حلال وحرام، فكل مال تصل إليه يده هو ماله، حتى لو كان اغتصابا من مال الأخرين. فالقوة هى الحق فى عرفه. ويريد أن يستزيد من ترف حياته، ولو على حساب إتعاس الآخرين. وهكذا يعيث فى الأرض فسادا، ولا يعتقد فى جبار عادل يحاسبه على أعماله، سواء فى الدنيا أو فى حياة آخرة. لو كان الناس كلهم كذلك لكان هذا صراع الغاب، القوى يأكل الضعيف ويسود البؤس ويكثر الصرعى. ولا فرق حينئذ بين بنى البشر والوحوش، وكان هذا حال ثمود قوم صالح. ويحكى القرآن عنهم: إذ جاء بعد سرد قصة نوح عليه السلام قوله تعالى:

«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون. أيَعِدكُم أنكم إذا متُّم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين. قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين».

(٣١ – ٤٠ المؤمنون)

إلى هنا والكلام ينطبق أيضا على عاد قوم هود فهم كانوا بعد قوم نوح ولكن ما يَجْعَلُ الكلام ينطبق على ثمود هو تكملة الآيات وقوله تعالى:

«فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين». (٤١ – المؤمنون)

فإن من أُهلكوا بالصيحة هم ثمود قوم صالح، وقول قرنا فى أول الآيات لا تعنى بالضرورة الخلفاء المباشرين، بل إن آخرين فى قوله تعالى «قرنا آخرين» بصيغة الجمع تدل على أن قرنا تعنى قرونا، وتدل على البعد بعض الشيئ عن عهد نوح عليه السلام.

فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية وأن يأتى بمعجزة تكون مصداقا لما يقول فقال: اللهم أرهم آية ليعتبروا بها. ثم سألهم أى آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة، فتدعو إلهك فإن استجيب لك اتبعناك، وقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سمّوها وتعنّتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا - فإن فَعَلْتَ ذلك صدقناك وآمنّا بك. فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به. ثم إن صالحا عليه السلام، صلى ودعا الله بذلك، فتمخضت الصخرة ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظَماً ثم نتجت سقبا (فصيلها أى ولد الناقة) مثلها فى العِظَم فآمن به عدد كبير من الناس، وكذب آخرون وجحدوا بها، وكان من بين من آمنوا به رجل يسمى جندع، وكان من أشرافهم، ودعا بقية الرؤساء ليؤمنوا فلم يلبوه.

وكان تحقيق هذه المعجزة اختبارا لصدقهم فى ما وعدوا به من الإيمان إن تحققت.

«إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر». (٢٧ - القمر)

فلما خرجت الناقة قال صالح:

«ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب». (٦٤ - هود)

وإضافة الناقة إلى الله هى إضافة تشريف وتعظيم، لأنها كانت معجزة من الله حققها لهم إذ سألوها دليلا على صدق دعوته.

فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء - وكانت تَرِدُ الماء يوما ولهم يوم.

«قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم». (١٥٥ - الشعراء)

قالوا فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فيرتفع الماء إليها. فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها، ولا تدع قطرة ماء فى البئر، ثم تروح عليهم فيحلبون من لبنها ما شاءوا فيشربون ويدخرون ويملأون أوانيهم فإذا كان الغد من يومهم، تكون البئر قد امتلأت فيشربون ماشاءوا ويدخرون قدر كفايتهم، وكانوا من ذلك فى سعة ودعة.

وكانت الناقة فى الصيف إذا هبط الحر تطلع ظهر الوادى، فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم، وتهبط إلى بطن الوادى فى حره. وإذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب

مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد. فأضرَّ ذلك بمواشيهم، وكان ذلك من الله تعالى هو البلاء والاختبار. فكَبُرَ ذلك عليهم، فأجمعوا على عقر الناقة.

وذكر ابن جرير وغيره من المفسرين أن امرأتين من ثمود، اسم إحداهما صدوق، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل ممن أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى عنيزة، وكانت عجوزا كافرة، فعرضت بناتها الأربع على رجل يُدْعَى قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء. فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى:

«وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون». (٤٨ - النمل)

فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها أى ارتوت كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظمَ ساقها، وشد عليها قدار بن سالف السيف في عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة، تُحذِّر ولدها، ثم طعنوها فى لبتها فنحروها.

وانطلق فصيلها فصعد جبلا منيعا، ويقال إنه دخل فى صخرة فغاب فيها. ويقال إنهم اتبعوه فعقروه أيضا.

«فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر». (٢٩ - القمر)

«إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها». (١٢ - ١٤ الشمس)

وقال محمد ابن اسحق، حدثنى يزيد بن محمد بن خيثم، عن محمد بن كعب، عن يزيد بن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ لعَلى: ألا أحدثك بأشقى الناس، قال بلى، قال رجلان، أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا عَلى على هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى لحيته - رواه ابن أبى حاتم.

«فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين». (٧٧ - الأعراف)

ويلغ الخبر صالحا عليه السلام بأنهم عقروا الناقة، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقيل كان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم: تمتعوا ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب، بما انتهكتم من حرمة الله. فراحوا يهزؤون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب. فأخبرهم أن آية هلاكهم أنهم يصبحون وجوههم مُصفرة، وفى اليوم التالى تكون وجوهم مُحمرة، وفى اليوم الثالث تكون وجوههم مُسودة. ثم يأتيهم العذاب:

«فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب». (٦٥ – هود)

وندم بعضهم على قتل الناقة، ولكن ماذا يجدى الندم وقتئذ!

«فعقروها فأصبحوا نادمين». (١٥٧ – الشعراء)

ولما أمسى أولئك الرهط التسعة، عزموا على قتل صالح، وقالوا إن كان صادقا عجّلناه قبلنا، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته. فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا إلى صالح يرصدون الفرصة للإيقاع به وأهله. فأهلكهم الله، قيل إن الملائكة دمغتهم بالحجارة فأهلكتهم. وأراد قومهم قتل صالح لأنهم اتهموه بقتلهم فمنعه قومه.

وقال البيضاوى: رُوِىَ أنه كان لصالح مسجد فى شِعْب (الشعب هو الطريق بالجبل) يصلى فيه، فقالوا: زعم أنه يفرغ منا فى ثلاث – أى بعد ثلاثة أيام – فلنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب، فوقعت عليهم صخرة فماتوا، واتَّهمَ قومهم صالحا بأنه هو الذى قتلهم، وأرادوا قتله فمنعه أهله:

«قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنَّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون». (٤٩ – ٥٣ النمل)

وقالوا فى تفسير الرهط التسعة – الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون والذين أزمعوا قتل صالح – قصة أخرى.

قال الثعلبى – قال السدى وغيره: أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة، فقال لهم ذلك، فقالوا ماكنا لنفعل ذلك فقال لهم: إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه. فقالوا لاجرم. لا يولد لنا ولد فى هذا الشهر إلا قتلناه. فوُلد لتسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوهم، ووُلد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه، وكان بكره، لم يولد له قبل ذلك شيئ. وكان ابن العاشر أزرق أحمر، ونما نموا سريعا، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم، وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فأقسموا بالله لنبيتنه وأهله (وبَيَّت الشئ عمله ليلا أو دبَّره ليلا أو فكر فيه، وبيَّت القوم أوقع بهم ليلا بغتة) أى أقسموا بالله ليهاجمونه ليلا ويقتلونه. وحتى ينفوا عن أنفسهم هذه الفعلة، قالوا: نخرج فترى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه. حتى إذا جاء الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله، ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه، ثم ننصرف بعد ذلك إلى رحالنا ونعود فنقول لوليه «ما شهدنا مهلك أهله» فيصدقوننا لأنهم يظنون، ورأونا، قد خرجنا فى سفر.

وكان صالح لا ينام الليل فى القرية معهم، بل كان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه فى الليل. فإذا أصبح أتاهم ووعظهم. فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه، قيل: فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه، سقطت عليهم صخرة من الجبل فقتلتهم، وانطلق رجل ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار فإذا هم قتلى، فرجع يصيح فى القرية: يا عباد الله، ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فأراد القوم قتل صالح فمنعه أهله وشيعته.

وبعضهم يروى هذه القصة قبل قتل الناقة وأنه بسبب هلاك هؤلاء التسعة، أجمع الباقون على قتل الناقة.

قيل إن عقر الناقة كان يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مُصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، ثم أصبحوا فى اليوم التالى وهو يوم الجمعة ووجوههم مُحمرة، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث – السبت – ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا، ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب لايدرون كيف يُفْعَل بهم، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات، وأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك:

«فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين». (٧٧ – ٧٩ الأعراف)

«فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلمَّا جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها، ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود». (٦٥ – ٦٨ هود)

«فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر». (٢٩ – ٣١ القمر)

«فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون». (٨٢ – ٨٤ الحجر)

ولعلهم ظنوا أن بيوتهم – وهى منحوته فى الجبال – تحميهم إن كان عذاب الله ريحاً صرصرا كالريح التى أهلكت عادا، ولعلهم عمدوا إلى أبواب البيوت فسدوها بصخرة تحجب عنهم الريح، وفاتهم أنهم مهما ظنوا أنهم فى بيوتهم آمنين فإن عذاب الله واقع بهم لا محالة. وكانت الصيحة والصوت العظيم الذى تنتشر وتتسلل موجاته لأى مكان فتميتهم – وقد يرى

البعض أن الموجات الصوتية هى التى أماتتهم، وخاصة أننا نرى فى عصرنا أن الموجات الصوتية تستخدم فى الطب لتفتيت حصوات الكلى، ولكن الرأى السليم هو أن الصيحة ما كانت إلا تعبيراً عن أمر الله - وكان أمر الله هو هلاكهم، وعبر عنها القرآن الكريم فى مكان آخر بالرجفة فى قوله تعالى:

«فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين». (٧٨ - الأعراف)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة ثالثة بالصاعقة فى قوله تعالى:

«وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين». (٤٣ - ٤٥ الذاريات)

وفى قوله تعالى:

«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود». (١٣ - فصلت)

وفى قوله أيضا:

«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون». (١٧ - ١٨ فصلت)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة رابعة بالطاغية فى قوله تعالى:

«وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية». (٥ الحاقة)

وقيل فى تفسير الطاغية، هى الصيحة وأن أثرها يطغى على المكان والأماكن المجاورة وقالوا الطاغية هى الذنوب - أى أهلكوا بذنوبهم - وقال الله تعالى:

«كذبت ثمود بطغواها». (١١ - الشمس)

أى كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى، وأهلكوا بالطاغية أى بسبب هذا الطغيان، وقيل بسبب الطاغية الذى قتل الناقة ووافقوه على فعله.

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء (ص ٧٨ - ٨٠) ما ملخصه أن الصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين مختلفتين بالإيجاب والسلب فى سحابتين أو بين سحابة موجبة والأرض وهى سالبة فتنتج شرارة كهربائية هى البرق، يصحبه تدافع الهواء فى موجات تسبب صوتا هو الرعد، وقال فى النهاية: فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق. وقد أثار هذا القول لجنة أُلفت بأمر شيخ كلية أصول الدين. وقالوا إنه قد استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة، إذ أنهم فسروا قوله هذا على أن هلاك ثمود لم يكن بمعجزة بل كان بصاعقة - قد تكون شديدة إلا أنه يحدث مثلها فى الطبيعة فى أحيان كثيرة.

ورد هو على رأى اللجنة ردا به إصرار على رأيه ثم راح يحاسبهم على ما جاء من أقوال المفسرين القدماء، فى وقت لم يكن فيه العلم قد تقدم ولم تكن ظاهرة البرق والرعد والصواعق قد فُهمت أسبابها ولا كيفية حدوثها، وكان اجتهاد المفسرين فى ذلك الوقت أن قالوا: الرعد مَلَك مُوكل بالسحاب، معه كَرٌ من حديد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعى إبله، فكلما خالف سحاب صاح فزجره، فالذى يُسمع هو صوت المَلَك. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك، طار النار من فيه وهى الصواعق. وقالوا إن البرق هو ضرب الملك الذى هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد.

وكان الزمخشرى أقرب إلى الحقيقة فى تفسيره إذ قال: الرعد الذى يُسمع من السحاب هو أجرام (أى أجزاء) السحابة تضطرب وتنتفض إذا حَدَتْها أى ساقتها الريح. والصاعقة قصفة من رعد تنتفض منها شقة من نار لطيفة لاتمر بشئ إلا أتت عليه، إلا أنها مع حِدَّتها سريعة الخمول، على أنها متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها.

من هذا نرى أن المفسِّرين كانوا يجتهدون حسب ما هو متاح لهم من العلم والمعارف، فقد تغير تفسيرهم من أن هناك مَلَكٌ موكل بالسحاب إلى إصطكاك أجزاء السحابة بعضها ببعض وهو قريب جداً من التفسير الحالى الذى يقول إن بعض أجزاء السحابة يكون ذا شحنة كهربائية موجبة، وشحنة جزء آخر سالبة. ويحدث تفريغ كهربائى بينهما فتحدث ومضة كهربائية هى البرق، وذبذبات الهواء التى تصاحبها يصدر عنها صوت الرعد، وإن كان التفريغ الكهربائى بين سحابة موجبة والأرض التى هى سالبة انقضّت الشرارة الكهربائية من السحابة إلى الأرض وكانت الصاعقة. ذلك هو التفسير العلمى.

تلك هى الظاهرة الطبيعية لحصول الصاعقة، ونحن نرى فى عصرنا صواعق تنقض على الأرض فتحرق بيتا أو تقتل إنسانا أو حيوانا، ولكن المعجزة أن تحدث صيحة أو رجفة يعقبها هلاك جميع الكافرين من ثمود وينجو المؤمنون وتبقى مساكنهم قائمة، ولا توجد صاعقة من الظواهر الطبيعية تقتل الأشخاص دون أن تحترق بيوتهم، والصاعقة العادية تقتل الشخص إذا أصابته وهو بالعراء، أما إذا كان داخل البيت فإن أعلا البيت هو الذى يتلقى الشرارة الكهربائية الحارقة. ويكفى أن يوضع عمود معدنى مدبب فوق المبنى ليتلقى هذه الشرارة وهو ما يسمى بمانع الصواعق – ليحمى البيت من الاحتراق.

ولكن صاعقة ثمود أهلكتهم ولم تحرق بيوتهم فأصبحوا فيها جاثمين وتلك بيوتهم خاوية، لم تحترق فهى إذن «صاعقة» غير عادية كما أنه لا توجد صاعقة عادية تُفَرِّق بين المؤمن والكافر، كما أن التعبير بالصاعقة مرة وبالرجفة مرة ثانية وبالصيحة فى مرة ثالثة، كلها تدل على حدوث شئ واحد، هو أمر الله لهم بالهلاك، وما دام قد أتى أمر الله فليس لنا أن نبحث فى تفسير كيفية حدوثة، فلا هو تفريغ كهربائى مثل صواعقنا ولا هو رجفة كما يحدث فى الزلازل

ولا هو تضاغط موجات صوتيه كما يحدث في انفجار أو صيحة شديدة، بل هو أمر الله قد أتاهم.

وكما جاء في القاموس المحيط والمعجم الوسيط – فإن الموت وكل عذاب مهلك يُعَبَّرَ عنه بالصاعقة:

«ونفخ في الصور، فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» (٦٨ – الزمر). فنفخة الصور التي تصعق كل من في السموات والأرض شيئ من أمر الله لا ندري كنهه كذلك الصيحة التي أهلكت ثمود. كانت شيئا من أمر الله، ليُهلِكَ الكافرين، فكانت صيحة ورجفة، جاءت فجأة كالصاعقة أهلكتهم جزاءا لما ارتكبوا من طغيان وتكذيب لنبيهم.

قالوا، ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، فلما رأت العذاب أُطْلِقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيئ. فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء وبعد ما شربت ماتت.

ويقال أيضا إن رجلا كافرا من قومهم كان في الحرم. فمنعه حرم الله من العذاب، فلما خرج من حدود الحرم أصابه ما أصاب قومه فمات. ويقال إن اسمه أبو رغال، ويقال إنه أبو ثقيف.

وعن محمد بن إسحق في السيرة، عن إسماعيل ابن أمية، عن بجير بن أبي بجير، سمعت عبدالله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بالحرم يدفع عنه العذاب، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن. هكذا رواه أبو داوود من طريق محمد بن إسحق، قال الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن، وقال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير اسماعيل بن أمية، فيُخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث.

ولكن المشهور عن أبي رغال أنه هو الذي قاد جيش أبرهة من الطائف إلى مكة لهدم بيت الله الحرام كما سيجيئ في الجزء السابع إن شاء الله.

«فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين». (٧٩ – الأعراف).

كان هذا خطاب صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن مَحِلَّتهم إلى غيرها. وقال بعض المفسرين إن صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم – إلى ناحية الرملة من فلسطين. ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها،

ويقولون إن أصلهم من تلك الناحية وأنهم فصيلة من أهل الأحقاف، وهناك قبر يزعمون أنه لصالح، وقرية يسمونها ثمود. وقال آخرون إنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم. وقال آخرون إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربي الكعبة. وأرجح الأقوال هو أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحي فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، كذلك لو قبلنا ما سبق أن أوضحناه في شكل ٣١ عن الطريق التي سلكته القبائل من نسل أرام في ارتحالها حتى وصلت إلى الحِجْر لكانت قبيلة الأب والجد – عبيد وآسف – موجودتين في هذه الناحية. ومن المنطقي أن يلجأوا إليها بعد هلاك قومهم.

وجاء في تفسير الألوسي أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين أما الهالكون فكانوا خمسة آلاف.

وتكاثر الثموديون الناجون من الهلاك في هذه المنطقة من شمال غرب الجزيرة العربية – غير بعيد من الحِجْر – وظلوا يعرفون باسم الثموديين حوالي الألف عام بعد ذلك، والكتابات الأشورية منذ القرن الثامن قبل الميلاد يأتي فيها ذكر الثموديين. ويقول الدكتور محمد بيومي مهران في كتابه (دراسات تاريخية. جـ ١ ص ٢٦٩) إن الملك سرجون الثاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق . م) يذكرهم بين من تحدث عنهم من قبائل خاض غمار الحرب ضدها، وقد دعاهم باسم تامودي Thamudi بل إنه يذكر كذلك أنه هجَّرهم إلى السامرة من بين مَن هجَّر من شعوب. ويقول الملك الأشوري في كتاباته: طبقا لوحي صادق من أشور إلهي، قضيت على قبائل تامودي، والعرب الذين يعيشون بعيدا في الصحراء والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم، سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة.

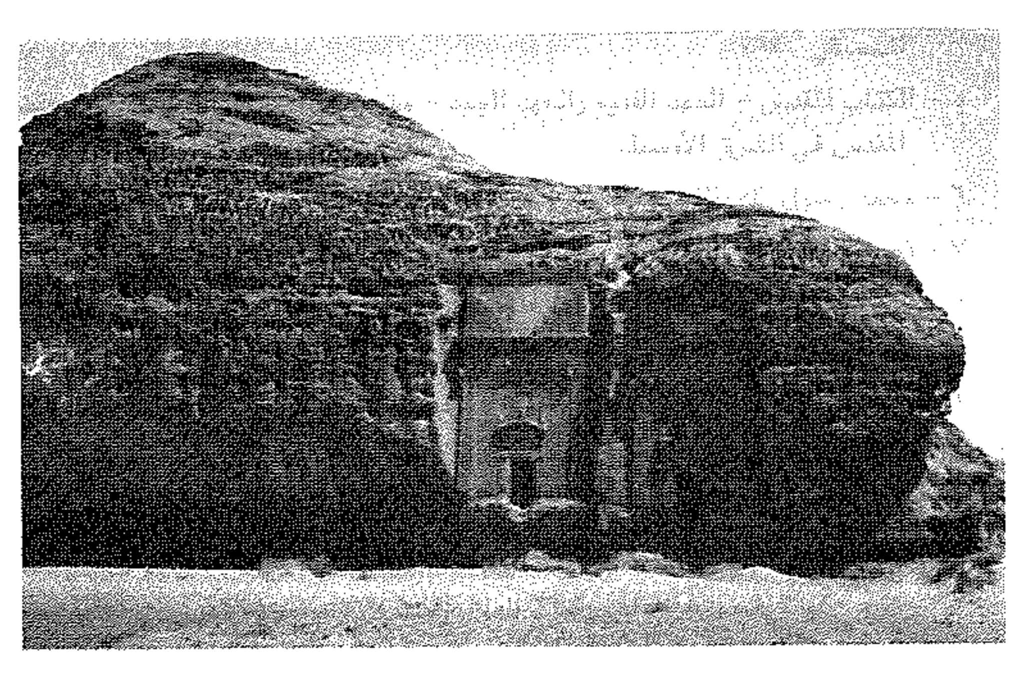
وقصة التهجير هذه بدأت بعد أن نجح الملك الأشوري في القضاء على مملكة إسرائيل الشمالية واحتلال العاصمة السامرة في أخريات عام ٧٢٢ ق . م. وهجَّر سكانها إلى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية – وهو ما يعرف بالسبي الأشوري، وأتى بقوم أخرين من بلاد كان قد استولى عليها ليحلُّوا محلهم. ومن بين هؤلاء كان الثموديون، أتى بهم وأسكنهم السامرة كما جاء في كتاباته.

أما مدائن صالح نفسها فقد سكنها بعد مدة. أقوام أراميون، ووُجدت كتابات أرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء (شكل ٣٧). ويقول جرجي زيدان في كتابه – العرب قبل الإسلام (ص ٩٢) إن مدائن صالح «الحجر» دخلت قبل الميلاد في حوزة النبطيين Nabatians (اسمهم مشتق من نسبتهم إلى نابت – أحد أبناء إسماعيل عليه السلام كما سيجئ فيما بعد.) ووُجِدَتْ أيضا قبور عليها كتابات بالحرف النبطي وتاريخه حوالي الميلاد. أشهرها قبر الباشا ونقش على حجر عليه ما يلي: هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهم

وذريتهم. فى أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين، محب ذو الشرى واللات وعمند ومنوت وقيس. تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها..

ويتضح من هذه الكتابة أن الأقوام كانوا يعبدون الأصنام ومنهم ذو الشرى - اللات - عمند - منوت - قيس.

وهكذا عاد الضلال ليكتنف هذه المنطقة مرة أخرى، ولزم أن يبُعث نبى آخر ليرفع حجب الظلام ويعيد الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد.



شكل ٣٧ - بعض قبور النبطيين التى وجدت فى الحجر.
(يلاحظ أنها منحوتة فى الجبال).

المراجـــــع

١ - القرآن الكريم.

٢ - تبويب أى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية - دكتور أحمد ابراهيم مهنا - أربعة أجزاء - ١٩٧٠ - مطابع دار الشعب - عن كتاب وضعه باللغة الفرنسية جول لابوم وترجمة محمد فؤاد عبد الباقى سنة ١٩٢٤.

٣ - تفسير القرآن العظيم - للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى - أربعة أجزاء - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ١٩٨٠.

٤ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسى البغدادى - ثلاثون جزءاً - إدارة الطباعة المنيرية - مجمد منير الدمشقى ١٩٣٠.

٥ - الكتاب المقدس - العهد القديم والعهد الجيد - مترجم من اللغات الأصلية - دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

٦ - محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار - ٢٠ جزء - دار مصر للطباعة.

٧ - قصص الأنبياء - عبدالوهاب النجار - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت - ١٩٩١.

٨ - قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لابن اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعرف بالثعلبى - مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة.

٩ - البداية والنهاية - أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى - دار الريان للتراث ١٩٨٨ - ثمانية أجزاء.

١٠ - أنبياء الله - أحمد بهجت - دار الشروق ١٩٩٣ - الطبعة العشرون.

١١ - الروح - ابن القيم - السلام العالمية للطباعة والنشر.

١٢ - الله - عباس محمود العقاد - كتاب الهلال العدد ٢٠٧ يونيو ١٩٦٨.

١٣ - الألوهية وفكر العصر: حامد عوض الله - المركز الثقافى الجامعى - سلسلة كتب الدراسات العلمية - القاهرة - ١٩٧٦.

١٤ - الديانة المصرية القديمة: تأليف ياروسلاف تشرنى - ترجمة دكتور أحمد قدرى - مشروع المائة كتاب - وزارة الثقافة - ١٩٨٧.

١٥ - ديانة مصر القديمة: تأليف أدولف إرمان - ترجمة الدكتورين عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى - وزارة المعارف العمومية - إدارة الترجمة - مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

١٦ – تاريخ الحضارة المصرية – العصر الفرعونى – بقلم الاستاذ محمد شفيق غربال – مكتبة االنهضة العربية.

١٧ – مصر فى العصور القديمة: تأليف إبراهيم نمير سيف الدين – زكى على – أحمد نجيب هاشم – مكتبة مدبولى – ١٩٩١.

١٨ – الشرق الأدنى القديم – دكتور عبد العزيز صالح – الجزء الأول – مصر والعراق – الطبعة الرابعة – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٩٠.

١٩ – حضارة مصر القديمة وآثارها – دكتور عبدالعزيز صالح – الجزء الأول – مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٩٢.

٢٠ – دراسات تاريخية من القرآن الكريم – الدكتور محمد بيومى مهران – أربعة أجزاء – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٩٥.

٢١ – مؤلفات جرجى زيدان العامة – المجلد ١٠ – العرب قبل الإسلام – دار الجيل – بيروت – ١٩٨٢.

٢٢ – من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن – رؤوف أبو سعدة – الجزء الأول والثانى – دار الهلال – ١٩٩٣ – ١٩٩٤.

٢٣ – معالم تاريخ الإنسانية – هـ . ج. ويلز – ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد – أربعة أجزاء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٤.

٢٤ – الأطلس العربى – وزارة التربية والتعليم – جمهورية مصر العربية – الإصدار الثامن – ١٩٨٩.

٢٥ – الأنهار العظيمة فى العالم: تأليف آن تيرى هوايت – ترجمة العميد محمد عبدالفتاح إبراهيم – سلسلة كل شيئ عن – العدد ١٧ دار المعارف بمصر – ١٩٩٦.

26 - Man Civilization & Conquest.
Margaret Sharman.
World span 1. Evans Brothers Ltd.
London, Third impression, 1973

27 - Atlas of World History. 3 parts
Colin & Sarah McEvedy.
Jarrold &Sons Ltd,. Norwich - London 1970.

28 - Philips New School Atlas of Universal History.
Ramsay Muir & George Philip.
14th edition. George Philip & Sons Ltd.
London, 1939.